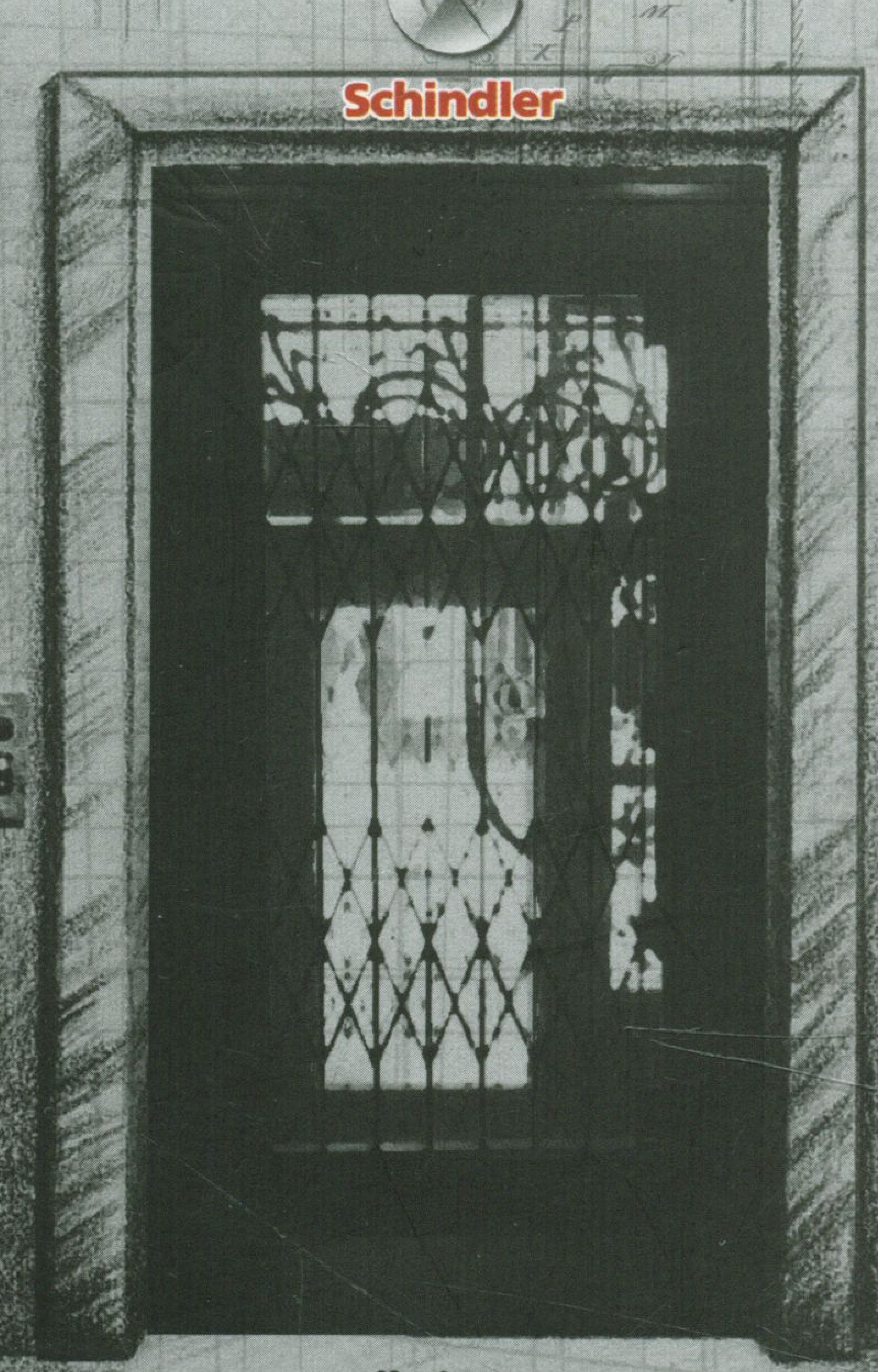


كتالوج شندلر

SCHINDLER CATALOGUE



رواية

عمرو علي العادلي



كتالوج شندلر



رواية

عمرو علي العادلي



العنوان:

كتالوج شندلر

تأليف:

عمرو علي العادلي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

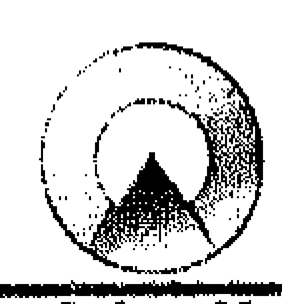
الترقيم الدولي: 977-14-4552-9
رقم الإيداع: 9713 / 2012
الطبعة الأولى: يناير 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة



إهـداء

إلـــى..

عماد العادلي

وإبراهيم حسان

وإبراهيم محمد علي

أحبائي الدائمين

ما دُمت حيًّا.

فقط المواقع في هذه الرواية
حقيقية، أما الشخصيات
والأحداث فمن نسج الخيال،
وأي تشابه مع الواقع
فهو محض مصادفة.

كان ياما كان، الحياة فقيرة والأحداث غنية.

- هل رأيت كل هذا؟

- نعم، وأكثر.

- هل رأيت الناس يموتون؟

- نعم، ماتوا بين يدي، أو أصيبوا بجواري.

- كيف؟ قل لي ولا تبخل بالتفاصيل.

- هذه حكايات شرحها يطول.

- هل ستحكي لي فقط عمن ماتوا؟

- وسأحكي لك أيضًا عمن حاولوا أن يعيشوا.

القـــاهــرة، 1997

شندلر

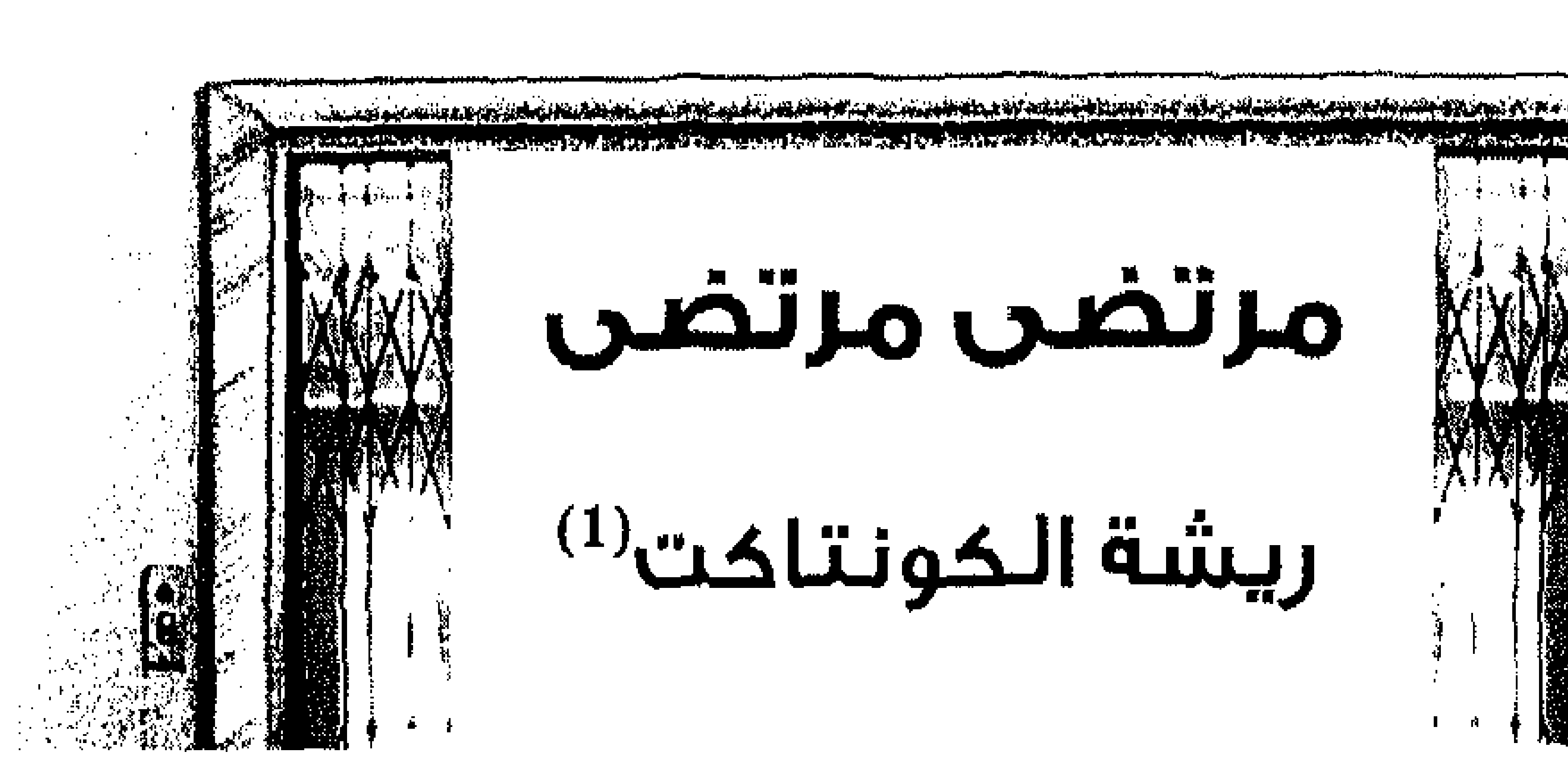
المقر الرئيسي للشركة يطل على ميدان لاظوغلي، أمامها تقع وزارة العدل ومباحث أمن الدولة، على يمينها مبنى وزارة الداخلية ببواباتها الحديدية الكثيرة، ورخامها الأسود الكئيب، وحراسها العبوسين بأحجامهم المتفاوتة، وحراستها المشددة دائمًا، وعلى يسارها التمثال الواقف شامخًا في مهب الغبار، ملابسه الحجرية يغطيها هبو السناج.

الشوارع عريضة وفسيحة، والميدان مخطط بشكل إشعاعي، دائرة كبيرة تشبه قرص الشمس، وشوارع تنساب كأشعة من مركز دائري مضيء، ولاظوغلي باشا يقف في قلب القرص مزهوًّا بلباسه الذي كان يعبر عن الأبهة في زمانه.

الشركة تشغل الدورين الأرضي والأول في مبنى مكون من أحد عشر دورًا، بالإضافة لبدروم يستخدم كمخزن بجوار بعض ورش صغيرة لتجميع وحدات الكنترول وتصنيع الأبواب الصاج. وبالرغم من أن نشاط الشركة أصلاً هو تركيب وإصلاح وصيانة المصاعد فإن مصعد العمارة الموجودة فيها الشركة كان دائمًا مركونًا في الدور الأرضي، ومعلقًا على بابه الحديدي قطعة مقروطة من أبلكاش قديم، محاطة بغابات من خيوط عنكبوت مات ناسجه منذ زمن، مكتوب عليها بـ «البريْمر» الأحمر الباهت وبخط رديء مُسيَّل «عطلان».

في الماضي البعيد - الذي يحن إليه بعض العمال اليوم - كان الوضع مختلفًا، لم يكن ينقص الشركة حتى تصبح أسطورة سوى إنشاء متحف للمراحل التاريخية التي خاضتها، بدءًا منذ أن كان المصعد عبارة عن صندوق خشبي يُرفع بعتلة، حتى صار إلكترونيًا؛ كل زر فيه باللمس.

تخطت شهرة الشركة الآفاق وكانت ملء السمع والبصر في العالم كله. حتى ماركتها المسجَّلة كانت فخمة فخامة الأثر، فهي تعني خبرة موغلة في القِدم، ودِقة تصور بإيجاز آخر ما توصل إليه المنجز البشري من تحدٍّ. كانت الماركة عبارة عن قُرص مستدير منقوش فيه بحروف إنجليزية قديمة كلمة **SCHINDLER** وفي قلب النقش النصف دائري تاريخ بارز يعلن بداية الانطلاق 1874م، كان ذلك منذ ما يزيد عن قرن من الزمان. أما الآن ..



مرتضى مرتضى

ريشة الكونتاكت[1]

قُطعت قدما طه من أعلى السمانة، جزَّتهما عتبة الكابينة، فصلتهما فسقطتا في بئر المصعد، ولم يسقط طه، حملوه كالمذبوح؛ يتفجر منه الدم، كنافورة تحت التجربة، تدفق يشتعل ويخبو حسب ضربات القلب الذي صُرع وارتبكت دقاته. في ثوانٍ تجمع الناس، لم تستطع نظراتهم المذهولة متابعة رِجليه السابحتين في فراغ اثني عشر دورًا، انفصلتا بقماش مقروط ومشرشر عند رِجل البنطلون، حذاؤهما برباط غير منحل، وصلتا للدور الأرضي قبل أن يفيق طه ويدرك أن عشرات الأمتار أصبحت تفصله عن بعضه. مرتضى هو السبب، وأحيل للتحقيق، وجارٍ التحقيق، ومرتضى لا يريد أن يعترف، ولا يزال يردد:

- **دي ريشة الكونتاكت. ولسان الكالون علَّق. أنا ماليش ذنب. هيَّ ريشة الكونتاكت. والله ريشة الكونتاكت.**

---

(1) ريشة نحاسية دقيقة توجد في كنترول المصاعد القديمة نسبيًا، وظيفتها نقر شاكوش صغير معلنة عن اجتياز دور والوصول لدور آخر، تُصنفر بشكل دوري في كل صيانة ليكون قرعها للشاكوش الكهربائي مُجديًا، وعندما لا يتم ذلك بإتقان تتجلط فوقها طبقة عازلة تمنع توصيلها للأوامر التي يعطيها الكنترول لكوالين الأبواب، فيمكن للباب أن يُفتح بدون وجود مصعد، ويمكنه أيضًا عدم الفتح برغم وجود المصعد في مكانه بالدور.

لم يصدقه أحد أثناء التحقيقات، والإهمال الجسيم الذي يؤدي إلى عاهة مستديمة عقوبته السجن سنين، سيقضيها مرتضى خلف القضبان، وطه لا يفهم لماذا فقد قدميه الاثنتين دفعة واحدة، وبضغطة زر واحدة أيضًا، فالذنب ليس ذنبه، ولا ذنب أحد، وحده النصيب، وحتى مرتضى الذي يقولون إنه متهم لا يستوعب ما حدث، يحتجب الكلام ويرفض اختراق قشرة مخه، لا يزال الموقف بالكامل يقف على عتبة وعيه، انعقد لسانه على كلمتين، ظل يرددهما حتى ظن المحقق أن ذهنه وُصم بهما، وأن تلك الكلمات الشحيحة تجمَّدت فوق شعيرات مخه وتجلَّطت كنقطة دم فاسدة:

- **هي ريشة الكونتاكت ولسان الكالون علَّق.**

استحالت لغة مرتضى كلها لهذه الكلمات الجافة المحدودة، وأبَى أن ينطق بغيرها أبدًا، وكأنه يضغط على زر ما عندما يتم سؤاله. جروه للتحقيق فكان أقرب لجثة، مطيعًا كالمسحور، بلا روح أو إرادة، كمن يتم سحبه من فوق ملاءة سرير للدخول في نسيج حلم. «يفنجل» عينيه ولا يرى شيئًا، يعصر مخه ولا يعي شيئًا، لا يعرف فيم سيسألونه، ولا كيف سيجيب، يخور ولا تقوى قدماه على حمله، لم يعطوه الفرصة ليثبت حسن نواياه ويسلِّم نفسه طواعية؟ قبضوا عليه وكأنه مجرم عتيد يفلُّ منه الحديد، وما هو أبدًا كذلك، فهو غلبان ويمشي جنب الحيط مشية المكحكحين.

أيادٍ كثيرة تعصر ذراعيه وتكلبش في ملابسه، أيادٍ لها وجوه، جميعها غاضبة، ملامح قاسية مستعدة فقط لطرح الأسئلة، وربما للفتك به، لا يملك مرتضى سوى الإذعان والانصياع لأوامر الأذرع الطويلة المصممة

بإرادة غريبة على تسليمه، لماذا لم يكونوا على نفس السرعة والاستعداد عندما وقع طه؟ لماذا لم يمسكوا الباب أو يعلِّقوا الكابينة وينقذوا قدميه من الجذِّ؟ لماذا تلخصت همَّتهم فقط في وجوب المحاسبة والعقاب؟

رموا مرتضى على الكرسي وانصرفوا، وكأن وظيفتهم أن يأتوا به إلى هنا فقط، بدأت ملامحهم تستريح وتنفض عبء القسوة والغضب، هذا ما توجب عليهم فعله، فماذا يجب على مرتضى أن يفعل؟

ملابسه ملبدة بالعرق ومنقوعة في الزيت، مزيج زنخ ومقزز يصيب بالدوار، وملامح نصف واعية ونصف شاردة في دنيا الله الواسعة، يتأمل تفاصيل غرفة التحقيق كطفل يستكشف عالمًا جديدًا، مندهشًا، مذعورًا، أو خليطًا بين هذا وذاك، تتبدل من حوله الروائح، هل هي موجودة فعلاً أم يستدعيها خياله؟ شياط فيوز كهربة لحظة رفع السكينة وتوصيل التيار، مختلط برائحة حذائه الفاضحة. هبت من حوله فجأة رائحة مختلفة انتشرت سريعًا في الأجواء.

وفيما هو مقنفد على الكرسي ومنشغل في عمليات حسابية معقدة يصعب رصدها، دخل شاب صغير وأنيق، تتدفق منه الحيوية وتطل من عينيه لمعة، جلس على المكتب الرئيسي، وبالقرب جلس بجواره شاب آخر من نفس سِنه ولكنه ليس من نفس مكانته، واحد يسأل وآخر يدوِّن كل ما يجود به اللسانان، ويخط على دفتره كل ما يلتقطه أثير الفراغ في الغرفة.

كشفت التحقيقات كل شيء، حتى العشرين جنيهًا التي كان مرتضى يتقاضاها كل شهر من محامٍ كبير، المحامي لديه مكتب في الدور الأخير من العمارة التي وقع فيها الحادث، لا يستطيع الطلوع على رجليه لأنه بدين، ولو

تعطل المصعد فلن يذهب لمكتبه، ولذلك ينفح مرتضى عشرين جنيهًا عند كل صيانة، ومرتضى يدسها في جيبه بعد أن يقبّلها ثلاثًا.

ملامح مرتضى مفلطحة وطيبة، رأسه كبير وبيضاوي، وكأنه رُكِّب على جسد أصغر مما يجب، له شنب عشوائي وكبير نسبيًا، كأنه يخص وجهًا آخر، وأنفه المبطط يوحي بأنه مجرم عتيد أو صاحب سجل سوابق محترم، ولكنه أول ما يتكلم تجده طفلاً، بخنفان الأطفال، وبراءتهم، وربما إلحاحهم.

يُفتح الباب فجأة، فيكاد مرتضى يعملها على نفسه، ولكنه يتماسك، صينية فوقها أكواب تصطك، تتحرك وتطل من خلف قفاه، وفم يلفحه من الخلف بزفير حار، ويد خشنة ترفع كوب ليمون طويلاً بشكل مبالغ فيه وتضعه أمام مرتضى، وتضع على الضفة الأخرى من المكتب شايًا وقهوة:

- **أي خدمة تانية يا بيه؟**

يشير البيه ولا يرد، يشيح بأصابعه فتنصرف اليد ومعها الصينية والفم صاحب الزفير الحار، ينغلق الباب بقسوة أكثر مما فُتح، فينتفض مرتضى ويفيق في آن.

في التحقيقات يسألون عن كل شيء، يضيقون الخناق، الحوار كله يبدأ بأدوات استفهام:

- **إزاي؟**
- **فين؟**
- **إمتى؟**
- **ليه؟**

يستهلكها المحقق ويزيد عليها من عنده:

- «مين اللي؟ وعملت إيه؟ حد معاك؟ كانت الساعة كام؟ وإيه عرَّفك؟».

فيزهق المتهم، ويرى أحيانًا أن الاعتراف ليس أصعب الطرق، ولكنه يمكن أن يكون قرارًا مريحًا، أو هو أهْون من المقاومة؛ فالمقاومة تعصر شعيرات المخ، تُجهز على ما تبقى من عزيمة وتكسر بالداخل أشياء، وكأنها تسقط من السماء السابعة. فالمحققون مدربون، يعصرون المُسْتجوَب، ويهرسونه بأسئلة حادة ومباغتة، تنهشه كأسنَّة قاطعة لها أصوات تمزيق وقرقعات، ويجب عليه الرد، أي رد، فلا بد لكي يكون بريئًا أن يرد، وبسرعة، وأقصى سرعة لمرتضى بطيئة بطء سلحفاة، فهو في وضع لم يجربه من قبل. يجاهد لكي لا يعترف، ويقول: شدة وتزول. يُصبِّر نفسه ولكنها لا تزول. سينتظره العيال على الغداء، ولن يذهب، سيُرفد[1] من الشركة، والعيال لن يحصلوا على معاش، فأبوهم سيسجن ويصبح له سجل سوابق، ربنا يستر.

يتغير المحقق والمكتب، والمتهم كما هو، تتغير الأسئلة والمطلوب إثبات أن مرتضى هو المسئول عن تحرك الأسانسير الذي لهف رُبع بني آدم، ومن الذي تسبب في نزول الكابينة من الدور الثالث عشر للدور الثاني عشر، فيما كان الباب مفتوحًا، أين وسائل الأمان؟ هل عُطلت بفعل فاعل؟ ومرتضى يغوص ويغوص، ولم يبق منه سوى جثة محنطة، والمطلوب من الجثة أن تعترف، فإذا ما تلجلج أو تلعثم أو أصابه الخرس فالخوف هو السبب، ولا بد هو الفاعل،

(1) لقد رأينا كتابة بعض المفردات كما يتم نطقها، وذلك لأن أصلها اللغوي الصحيح لا يؤدي في النفس الأثر المطلوب، وإحساسها لا يتوافق مع طبيعة اللغة هنا، مثل رفد بديلاً عن رفت، وشوال بديلاً عن جوال، ودكة بديلاً عن أريكة... إلخ.

وإذا رد على الأسئلة بثقة وسرعة فإنه حويط، ودبر لأن يطلع منها كالشعرة من العجين، ولا بد أنه أيضًا الفاعل، فالنيابة ليست شخصًا، بل أشخاصًا كثيرين، يدرسون علم الإجرام ويأخذون بالأدلة والشواهد، وينفذون لمكامن الضعف الإنساني من نظرة عين، فيؤكدون كلمة قالها الزبون المسحوق، وفجأة يتخلون عن التأكيد، ثم ينزلقون بخفة لينفوا قول الكلمة من أساسه. ومرتضى غلبان، أو بالأحرى ساذج، يبرطم محدثًا نفسه بكلمات تتركه في منتصف الطريق، بصوت لا يتجاوز حلقه، كلام ملضوم كالمسبحة ومخارج ألفاظ أقرب لهذيان، لا يستطيع تدبير جملتين على بعض بدون تلعثم أو أخطاء.

وكيل النيابة يسأله عن العشرين جنيهًا، ومرتضى لا يرد، ثم استجمع شجاعته وقال: حلاوة.. ثم غيَّر أقواله: إكرامية.. ثم قال: شاي.. ثم لم يفهم المحقق من كلماته سوى «المحامي بتاعي» وفي كل مرة يرفع كوعه أمام وجهه، وكأن الوكيل المهذب سيلهفه بالقلم أو سيركله بالشلوت، يظل رافعًا كوعه وهو يتكلم، وينظر خلفه بعين زائغة، وتحزن ملامحه المفلطحة، ويزر عينيه فتتكرمشان ويتحول محيطهما لدوامات جلدية سوداء كبلح مجفف، تتوه مقاصدهما، تبهتان وتنكمشان، كحبتي أم الخلول، تصبحان رماديتين ومائعتين، يختلط فيهما البياض بالسواد، ولا يرى، ثم يتذكر بعد أن يجف نبع الكلام، فتعاود نفس الكلمات المرور على لسانه، وكأنه يتغرغر بها:

- **لسان الكالون علَّق. أنا ماليش ذنب يا بيه. هيَّ ريشة الكونتاكت. والله ريشة الكونتاكت.**

تدفق عفوي يلفظه لسانه. وكيل النيابة الشاب يعرف عن مرتضى

الكثير، ربما يعرف حقائق لا يعرفها مرتضى نفسه. يظهر ذلك على قسماته الهادئة وسيل الأسئلة المنهمر كالمطر فوق رأس المسكين الجالس ينظر ببؤس للمحقق ويتابع أنفاسه وهمساته.

لا يستطيع برغم المحاولات أن يتكئ في جلسته بكل ثقله، يستشعر يدًا خفية ستلتقطه من فوق الكرسي الجلدي المريح وتلقي به على بُرش مليء بالبق والقمل وبصاق المساجين. نماذج صغيرة تتجول على حافة خياله عما به سيفعلون. والحادثة الدموية تحلقت حوله كشريط صور متتابع يمر على مشارف حلم سخيف، لا يريد أن ينتهي ولا يسمح له بالاستيقاظ. تكاثرت رجل طه المجذوذة المشرشرة والدم يشخب منها، تنبض بنتف مخضبة من لحم حي، امتدت في طابور طويل من الأرجل طوقت عنق مرتضى وكادت تخنقه وتعصر فوقه سطلاً من الدم الساخن. تدور فوق شريط مخه كلمات فقدت معناها، انسلخ عنها الرمز الذي يربطها بالموجودات والأحاسيس:

«محضر.. تحويل.. نيابة.. ذمة تحقيق.. قسم شرطة.. عربية ترحيلات.. كاب.. كلبش...»

تداخلت هذه الكلمات مع مفردات أخرى، فشكّلت ضفيرة مجدولة يصعب فك اشتباكها:

«كابينة.. أحبال.. مواتير.. مفك.. سطح.. دور أخير.. بدروم.. زر طلب...».

الزبد يحوط جانبي فمه ويمسحه بظهر كفه، ريقه ينشف ويبلع لعابه بصعوبة ويشعر بخنقة لا تنتهي، لا تريد أن تتركه، ولا يستطيع أن يتركها.

ويأتي دور العشرين جنيهًا، ويبرر لنفسه. فالعشرون جنيهًا يشقى بها مرتضى، ويستحقها، فهو يدوخ من أجلها السبع دوخات، ويُرضي جميع السكان، يُلمِّع الأبواب لكل دور، من الداخل والخارج بالسبيداج، يرشه على فانلة قديمة استفحلت ثقوبها فصارت قطوعًا ينفذ منها الكف؛ فحوَّلها للعمل وأصبحت هدوم شُغل، يشوف مرتضى اللازم، يغيّر لمبة محروقة، أو يزنق زر طلب الأدوار بفلة سيجارة حتى يكون الضغط عليه مُجديًا، أو يبخ من زجاجة معطر تواليت صغيرة يحملها معه دائمًا، بخة واحدة مقتضبة، فقط عندما يُفرِّج المحامي الكبير على عمله ونظافته التي هي زي الفل:

- **شوف.. شوف يا سعادة البيه.. حاجة مخصوص.. عشان حضرتك بس والله.**

ويخرج المحامي الكبير، ويشوف، وينبسط، ويدس يده في جيب البدلة بعد أن تبحث يده الغليظة عن الفتحة مرارًا، فتخرج وبين أصابعه العشرون جنيهًا، يتمنع مرتضى في الأول ويرد يده قليلاً:

- **هوَّ احنا عملنا حاجة سعادتك؟ والله ما له لزوم.**

وكأنه بالفعل لن يأخذ، ولكنه يأخذ:

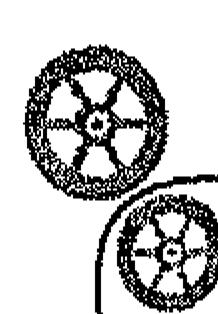
- **يجعله عامر يا بيه.**

وقبل أن ينصرف المحامي الكبير يسأله مرتضى:

- **أي خدمة تاني يا بيه؟**

ويرد البيه:





- ثانية واحدة يا أوسطى.

ويغيب داخل مكتبه لدقائق، ثم يرسل مندوبًا عنه:

- كلم البيه.

فيهرول مرتضى جريًا في جري ليكلم البيه، ويجد في انتظاره داخل المكتب بعض الأعمال البسيطة، فيشة طرفها سائب، وش مفتاح «ماجيك» مخلوع، لمبة فلورسنت تحتاج لتغيير أو لفها وتعديل وجهتها. وينظر المحامي لمرتضى على أنه شخص ماهر يمكنه تحويل المروحة لتكييف، أو تحويش الطاقة الشمسية في زجاجة، ولم يكن مرتضى كذلك، وإن بدا عليه ذلك. يتعلَّق على السلم «البلاكار» يظل من الداخل يرتعش كالجيلي، ولكنه لا يتراجع، فقط يهتز قليلاً ويتطوح بقدر محسوب، فهو يخاف من الكهربة، ولا يعطيها أبدًا الأمان، فحكايات الأقدمين من فطاحل الشركة تُشيِّب ما بقي له من شعر. فهذا مسكت فيه ولم تتركه إلا هيكلاً مفرغًا كخيال المآتة، ليس فيه درهم من شحم أو لحم ولا نقطة من دم، وذاك دخل على الفازات الثلاثة فقفشته وتحوَّل لكومة فحم، لمُّوه بالجاروف وسلموه لذويه في كيس زبالة أسود بعد أن تفحمت معه هبرة أسطبة مزيتة وساح بجواره مفك تيست واختلط بلحمه المقدد.

وبرغم ذلك فمرتضى يظهر أمام المحامي وكأنه «صنايعي» جسور، لا يهاب كهرباء ولا يحزنون، يُغيِّر اللمبات المحروقة ووشوش «الماجيك» التي فقدت مساميرها، فمعه دائمًا شنطة صغيرة زرقاء ولها سوستة، بها أنواع شتى من المسامير، قلاووظ، خشابي، سن صاج، بورمة صغير، وكبير، ومسامير

لوشوش المفاتيح، وأخرى للشاسيهات، ومعه أيضًا عدة كثيرة، مفاتيح بلدي ومشرشرة، ومفكات عادة وصليبة، ومفتاح إنجليزي وفرنساوي، ومفتاح ستونسون، وبنسة عادية وأخرى كلّابة، وزرادية، قصافة وقشارة، وآفوميتر وفولتميتر. يستف كل ذلك في شنطة متسخة وملحوسة، يعلقها في حزام جلد ضاق عليه، فخرمه بالمفك، وركّب له أبزيمًا، وعلق فيه الشنطة التي تستقر دائمًا على جنبه الأيمن، وتُطبّل على مؤخرته في كل خطوة، ولابد لكل عامل في الصيانة أن يكون له شنطة كهذه، فالأمر لا يسلم، والرزق يحب الخفيّة، ومسمار في الشنطة ولا الحوجة.

ويُنجز مرتضى ما طلبه المحامي، فينفحه عشرة جنيهات أخرى إضافية، ويفعل مرتضى ما فعله من قبل، بنفس الطريقة، ونفس الكلمات:

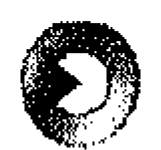
- **هوَّ احنا عملنا حاجة سعادتك؟ والله ما له لزوم.**

ويسحب المحامي الورقة من جيبه، ويدسها مرتضى في جيبه، ولم يكن مرتضى يحصل على الشهرية بسهولة، فأحيانًا يقف كالشحاذين أمام باب مكتب المحامي الكبير، حتى يراه ويشعر بوجوده، وأحيانًا يُسخّف عليه بواب العمارة ويطلب منه كنس بئر المصعد، فلا يتردد، يكنسها، وبالمرة يكون ربنا فرجها وجاء المحامي، فيأخذ العشرين جنيهًا، يشتري بها الفينو واللبن للعيال، ويذهب جريًا في جري إلى بيته في منشأة ناصر، يراه من طريق صلاح سالم كحسنة في وجه الجبل، كان أحيانًا يصعد للحسنة بدون فينو أو لبن، وتسأله زوجته، ولا يُجيب، والدنيا تغلي، والأسعار تتجن، والبيت الواهن آيل للسقوط، وقرارات الإزالة تزحم درج مكتب موظف في الحي، فيرسل

مندوبًا للبيت، ولا مرة ينسى، كل شهر يرسله، و«يشوفه» مرتضى، ويدس في يده العشرين جنيهًا التي يتقاضاها من المحامي الكبير.

وتاريخ مرتضى في الشركة ليس طويلاً، لم يتم فيها سوى سبع سنوات، كان من آخر دفعة تم تعيينها في العام 1991م. توظف مرتضى في مرحلة الأفول من تاريخ الشركة الطويل، ومعظم من تم تعيينهم لم يكونوا مؤهلين لأن يديروا عجلة التركيب والإصلاح والصيانة في أقسام الشركة العتيقة. فأغلب الأسطوات المهرة كانوا قد سافروا وتفرقوا بين شرق وغرب الوطن العربي، وتركوا من خلفهم ذرية ضعافًا من أشباه المساعدين والصبيان، وأصبح كل همِّ الصنايعية الجدد هو لَمّ الفلوس، حتى ولو لم يرَ الزبون ريحة الصنعة في صنيعهم، واحتاجت الشركات للفنيين بعد أن أفاقت من غفوة هجرة العمالة المُدربة. وكانت المدارس الفنية الصناعية تزرب كل عام عشرات الآلاف من الطلبة الذين لا يعرفون عن دراستهم سوى ورقة بيان النجاح بعد انقضاء السنوات الثلاث من نقل إجابات الامتحانات من على السبورة. فقرر المسئولون عن حال الصناعة زيادة عدد الطلبة الصناعيين ليتم تدريبهم في الشركات المختلفة، يومين كل أسبوع، ليتم سد العجز، ولكن أغلب الطلبة كانوا يتركون الشركة بعد انتهاء فترة التدريب الإجبارية، فالمرتب بائس ولا يشجع إلا على التجمد أو مد اليد للسلفيات قبل أن يهل يوم عشرة في الشهر. فاستعانت إدارة الشركة كغيرها من الشركات بتعيين كل من هب ودب.

ومنذ بداية الثمانينيات حتى بداية التسعينيات تم تعيين كل من كان



يُعرض على الشركة تقريبًا، فمنهم من كان حلاقًا أو ترزيًا أو مبلط قيشاني، ومنهم من كان عاطلاً لا يعرف إلا شرب الشاي والشيشة على القهاوي. كان المشترك العام بينهم أنهم جميعًا حاصلون على دبلوم فني صناعي وسنهم أقل من ثلاثين عامًا، فقط هذه هي الشروط، فتقدم للشركة عمال من كل الطوائف.

كان مرتضى من بين الذين أسعفهم الحظ فتعينوا بالكوم، كان يعمل خادمًا لمسجد، يقف حارسًا على دورات المياه، ويأخذ باله من ضبط صفوف المصلين، أو يكتب بخط منكوش عبارات يعلقها على حيطان المسجد «القبلة جهة اليمين قليلاً.. التدخين حرام شرعًا.. ضع متعلقاتك بجوارك..» أو يساوي بين النعال والقباقيب في الميضأة، أو يلملم الحُصر بعد صلاة الجمعة. تم تعيينه في الشركة بمرتب لا يفرق كثيرًا عن مرتب وزارة الأوقاف الهزيل، لا يكفي المواصلات وشقتين فول كل صباح، وكان بالطبع يعيش على المعونات، كأغلب الموظفين القاهريين المنحدرين من أصول ريفية، فالمعونات تأتي للمساعدة على المعايش بشكل دوري ومنتظم من البلد، أي بلد، المهم أن يكون فيها غيطان وسنابل قمح وكيزان ذرة، وحقول خضراء تبرطع فيها البهائم، والزرع طالع على مدد الشوف من كل صنف ولون، فالأرز يأتي لمرتضى بالأردب، واللبن بالشلية، والفطير بالمشنة، والدقيق بالشوال، وزلعة الجبنة القديمة ناشعة بالمش ومغلقة بكومة قش، تأتيه جاهزة تطلب الأكّيل، وكذلك السمن البلدي، والجبن القريش والقشطة، وحتى الجلباب البلدي أبو صديري، وبلغة وطاقية لزوم المنجهة.

ولأن مرتضى يحمل اسم أبيه فهو يحمل أيضًا الأغلب الأعم من صفاته، يُحَوِّش القرش الأبيض، وتكثر الأيام السوداء، ولا يُرضي مرتبه البائس شيئًا من طموحاته، ويردد الأمثال التي يرثها ويحفظها: «اشتغل بحبة وحاسب البطال.. وإن فاتك الميري.. وعلى قد لحافك..» لم يعطه تكرار الأمثال أكثر من الركون والتنبلة، أو كما كان يحب أن يسمي ما يفعله بأنه قناعة، فظل طوال سنواته السبع محتاجًا للقرش، مشتاقًا للاستقرار، ولا يريد أن يخرج عن الخط في عمله، ولا في غيره، ليس خوفًا من أن يحاسبه أحد، ولكن جُبنه الريفي فرض عليه ذلك، وركون أبيه بجوار الأرض علمه الكسل والبلادة، فورث مرتضى من أبيه الإسراف في الكلام عن الفضيلة والشرف، وكان دائم التأكيد:

- **لو عاوز يكون عندي مال قارون من الحرام في الشركة حشيل وحغرف.. لكن أنا أحب أغمسها بالحلال.**

وقد كان في تلك الأخيرة نسخة من أبيه، العسكري النظامي الذي خرج على المعاش بلقب صول بعد أن دخل الميري وهو عسكري نفر، كان أيضًا طوال الوقت يقول:

- **لو أنا باصص للحرام كان زماني بنيت قصر.. قول قصور.**

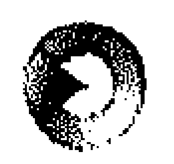
وكأن الوازع فقط هو اختياره، وكأن ضميره فقط هو المتحكم في المسألة برمتها، لم يقل أبوه ولو مرة واحدة إنه لا يستطيع فعل ذلك، وإنه ليست لديه الإمكانيات ولا الاستعدادات لفعله، فالحرام ليس دائمًا سهلاً، بل هو في أغلب الأحيان أصعب وأشق على النفس من الحلال.

وكيل النيابة لا يزال يسأل، ومرتضى لا يحيد عن كلماته المرصوصة فوق سطح ذهنه، لتناسب شيئًا غامضًا في نفسه:

- **لسان الكالون علّق. أنا ماليش ذنب. هيَّ ريشة الكونتاكت. والله ريشة الكونتاكت.**

يقول مرتضي وملامحه ساكنة، أو بالأدق واجمة، ذاهلة وسارحة وكأنه يشاهد فيلمًا صعب التخيُّل عسير الاستيعاب. يشعر أن حشية الكرسي ترتفع به. أكداس من الأفكار تدور ولا يستطيع الإمساك بواحدة. يبلع ريقه مع كل نفس، ورجله ترفس الهواء في نفضة لا إرادية، وبرغم الجو شبه المعتدل، فإنه يشعر بملامحه تُخرج صهدًا، ينتفض كمن اقترب من هلاك، في أحيان كثيرة كانت الكلمات تعصلج وتأبى الخروج، يحاول أن يمرن لسانه ببعض الهسهسة، وتنتهي محاولاته على فاشوش. فيحاول بعد جهد يظهر على ملامحه المزرورة أن يقرأ آية الكرسي. وتأتيه بعض مفردات مبتورة، ويتملص البعض الآخر برغم محاولاته الجادة في الاستدعاء.

ومرتضى كأغلب الشخصيات التي خُلقت لا ليكون لها دور محدد يتوجب عليها فعله، ولكنها خلقت لتوازن الكرة الأرضية فقط، جاء يجري في الحياة لأنه قد كتب عليه ذلك، لم تكن له في الأحداث وجهة نظر يمكنه شرحها، أفكاره مائعة، في أرقى وصف لها تأتي عادية ومكررة وباهتة، لا يخرج عن «الكمالة» لأبيه، لا يهوى الحذف ولا يُفضّل الإضافة، ولو ألغينا من عمره التكرارات فلن يبقى له إلا سنوات الرضاع. وملامحه كانت متوافقة كثيرًا مع ما بداخله، ساكنة ومتأملة، صخرية وثابتة؛ كأنها قُدت من نبع الحياة نفسه، فمه مبطط وعريض



وساكن أغلب الأوقات، لا يتكلم إلا لمامًا، وإذا تكلم قال كلامًا عاديًّا، في الحر يقول: الجو نار والعرق مرق. وفي الشتاء يقول: الدنيا متلجة والبرد رصاص. وعند تقاضي المرتب يشتكي كغيره من ارتفاع الأسعار، والعالم الذي يغوص في خياله أكثر بكثير مما يطفو على طرف لسانه. نظراته لا تخلو من حيرة، تثبت دقائق طويلة على شيء ما دون أن تقصد رؤيته. ويخاف مرتضى من الإدلاء برأيه، ولكنه كان يخبطها واللي يحصل يحصل، مثله مثل من يخوضون الحياة بلا اقتناع كامل بتمثيل دورهم، ولكنهم على أية حال يؤدونه حسب إمكانياتهم والسلام.

لا يدري مرتضى لماذا بدأت حكايته على هذه الصورة، ولماذا انتهت هكذا؟ هل ما حدث يصلح نهاية أصلاً؟ يسأله الوكيل الشاب وقد أوشك صبره على النفاد:

- **البواب قال إنك أنت اللي غيرت الكالون وريشة الكونتاكت. وهما دول المسئولين عن قفل الباب. ولما مقفلش كويس زنق رجلين طه وقطعها. يعنى انت المسئول عن الحادثة. ردك إيه على الكلام ده يا مرتضى؟**

ساخت روحه في الأرض، وأصوات غريبة مبحوحة تنفلت منه ولا يستطيع ضبط إيقاعها. بماذا سيرد؟ ما يقوله الوكيل حصل، ولكنه لم يقصد أبدًا أن يقطع رجلي بني آدم، وطه غلبان وعنده عيال، وجت فيه، ومرتضى كمثل كل من يعملون في الشركة «يقلّب عيشه» وكلهم يفعلون ذلك منذ سنوات طويلة، وهو أول مرة يعملها، ولكن الطوبة جت في المعطوبة وحصلت المصيبة، فبماذا يرد؟ هل يقول إن أغلب العاملين في الشركة يبدلون قطع الغيار لحسابهم بدون تدخل رسمي من الشركة؟

أم يقول إن من يتركونهم يفعلون ذلك لا يغضون الطرف عنهم لوجه الله، ولكن لكي يكون هناك ما يكسر عين العمال، وإن تلك الأوراق يستخدمونها عند الحاجة، وكبش الفداء لما يقع تكثر له السكاكين، فلو اعترف بما يعرفه، أو قال بما يسمعه، ربما كان عقابه من الشركة أقسى من عقاب تحقيقات النيابة أو حتى الحبس، ففي أروقة الشركة تدور حكايات أغرب من حكايات ألف ليلة، وما يُحكى من مغامرات في البوفيه يجعل من الشركة دولة صغيرة بصولجان، وفيها شعب صغير غلبان وجوعان، لا يُحاسب فيها إلا من تجتمع الآراء العليا على وجوب محاسبته. ولو أرادت تلك «العليا» ألا يكون مرتضى هنا الآن لما ترددت لحظة، ولكنه طوال الوقت يسأل نفسه: هل وقع عليه الاختيار؟

قطع الغيار الأصلية غالية جدًّا، وفواتير الشركة تزيد الطين بلة، وتضاعف الأرقام لتصبح فلكية. فكان لا بد للعملاء أن يهربوا من الدفع، أحيانًا بالتعاقد مع شركات أخرى، وأحيانًا بمصارحة المسئولين بجشعهم وبأن قيمة الفواتير تُحدد بطريقة عشوائية. وكان هناك الحل الأسهل، أن يقوم العمال بأنفسهم بتغيير ما يتلف من قطع غيار، لسان كالون. طلمبة باب. ثم امتد الأمر ليشمل كابل توصيل زر الطلبات. كالون كامل. مبيِّن أدوار. ثم تبجبح قليلاً ليصبح تغيير الأحبال الصُلب. أو تجليد الكابينة بالإستنلس ستيل. ثم أخيرًا تركيب الكابينة والثقل والموتور والعمدان، أسانسير كامل من الألف للياء، ولكن هذه العملية الأخيرة لابد أن تتم بإشراف المهندسين الكبار، فالكعكة عندما تكون كبيرة يمكنها أن تُفطِّس العامل، أو حتى مجموعة من العمال، وشريحة المهندسين حددوا نسبتهم سلفًا، ستين

في المائـة مـن ربح التركيـب الخارجي، رئيـس مجلـس الإدارة لوحده يحصل عـلى ثلاثـين بالمائة، ولذلـك يصيِّف دائمًا خـارج مصر، مرة في فرنسـا، ومرة في تركيـا، ومرتضى يعتقد أنهما بلدان متجـاوران، والفرق بينهما قارب صغير يركبه الواحد لمدة نصف ساعة على الأكثر، ويسمع عن الرحلات ولا يعرف عـن حقيقتها شـيئًا، فقط يرى وجه رئيـس مجلس الإدارة متـورِّدًا ومكلبظًا، وبِدلـه الغالية المسـتوردة، والبايب المرتعش في يده يُذكِّره بالسـادات، رآه في مكتبه مرة واحدة، عندما وقّع له شـخصيًّا على منحة الزواج، استمارة صرف نقـود قيمتها مائة جنيـه، أنفقها يوم الصباحية على عزومة أقاربه، شـخبط له رئيس مجلس الإدارة على الورقة بعجالة، وبدون كلام أشـار له بطول ذراعه بأن ينصرف ففعل. يتخيله مرتضى دائمًا شخصًا ظالمًا، وصمه الخيال الجمعي للعمال بتلك الصفة، فأصبحت كلماته وأفعاله كلها متوافقة تمامًا مع شخص ظالم. لا ينسى مرتضى فرحة العاملين بالشركة عندما جاءهم الخبر بأن رئيس مجلـس الإدارة مريض، هو لم يقـل بأنه مريض، ولكن الرقبـة الطبية البيضاء التـي تطـوق عنقـه أعلنت ذلك، فكان يسـير إلى مكتبه يسـبقه رأسـه للأمام كجمـل، وقال المهندسـون المقربـون منه إن ذلك من كثـرة التفاني في العمل، وقـال العـمال إن ذلك جزاء من الله على ظلمه لهم، ولم يقل هو شـيئًا، ظل كما هـو يفعـل ما كان يفعله طـوال أكثر من ثلاثـين عامًا، فمن يبتغـي التغيير في الشركة أهون منه لو طلب ذرِّية البغل.

تجمـدت بقع متناثرة من دم محتقن فوق وجه مرتضى، وكأن القلب يضخ كل الدم فقط لملامحه. لون قسـماته أحمر غامق مختلط بزرقان قابض، وابتسامة واهنة يسـتجديها مرتضى، لا تقوى وحدها على مواجهة الموقف، ولا تصمد

أمام الرهبة، تتحول لتبريقة طويلة وكأنه لن يرى بعدها أبدًا. بين برهة وأخرى يشرئب عنقه ويطل برأسه ربما يرى شيئًا، ربما يسترشد بالكلمات الرابضة فوق الورقة ويعرف ماذا به سيفعلون؟ وهل يكتب الرجل الصامت ما يقوله مرتضى فعلاً، أم يخترع ويضيف كلمات أخرى من عنده؟

جسد مرتضى بارد كجسد ميت، ورأسه وحده دافئ، ملتهب من كثرة ما يدور فيه من عمليات معقدة. مصدر مجهول كان يمده بالكلمات الشحيحة والأفكار المبتورة نصف الواعية. وأخيرًا أضاف مرتضى إلى أقواله:

- **أنا معرفش حاجة سعادتك. وحياة ربنا ماعرف. جايز فازة الكهربة قطعت. قامت ريشة الكونتاكت علقت. والأسانسير مشي والباب مفتوح وداس على رجلين طه. دانا حتى زعلان عشانه أوي، أصل طه دا سعادتك يبقى صاحبي. حتى هما جابوني هنا من غير ما اروح اطمن عليه في المستشفى....**

قاطعه المحقق بعنف، شخط فيه وجاء سؤاله هذه المرة محددًا ومختصرًا:

- **إنت يا مرتضى اللي غيَّرت ريشة الكونتاكت ولسان الكالون قبل الحادثة بيوم؟ جاوبني بأيوه أو بلأ.**

خرجت الكلمة من جوف مرتضى وسكنت حلقه، وبرغم سذاجته الزائدة عن الحد فهو يعرف جيدًا أن كل كلمة محسوبة عليه، ويمكن بسببها أن يقضي ما تبقى من شبابه خلف القضبان وبعيدًا عن بيته «الحسنة» وموظف الحي الذي يأتيه كل شهر، وزوجته التي تبلع الحبوب لتمنع نفسها عن الخلفة، وأولاده الخمسة الذين لم يبلغ أكبرهم الثامنة، وبرغم

قسوة الحياة وقلة موارده وشكواه لطوب الأرض من ضيق المعايش؛ فإنه لأول مرة يرى كل ما فات هو الجنة بعينها إذا ما قورن بما ينتظره بعد هذه التحقيقات المُهلكة. تسرسب الاعتراف في لمحة، برهة وجيزة تدفقت فيها الكلمات، وكأن قوة ضغط لا تُرى أجبرته على حكي ما حدث وقول ما مر على شريط الحياة بالفعل. خرجت الكلمات من حلقه، ثم تلفت حوله وكأن من قالها هو آخر غيره:

- **أيوه. أنا اللي غيرتهم سعادتك.**

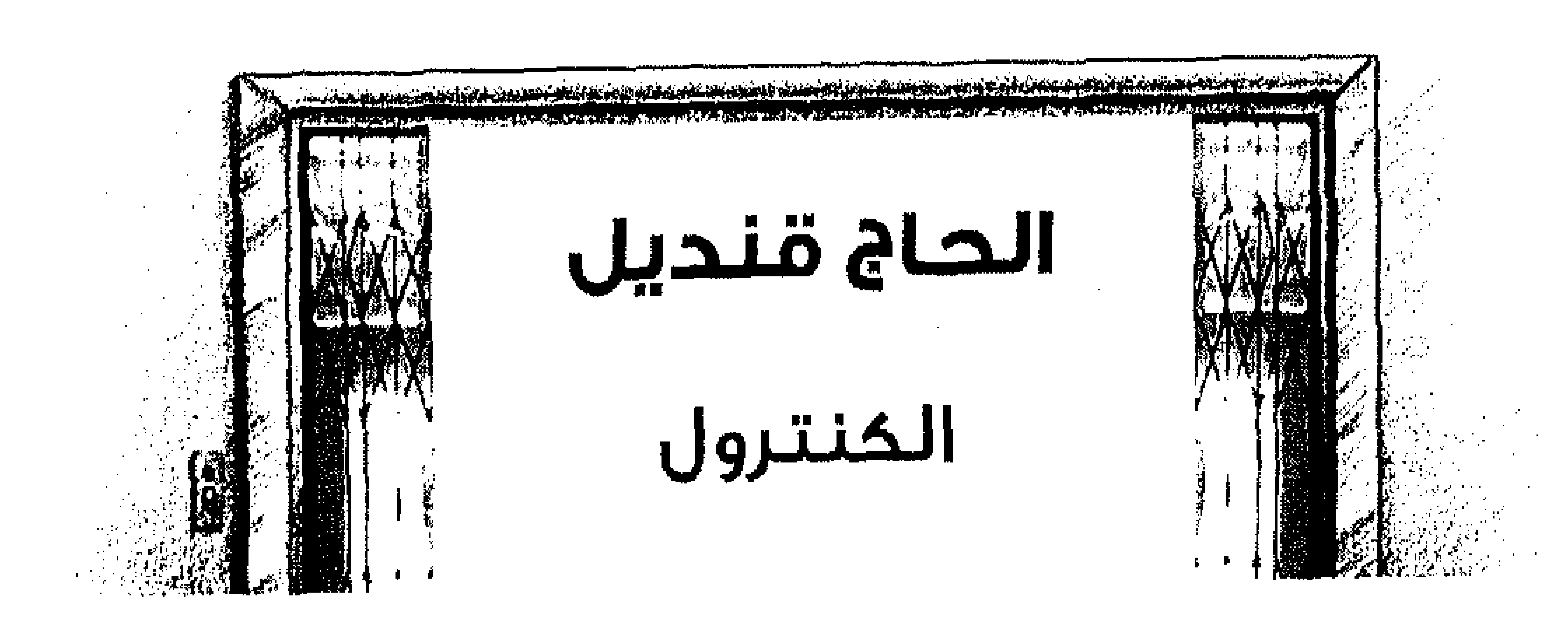
وبعد أن أصبحت الكلمات ملكًا للهواء تمنّى مرتضى لو يدفئها في جوفه مرة أخرى، تمنى أن يظل محتفظًا بها ولا تخرج للنور وتسبح في الفضاء وترتطم بأذني الكاتب الذي يدون كل شيء، فربما كانت عواقبها لا تُحتمل. الكاتب يدون كل نفس يتنفسه مرتضى، وللسؤال التالي ينتظر، ومرتضى يتأمل الورقة ويزر عينيه محاولاً رؤية ما اعترف به مكتوبًا، ولكن السؤال التالي من وكيل النيابة نفضه وزلزله:

- **يعني بتعترف إنك إنت المسئول عن الحادثة اللي حصلت لطه ومستعد تمضي على أقوالك؟**

وهنا عاد مرتضى لسيرته الأولى، أخذ ينتفض ورجل وحيدة تركل الهواء بعصبية، توارى كل ما فيه من نشاط إنساني، خارت قواه وأُنهكت عزيمته، وكأن أحدًا شق جلده وهز روحه حتى اقتلعها، فلم يبق منه إلا كيس محشو بالعظم.

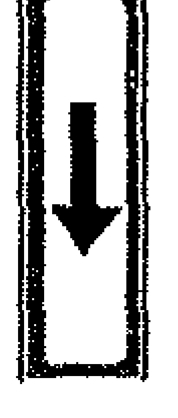
استأذن مرتضى الوكيل بأن يشرب من كوب الماء الطويل الذي أمامه، فأشار له برأسه وهو يلف قلما فضيًّا بين أصابعه لم يكتب به حرفًا. رفع مرتضى الكوب فسحبه كله لجوفه في رشفة واحدة، وأخذ نفسًا عميقًا تلاحقت بعده أنفاس صغيرة أقرب إلى الشحير، انكمش، تكور على نفسه، بلع ريقه مرتين ونظر للسقف، ثم ليد الكاتب الممسكة بالقلم، سِنه ساندة على الورقة، تنتظر طرح لسانه، ماذا سيضيف من أقوال؟ لهث مرتضى بعد أن زرت ملامحه ولون وجهه حائر بين البني والأزرق وقال:

- **أنا معرفش حاجة يا سعادة البيه، هيَّ ريشة الكونتاكت. ولسان الكالون علَّق. أنا ماليش ذنب. هيَّ ريشة الكونتاكت. والله ريشة الكونتاكت!**



مركـز الصيانة له باب دكان عتيق ومتعرج، مصنوع من الصاج المجلفن، في أسـفله قفلان كبيران، ومن قمته تتدلى فاسـوخة مشـنوقة، مجوفة ومجعدة، لونها لون التراب، مشموطة من أنفها بدوبار، تابوتها قروانة صغيرة ومتهالكة عنـد رأس الباب، حنطها الزمن، فلا يعرف أحد بالتحديد منْ ثبّتها على هذا الوضع، وما علاقة القروانة بالفاسوخة؟

في بدايـة المدخـل، بـرواز كبـير باض عليـه الذبـاب وبال، إطاره الخشـبي لـه حلية وملفـوف بزخرف قديم، بداخلـه لوحة لأعرابي، يفـرد ذراعه معتدًّا بنفسه، مزهوًّا بخشونته، وعلى ذراعه المفرودة يقف صقر، ينظر نظرة تحد بعين جامدة ومنقار معقوف، الرجل يبتسـم بغطرسة، شفته فيها شيء من الالتواء، كأن بها دُسرة، عنقه مكبوس ومنبعج، وجزء من أسنانه متآكل. بجوار البرواز معلـق إطـار فيه آيـة الكرسي، عـلى رأس زاويته سـبحة معلقة، وعـلى الزاوية الأخـرى خـرزة زرقـاء مربوطة بفتلـة. زجاج البرواز مكسـور بشـكل مائل، وخط «بلاستر» أزرق يداوي الكسر بطريقة مُلفقة، كأنه نهر النيل على خريطة تفصيليـة.. وفي الركن المواجه لمكتب رئيس العمال صورة للأميرة ديانا، تضيء الركن بفسـتانها الليموني وشالها الباكستاني الرقيق، يشع شعرها الأصفر بريقًا



برغم الغبار اللابد في زجاج البرواز، تضع الأميرة يدها برقة على عنقها ممسكة بالشال الأبيض المورَّد، تتكاثر صور أميرة القلوب في مركز الصيانة بأحجام ولقطات مختلفة، والحاج قنديل يقرفص تحت البرواز الكبير وبين شفتيه قلم جاف مرشوق ومستكين، كوعه يسند على رأس صغير لديانا محاط بعنقود ورد، كارت في حجم راحة اليد تحت زجاج المكتب، تبتسم ديانا ويختلس منها الحاج النظرات ويعدِّل من وضعية الصورة بشكل دائم في أوقات الفراغ.

تاه لون باب مركز الصيانة من كثرة ما عَلق به، زيوت وشحوم وجاز، فأصبح يسيرًا في الطلوع والنزول كالعصا في الماء. لم يعاصر أحد من العمال زمن تركيبه، ولا حتى الحاج قنديل مدير مركز الصيانة، والذي يعتبره أغلب العمال أبًا حقيقيًّا لهم، ولم لا؟ فصلاته للظهر وأحيانًا العصر في ساحة المركز إمامًا لأغلب العمال تُعد ختمًا يؤكد به ورعه وتقواه، ساعده على ذلك أنه يصلي الفجر يوميًّا حاضرًا في مسجد السيدة زينب القريب من مسكنه. وإذا أضفنا لما سبق تواجده بشكل شبه دائم بين العمال في المناسبات السعيدة كالأفراح ونجاح العيال أو الحج لبيت الله الحرام. وأيضًا في المناسبات الحزينة كالمرض أو الوفاة أو إصابات العمال - التي كانت في الحقيقة كثيرة - سنلاحظ أن روحه المشاركة تلك كانت تعطيه مكانة أبوية، لا يمكن لأحد تجاوزها أو التعدي عليها بأي صورة من الصور.

هو ناعم أحيانًا، وخشن فظ أحيانًا أخرى، يتصرف وفقًا للموقف المتعرض له، لا يمكننا القول إنه مداهن أو متلون، لا سمح الله. كل ما هنالك أنه حكيم، أو قولوا إنه رجل بركة. مسبحته الصغيرة الرقيقة تُعد هي

الأخرى من الشواهد الدائمة على أنه متدين بامتياز، ساعدته على ترسيخ هذه الصورة أشياء أخرى كثيرة، فوجهه المدور «المكلبظ» الذي يشبه إلى حد كبير وجـوه الأطفال، وملامحه التي تنم عن طيبة وأصل، وكذلك جسـده المدمج وملابسه الأنيقة التي لم تكن غالية بقدر ما هي نظيفة ومكوية ومهندمة، رأسه الأصلع مغطًّى دائمًا بطاقية شبيكة بيضاء، لا يمل القول إنها هدية جاءته من الحجاز عن طريق شـخص شـاهده في المنام وهو يلقي الجمرات، رغم أنه لم يذهب للحج قبل هذه الواقعة بسنوات سبع.

في العشر الأواخر من رمضان يشتري يوميًّا نصف كيلو بلح أبريمي أسود، فالتمر سُنة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هكذا كان يقول لكل من يلقي في حجره بواحدة أو اثنتين. وأيضًا لا ينسى «مسعد» العبيط وهو شخص أبله يجلـس دائـمًا بجوار باب مركـز الصيانة وخيط ريالة شـفاف لا ينقطع نازل في حجـره. يرمي الحاج له وحده حفان بلح، يلتهم الأبله البلح وهو يتهته بأدعية ينشـكح منهـا الحـاج قنديل. وبعـد أن يأكل مسـعد ينزوي متكومًا كأسـير في جيش مدحور. ينتبه ليد الحاج وهي ممتدة بكباية شاي عملها لمسعد مخصوص على السـخان الكهربة. يتركه الحاج ويدخل قائـلًا لأقرب عامل بجواره حتى ولو كان غير مهتم بكومة اللحم التي ترشف الشاي بالخارج:

- **محدش عالم به إلا اللي خلقه.**

يخـرج الحاج قنديل مـن المواقف المحرجة بأقل عدد ممكـن من الكلمات، وكان يحصـد بذلـك أكبر عـدد ممكن من المكانـة والعلاقـات، فكلماته تحمل مـن الزينة والزخرف أكثر ما تحمل مـن رؤية أو حلول، وإذا ما أضفنا لذلك

هدوءه ورزانته يمكن أن يكون لدينا شخصية متوازنة، فهو لا ينفعل إلا في أضيق الحدود. وإذا حدث فهو يشبه في انفعاله عود الثقاب، لحظة اشتعاله هي نفسها لحظة فنائه، وإذا انفجر في أحد العمال كان انفجاره كانفجار فقاعة، تمام اكتمالها هو نفسه بداية نهايتها. يغضب غضب الأطفال، بنزقهم وسرسعتهم، بجلبتهم وتشويحاتهم، وربما بتفاهة أسباب الغضب. ودمه سرعان ما يروق، فيأتي بتصرفات صبيانية لا تناسب سنه ووقاره، يمسك أحيانًا بسيجارة وهمية ويشد منها الأنفاس، وتكون ما تكون، قلم فرنساوي وجده صدفة أمامه، ورقة مبرومة قطعها من نتيجة، مسمار بدون صامولة، مبسم بدون سيجارة، وأحيانًا سيجارة حقيقية ولكنها غير مشتعلة، وبين سحب النفَس المتخيل وآخر ينفض نفايتها المفترضة بجواره كما يفعل المدخنون.

كانت هناك مشكلة حقيقية تواجه الحاج قنديل ولا يجد لها حلاًّ، وهي أن بعض العمال لا يذهبون للعقارات أصلاً، ولا يقومون بصيانة للمصاعد ولا يجزنون، ولكنهم يُحوِّشون ساعات العمل ليوم واحد فقط في الأسبوع. وما يتبقى من الأيام يمثِّلون فيه أنهم يعملون، وهو يمثل أنه يصدِّقهم، هؤلاء كان الحاج يقف منهم موقفًا حائرًا ويقول لنفسه:

- **«حعمل إيه مع الغجر دول؟ مفيش بقى غير إنى أحلِّفهم على المصحف»**

ولم يكن يمزح أو يبالغ عندما قال ذلك. ولم يكن الأمر يحتاج إلا لوجود مصحف صغير في حجم راحة اليد، وهبته جنيهان أو ثلاثة، وضعه الحاج بالفعل في كيس بلاستيك فوق رف مبقع بجوار راديو قديم، يناهز عمره عمر مركز الصيانة، فأصبح الواحد منهم يمسك المصحف بيد ويضع يده

الأخرى على الجلدة الخضراء. لم يضف الحلفان إلا تضييع الوقت في القَسَـم ونظرات الشـك وقدرًا من النصائح عن حق الله وفضل العمل ونجاسة اليد البطَّالـة. ازداد الحـاج قنديل حـيرة، فقد كان العمال كلهم يقسـمون، فقدت الفكـرة مضمونها ومعناها. فالخروج عن الطوع في الشركة لا يحتاج إلا لفقر دكر وعميل مخنوق من الشركة ومفك وزرادية فقط لا غير.

لا يمكننا القول إن الحاج كان يعامل كل العمال بنفس منطق الورع الذي ينتهجـه في عباداته، فمن الصعب جدًّا أن يسـاوي من يعمل بمن لا يعمل، ولا يساوي أيضًا بين من يصطفيه ويُنعم عليه بمن خلقه الله بهيمًا لا فرق بينه وبين الأنعام.

فمثلاً، كان يسـحب ورقة حافز «سـمير مراد صليب» من بين أوراق الحوافز الكثـيرة ويبدلها بأخـرى تحمل رقمًا مضاعفًـا. ولكن إذا ما عرفنـا بعض الحقائق يمكن أن نغفر له ذلك التجاوز، فـسـمير هو العامل الوحيد الذي يمكن للحاج أن يطلـب منه بعـض المطالب الشـخصية، كصبغ بنطلون حال لونـه في المصبغة الإيرانية بباب اللوق، أو شراء بعض تحويجات العطارة من محلات رجب العطار. وأحيانًا كان يطلب منه أشـياء شـخصية جدًّا، كشراء الملابس الداخلية من أقدم محـلات التوحيـد والنـور بشـارع نوبـار. والحاج على يقـين من أن سـمير وحده يفهـم في نوعية الأقطـان، ويعرف الفروق بين المـاركات؛ فأخوه «عدلي صليب» صاحب محل تفصيل ملابس يقع في آخر شارع جواد حسني، كان محلًّا متواضعًا ومكتوبًـا على واجهته بخط منمـق، لكنه باهت «ترزي عـدلي صليب» لكنه بعد ذلك بسـنوات، وتحديدًا بعد تكرار حوادث السـطو المسـلح على محلات الذهب

التي يملكها أقباط. وخاصة حادث حي الزيتون الشهير، نصحه سمير أخوه بأن يلغي لقب العائلة من على اليافطة. ولم يُكذِّب عدلي خبرًا، فاشترى نصف كيلو بوية ودلقه أي كلام على اسم صليب فتبقَّى فقط «ترزي عدلي».

أضف لذلك أن سمير يفهم في أشياء أخرى كثيرة، كمعرفته لأفضل الأماكن التي تبيع الفراخ البانيه بأقل الأسعار، فأم الأولاد، أو «الحاجَّة» كما يناديها الحاج قنديل «بتموت ف البانيه» أما ياميش رمضان فكان سمير يشتريه له من محلات أولاد البدوي رأسًا. ولو وضعنا في الاعتبار عنصر الأمانة فلا يمكن لأحد أن ينازع سمير في ثقة الحاج أبدًا، ولذا كان لابد له أن يميزه في الحوافز عن العمال التنابلة الذين يرعون كالأبقار في الشركة وينتظرون فقط أن ينصرف الحاج حتى ينطحوا الباب الكبير ويفرُّوا.

للحاج تصرفات يتقبلها العمال ولا يفهمونها، كأن يلطع الواحد منهم على قفاه ويضحك بشدة، صفعة ودية ترتفع بعدها القهقهات وتنتشر كالعدوى. أو يهش أحد الواقفين اللازق في كشك كروت الصيانة وهو سارح في الملكوت ويقول له بدون مبرر:

- **هموا شويه. انتو فاكرينها تكية؟**

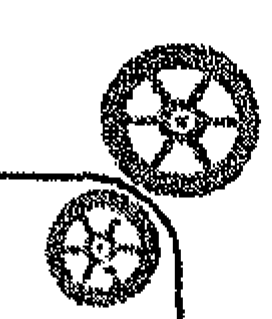
ومثل هذه الممازحات تكون في الغالب منفصلة عن السياق، فلا هي تكملة لحديث ولا هي بداية لحديث ولا لها ضرورة من الأساس، ولكنه إذا سُئل قال:

- **شيء في نفس يعقوب يا بقر.**



لا يستطيع الحاج أن يمنع نفسه من وصف العمال بالقطيع، وله في ذلك بعض الحق، فالعمال في الشركة بشكل عام، وفي مركز الصيانة بشكل خاص لا يبدعـون في شيء، كل عامـل منهـم يأخذ ما فيه النصيـب من جاز وزيت وأسـطبة وشـحم -إن وجـد- ويضعهـا في شنطة غالبًـا ما تكون سـوداء، يذهـب حيـث العنوان المكتـوب في الـكارت الأخضر الذي يُقسَّـم لخانات بعدد شـهور السـنة، كل شـهر فيه مكان لتوقيع العميل الذي غالبًا ما يكون البـواب، ومكان آخـر يوقِّع فيه العامل إقـرارًا منه بأنه قـد انتهى من صيانة المبنى المدون عنوانه في الكارت.

ومنهـم من يذهـب بجازه وزيتـه للقهوة ليضبـط مزاجه بحجريـن وكُباية شـاي أولاً، ثـم يتحرك بعد السـاعة العاشرة، وهؤلاء يعرفهـم الحاج من كثرة العـشرة والتكرار، وهناك نوع آخر من العمال لا يذهبون للمقاهي ولا للعمل، ولكنهـم يذهبون مبـاشرة لبيوتهم، حيث يقضون اليوم كلـه ولا يعودون لمركز الصيانـة إلا قبـل ميعـاد الانصراف بدقائق، ليخُطُّوا الخربشـات أمام أسـمائهم وينصرفـوا، وبالطبع كانوا هم من يوقِّعـون في خانات كروت الصيانة بدلاً من البواب، وهذا النوع الأخير كان الحاج قنديل يحتار في معاملته، فلكي يتأكد من صحة توقيع العملاء سـيحتاج لثلاثة عـمال أو أكثر تكون مهمتهم التقصي عن زملائهـم، طرد هذه الفكرة قبل أن تأخذ مكانهـا وتترقى لمكانة التنفيذ، فهو لا يُفضل أسـلوب الجزاءات؛ ليس لأنه متسـيب أو غير صارم، بقدر ما أنه رجل طيب، فتحكَّمت طيبته في صعوبة الحل والربط، وهنا يمكننا أن نصفه بصاحب القلب الضعيف، والشاهد على ذلك سجل الجزاءات في عشر سنوات، والذي لم يتعد ضبطه لعدة مخالفات تافهة أقصاها هو غياب عامل بدون إذن.



كانت مثل هذه التجاوزات هي ما سمحت للحاج «زيدان» كبير عمال التركيبات أن يغير من منهجه تجاه العمال، فالحاج زيدان صاحب سجل حافل بكل أنواع الجزاءات، ناهيك عن لسان أحمى من المبرد، وقاحة ووساخة وقلة قيمة، وخصومات تصل لنصف الحافز وقد تجور على بعض من الراتب الأصلي، وتصل أحيانًا للرفد أو الإجبار على الاستقالة، كان له منهج ظل مستقرًّا في الأذهان طوال عقود طويلة، فمن يغضب عليه الحاج زيدان لا يقول له سوى جملة واحدة:

«جركن الجاز وإزازة الزيت والأسطبة الوسخة مستنيينك عند الحاج قنديل».

هنا يكش من يوجه له الكلام ويدخل في جلده، فبعد أن كان فنيًّا له قيمة[1] يلبس أشيك الملابس ويحمل شنطة كالتي يحملها مهندسو الكمبيوتر. سيغدر به الزمن ويصبح عاملاً يشخط فيه البوابون ولا تخرج فنونه عن تطويق الكبائن والمحركات أو تدليك قضبان المصاعد.

كلمة السر التي تُخضع أعتى العاملين بالشركة لا تخرج أبدًا عن التلويح بالنقل لمركز الصيانة، ولكن بعد التقارير التي وصلت للإدارة عن الحاج قنديل تراجع ذلك التهديد وتقهقر، حتى إن بعض العاملين أصبحوا يرون أن مركز الصيانة غدا مكانًا للترقي والتميز، وأحيانًا «للأنتخة» والأكل والمرعى ونفخ الكرش.

---

(1) مكانة الفني في الشركة تقع في المنطقة الوسطى بين العامل والمهندس.

لم يكـن الحـاج قنديل يهتم بمثل هـذه التقارير التي لن تنـال مهما كان من سجلِّه الناصع ونقائه الذي يشهد به الجميع، والأهم من ذلك كله أنه يرضي ربنا ولا بد في النهاية سيدخل الجنات التي تجري من تحتها الأنهار بإذن الله. فلا الحاج زيدان ولا غيره يستطيع أن يغير طريقة تعامله مع العمال. بالطبع لم يكن يجاهر بمثل هذه الآراء، فالحاج زيدان له آذان في كل ركن، وهنا يقنع الحاج قنديل نفسـه بما يتوصل إليه من أفكار، فكثيرًا ما كان يستشـهد ببعض آيـات من القرآن الكريـم، أو الأحاديث النبوية الشريفـة، التي تريحه وتجعل سريرتـه متوافقـة مع ملامحه الطفوليـة وقلبه الأبيض، وعندمـا كانت تداهمه أفكار تنال من نعيم الرضا الذي يُبحر فيه، أو يقترب من أن يكون أمام نفسه جبانًا أو منافقًا - لا سمح الله- لأنه يظهر عكس ما يبطن. يتمتم بما يريحه في سكينة ورضا:

«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

خبرة الحاج قنديل الواسـعة بالعمال كانت تتيح لـه طرقًا متنوعة للتعامل معهم، فلا يمر من أمامه أحد وعلى وجهه تكشيرة إلا وسأله الحاج:

- **«مالك. قول يا خويا ومتخافش. سرك في بير».**

يسـأله الحـاج بإخلاص حقيقي وهو على اسـتعداد لأن يقـضي معه اليوم كلـه، وعنـد الفضفضة يخر الواحد مـن هؤلاء بكل ما في جعبتـه من أسرار. وبالتـالي تصبح بئـر الحاج قنديل ملآنة وطافحة، وبشـكل آخر يسـتغل هذا الخليط من فيض الخواطر في تأديب بعض العمال في الوقت المناسـب. ولكنه والحـق يقال؛ لم يكن يفعل ذلـك إلا قليلاً، وربما نادرًا. العمال يقدِّرون الحاج

قنديل لتمثيله الجانب الخيِّر من الحياة، ونقيضه تمامًا كان الحاج زيدان؛ الذي وصل لمكانة في الشركة لا يستحقها. يكرهه العمال بكرشه الكبيرة وصوته المتحشرج كالبالع حشرة تأبى أن تنزل أو تطلع. فذات مرة كان يقوم بالتفتيش على مركز الصيانة بشكل مفاجئ. دخل ورمى سلامًا بصوته الجهوري ولم ينتظر عليه ردًّا. قام الحاج قنديل منتصبًا أمامه كلاعب مصارعة يجرب بخته في الجولة الأولى أمام مصارع عتيد ومدرب. سأله الحاج زيدان باستهتار:

- **أمَّال فين بقية العمال يا حاج؟**

وكان أغلبهم بالفعل قد زاغوا وتفرقوا، أخذوا تموينهم وانتشروا في الأرض. ولكن الحاج تماسك وشب ناظرًا في عين الحاج زيدان بتحدٍّ وقال:

- **حيكونوا راحوا فين يا حاج. في الشغل طبعًا.**

جلس الحاج زيدان بدون دعوة، أخذ يفعص فوهة سيجارة ويفرغ منها بعض التبغ الزائد وقال:

- **إنت واخد العمال على حِجرك ودا مينفعش في الشغل يا حاج قنديل.**

هنا انتفض الحاج قنديل ونفرت عروق حمراء خطت طريقها سريعًا في وجهه، نقشت أخاديد وتعرجات تعلن عن غضب شديد وانفجار وشيك، أخذ الرذاذ يتقاذف من فمه ويطير في الهواء وهو يقول:

- **أقف معووج واتكلم عدل يا حاج زيدان. أنا حاجج بيت الله مرتين وميتقاليش الكلام الفارغ ده.**

كزه على نواجذه بان من خارج شدقيه وكاد صريره يُسمع. تجمع ما تيسر

مـن العمال وتحلقوا حول المتصارعين، الحاج زيـدان هادئ ورصين، والحاج قنديل ينفخ ويشـب بجسـده المدمج المكبوس، صدغـاه الملظلظان ينتفضان ويهتـزان كطبق مهلبية، وعينه مضطربـة وتكاد تخرج من محجرها، وخط زبد صغير يشـق طريقه خارج فمـه. لم يتوقع الحاج زيدان ما سـمعه، قام بعد أن سـحب نفسًا واحـدًا من السيجـارة ثم هرسها تحـت حذائـه بغيظ مكتوم، انصرف دون أن يهمس محاولاً إظهار قوة شخصيته وصلابة موقفه.

بعد انصراف الحاج زيدان ركب الحاج قنديل خمسون عفريتًا، هب وشب وانتفض، وفي كل كلمة أو تعبير تلازمه رعشـة. في نفس اليوم اشتكى الحاج زيدان لرئيس مجلس الإدارة، ولولا وقفة العمال مع الحاج قنديل وشـهادتهم لصالحـه، لأصبح مكانه الآن مكتبًا حقـيرًا بجوار البوفيه يقيد فيه الإجازات أو يـشرف عـلى دفاتر الحضور والانـصراف. وما أكد على بقائه رئيسًـا لمركز الصيانـة أن العمال في شـهادتهم زودوها حبتين، فقـد أضافوا على قول الحاج زيـدان «إنت راجل مبتفهمش في الشـغل يا قنديـل» وحذفوا من قول الحاج قنديل «أقف معووج واتكلم عدل».

عشر سنوات قضاها الحاج في مركز الصيانة من أصل خمسة وثلاثين عامًا هي إجمالي خدمته في الشركة، تجول فيها بين الإدارة في شـارع طلعت حرب، مـرورًا بالمقر الرئيـسي في ميدان لاظوغلي، وقسـم التركيبات في ممر شركس، وقضـاء ثلاث سـنوات في أماكن خاصة بفندق شـبرد، وأخـيرًا مديرًا لمركز الصيانة بشارع جواد حسني. لماذا ظل الحاج قنديل كل هذه المدة مديرًا لمركز الصيانة؟ كثيرًا ما سـأل نفسـه ذلك السـؤال، هل لأن الباقي له من خدمة لا

يتجاوز سنوات ثلاثًا ولا يوجد وقت للتنقل في مكان آخر؟ ربما، ولكنه حتى هذه اللحظة لا يضمن بقاءه في منصبه لغاية الخروج الرسمي عندما يبلغ الستين. وأكثر ما كان يزعجه هو عدم تمكُّنه من السيطرة على بعض تجاوزات العاملين في المركز، فبرغم المعاملة الأبوية التي يعامل بها الكبير والصغير؛ فإن بعض العمال يتفقون على مقايسات من الباطن لصالحهم، فلو أن كالونًا فسد أو مقبض باب كسر أو ريشة «كونتاكت» قُطمت لا يقوم بالتصرف الطبيعي للعامل المستقيم، وهو الإبلاغ عن العطل «لسعيد توفيق» الذي يقوم بدوره بإبلاغ قسم الإصلاحات. ليس هذا ما يفعله العمال، فقط يدَّخرون بلاغاتهم للمقايسات الكبيرة، موتور عطب، كابلات التهمتها الفئران، «واير» تفتتت نسائره وبانت شعيراته النحاسية. مثل هذه الإصلاحات الكبيرة هي فقط التي يبلِّغ عامل الصيانة عنها إدارة الشركة، ليس لأنه كفء وأمين، ولكن لأنه في أغلب الأحوال لن يستطيع أن ينفذها بمفرده، في هذه الحالة فقط يصدع الواحد من هؤلاء رأس الحاج قنديل عن أمانته وتقواه، وأنه لو صبر يومًا واحدًا ولم يبلغ عن العطل لكان العوض على الله في الأسانسير كُله، وربما راح فيها أحد السكان «فطيس».

من مهام عامل الصيانة الشاطر أن يجلب للشركة أكبر عدد من الإصلاحات، حتى ولو كان الجزء الذي سيتم تغييره ليس متهالكًا، كان ذلك أقرب للمسلمات، فلماذا تتحمل الشركة سخافات العملاء من أجل بضع مئات من الجنيهات لا تكفي المرتبات ولا فواتير براميل الزيت وعلب الشحم وزكائب الأسطبة لأسبوع واحد؟

كانت الشركة تقبل عروض صيانة خاسرة بحسابات الورقة والقلم، ولكنها لا تكتفي فقط بذلك، كانت نظرة مهندسيها المستقبلية دائمًا على مقايسات الإصلاح، نهر الفلوس الذي لا يجف أبدًا.

المهمة الأصعب للحاج قنديل لم تكن منحصرة في معاقبة من يقومون بالإصلاحات لحسابهم فقط، لكنه كان يبحث عن مبرر قويٍّ يمكِّنه من فرض العقوبة، وفي نفس الوقت يتناسب مع قلبه الضعيف:

«الناس غلابة ومدهولين ومرتباتهم كلام فاضي. طب أنا وبيت السيدة بيجيبلي إيجار معقول يساعدني على المعايش. إنما همَّ معندهمش بيوت».

يقول الحاج لنفسه، تاهت أفكاره وتراخت حدتها عندما دخل عليه سمير مراد وهو ينهج، جلس سمير على الدِّكة الطويلة ليستريح، دفس ذقنه بين كفيه، له لحية عشوائية تتكوم ملبدة ككوم قطن فاض عن تنجيد مرتبة. رفع عينه الحمراء وقبل أن يسأله الحاج عن شيء كان سمير يخلع رِجله، هاج العمال وتسابقوا في الخروج أبابيل من باب مركز الصيانة الضيق، كالذباب عند رش المبيد هرولوا جميعًا للخارج. تركوا المكان خاليًا إلا من سمير والحاج قنديل. شيء واحد عندما يفعله يحدث هذه الجلبة والهيصة. أن يخلع رجله فتخرج من أجوائها رائحة كريهة وبشعة لا تُطاق، فهو له رِجل مثل مخاليق ربنا، وأخرى ركَّبتها له الشركة بعد عذاب دام لسنوات ثلاث. ورِجل سمير جذَّها مصعد في عمارة صيدناوي بميدان طلعت حرب. طفش العمال خارج باب المركز، وسمير يسمع الغاغة ويضحك، كل من هب ودب يقوم بالدعاء عليه، تنتهي وصلة الجلبة في الغالب بأن يأخذه ربنا ليريحهم منه ومن رجله «المنتنة».

يحمل سمير شنطة بلاستيكية كبيرة تبين منها خضراوات مشكّلة، وأخرى جلدية صغيرة يضع فيها عدته البسيطة (مفك وزرادية في الغالب) ورغم أن كل من في المركز يعلم أن مثل هذه المشاوير تخص الحاج قنديل. فإن سمير لم ينس ولا مرة واحدة أن يضع في جيبه العلوي كارت صيانة وهميًّا، وكذلك يحمل شنطة عدة بسيطة للغاية يعرف أنه أبدًا لن يستعملها، الكل كان ينظر لسمير على أنه عامل من نوعية «المراسلة» على حد تعبيرهم الميري.

«سعيد توفيق» يُلمِّح للحاج في كل مرة أن ما يفعله مع سمير ليس من حقه. فسعيد هو مسئول خروج كروت الصيانة من أماكنها. وكذلك عودتها سالمة بعد أن يوقِّع عليها معشر البوابين، لذلك كان من صلاحياته أن يحاسب كل عامل في المركز حتى رئيسه نفسه، فإذا ما تخيلنا أن الحاج قنديل وزير. يمكننا القول إن سعيد توفيق هو رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات، كانت المحاسبة تتم بشكل لا يتنافى مع الذوق العام بالطبع، فيقول سعيد مثلاً لسمير وهو خارج:

- **«على فكرة. الكارت اللي معاك عنوانه بعيد أوي عن سوق الخضار».**

مثل هذه الجمل معناها أن سعيد توفيق ليس مغفلاً، فهو يعرف جيدًا أن سمير لم ولن يذهب لصيانة ولا يحزنون، وأنه على علم بقائمة المشتريات التي لف فيها سمير كارت الصيانة ودسها في جيبه.

لم يستطع الحاج أن يحاسب سعيد وذلك ليس لأنه لا يقدر على محاسبته، ولكن لأن وشه كان مكشوفًا وتعليقاته فجة، ولا يتوانى عن إخراج أي كارت يمكنه إحراج الحاج، ومشكلة التعامل مع مثل هؤلاء الأشخاص،

أن الحاج لا يعرف على وجه الدقة كيف يمكن أن يطلق تهكماته، وإلى أي حد يمكن تحمل سخافته.

ففي ذات صباح جاء الحاج قنديل لمركز الصيانة وهو يقود سيارته اللادا 1500 البيضـاء موديـل 83 كنوع من الوجاهة، لم يكن يحتاج لسيارة أو لأي وسـيلة مواصلات أخرى، فالمسـافة بين منطقة السـيدة زينب وشـارع جواد حسـني يمكن أن يقطعها المتسكع مترجلاً في نصف ساعة على أقصى تقدير، كانت «الحاجّة سـميرة» زوجته تجلس بجـواره وهي ترتدي «التايير» الغامق و«بونيـه» الشـعر الذي يُظهر جزءًا مـن القُصة النازلة على ناصيتها. يتسـابق العـمال في حمل زجاجات الحاجة السـاقعة لها كعلامة للـولاء. الحاجة أطول مـن الحاج قنديل قليـلًا، تميل للبدانة لكنها غير بدينـة، تضع الكحل البلدي الفاحـم الذي يقف كحارس عـلى عينيها الجميلتين، وكذلـك الروج الأحمر الفاقـع دم الغزال، والذي لا يتناسـب أبدًا ونداءهـا بالحاجة، كان هذا النداء طاغيًا ملحًّا يشبه الأمر من الحاج قنديل لكل العمال، حتى سعيد توفيق نفسه لم يتجـرأ أن يناديها إلا بالحاجة، ليس فقط الملبس الأنيق أو الماكياج المعمول بمهارة وشقاوة همًا ما يجعلان لقب «حاجة» مستبعدًا، أو قولاً سخيفًا، لكن السـبب الأهم هو فارق السن بينها وبين زوجها. والذي يقترب من عشرين عامًـا، لـذا، فالحـاج يحـرص في كل الأوقـات - بالأخـص في تلـك الدقائق المعـدودة التي تقضيها في ضيافـة مركز الصيانة - أن يكـون نجمًا حقيقيًّا، في طريقـة ندائه الرقيـق للعمال، أو في جلسـته كقائد حربي مشـدود الصدرعلى كرسـيه الخيزران، أو فتحه لأدراج مكتبه الصغير بدون سـبب وكأنه يبحث عـن شيء مهـم، والحاجـة كلماتها قليلـة جدًّا، فهـي حاصلة على مؤهل فوق

المتوسط، ومن المؤكد أنها مدركة لعالم العمال وطريقة تفكيرهم، وربما تخشى كثرة الكلام لكيلا تظهر أسنانها المفلوجة بشكل واضح للعمال «المبحلقين».

تمثل زياراتها القليلة فرصة لسعيد توفيق لكي يكسب رضا الحاج، أو بالأدق يكسب أرضًا جديدة بطريقة مقنعة وغير مبتذلة، فعندما تهدأ الهيصة ويلقي العمال بما يحملونه من كلمات عادية ومكررة مثل:

- **نورتي يا ست الكل.**
- **حصلت لنا البركة.**
- **وبعد أن يقول الغشيم منهم**
- **نفرش لك الأرض زيت.**

يطل سعيد توفيق من شِبَّاكه، والذي يشبه منظرًا صغيرًا لشخص يركب قطارًا بدائيًّا، يخرج رأسه المستدير الملظلظ قائلاً:

- **سيبك من ولاد الـ.. قصدي من الغجر دول يا حاجة وقوليلي، حضرتك تعرفي إن الحاج قنديل هوَّ الوحيد في الشركة كلها اللي سافر سويسرا عشان ياخد دورة في المصاعد؟**

ترد بإشارة بطيئة من رأسها، ويزهو الحاج الذي يعرف تمامًا أنه لم يكن الوحيد الذي سافر إلى سويسرا، فهو يتذكر تمامًا شهر يوليو عام 1966 كتذكُّره لتاريخ ميلاده، فقد اختارت الشركة خمسة عاملين من حملة المؤهلات فوق المتوسطة - في الغالب معهد فني صناعي- وقررت أن ترسلهم في بعثة فنية تستغرق ثلاثة أشهر لسويسرا لتعلم فنون التركيبات والإصلاح والصيانة، ورغم مرور

. عشرات السنين على ذلك الحدث فإن الحاج قنديل لايزال يتذكره وكأنه حدث بالأمس، يفخر به أمام كل مهندسي الشركة - والذين لم يسافر معظمهم إلى سويسرا- عندما وجد اسمه في كشف البعثة، نظم مع زملائه الخمسة المحظوظين احتفالية لائقة في محل جروبي فرع قصر النيل، طلبوا جميعًا أغلى ما يمكن طلبه في المحل «خمسة كاسات شيكولاتة بالويسكي»، وعلى عكس ما كان شائعًا بين العمال والموظفين، من أن الإدارة السويسرية هي التي اختارت المبعوثين لثقتها في كفاءتهم أو أشياء من هذا القبيل. كانت الحقيقة على عكس ذلك.

فقد بدأت سمعة الشركة تتهاوى ببطء، وأصبح اسم شندلر الذي كان شعاره بعد ترجمته للعربية (نحن نستطيع أن نصعد بك إلى السماء) لكن مسئول الدعاية في الشركة غيَّر الكلمة الأخيرة لأنها كانت تحمل ظلالاً تشاؤمية تعني أن العميل سيفارق الحياة. ولذلك أصبحت الترجمة الجديدة للشعار (نحن نستطيع أن نصعد بك إلى النجوم). انتشر الشعار في العالم كله وارتبط باسم شندلر المتميز، وكانت المنشآت العالمية تطلبها من آخر الدنيا وتطمئن للتعامل مع هذا الكيان العملاق، وخاصة عندما تختم علامتها المستديرة التي تحمل تاريخ 1874 أدق أجزاء المصعد. ولكن السقطات بدأت تنخر سمعتها تباعًا منذ ستينيات القرن العشرين، لم تعد الشركة دقيقة في مواعيدها مع العملاء كما كانت، ولم تعد تستورد كل قطع الغيار من الشركة الأم كما كانت تفعل قرابة قرن من الزمان.

لذلك فقد أرسل «ليوناردو دونان» مدير الشركة في سويسرا خطابًا عاجلاً إلى رئيس مجلس إدارة الشركة:

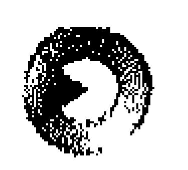
■■■

السيد المهندس رئيس قطاع المصاعد بشركة شندلر (فرع مصر)

تحية طيبة وبعد

يؤسفني أن أبلغكم بأن أداء الشركة منذ العام المالي 1965 - 1966 لم يعد على ما يرام، فقد أرسلتم إلينا خطابًا سابقًا تطلبون منا فيه أن نسمح لكم في مصر بأن تصنعوا بموجب موافقتنا قطع الغيار البسيطة من مستلزمات المصاعد، كجنزير سحب الباب وطلمبة رأس الباب، وموتور الكامة[1]، والمقابض والمسامير والصواميل... إلى آخر مثل هذه المستلزمات الخفيفة من الصناعات المُغذية. وبالفعل أصدرنا قرارًا بالكاد يوافق على ذلك المطلب. فقد وافق خمسة أعضاء من فرع الشركة الأم في سويسرا، ورفض خمسة، فحملت أنا على عاتقي مهمة ترجيح كفة الموافقة، فرفعت يدي ليصبح ستة مقابل خمسة وأنا متوجس، ليس لشكي في أنكم ستنفذون وعودكم، بالطبع لا، ولكن أذكركم بأن الشركة التي نفذت عمليات تركيب مصاعد برج القاهرة منذ خمس سنوات فقط، الشركة التي بذلت جهودًا مضنية حتى يتم إنتاج الفيلم المصري «بين السما والأرض» في أحد مصاعدنا لكي تظهر علامتنا التجارية في ثلاثة مشاهد فقط، لا يمكن أن تتنازل أبدًا وبأي شكل عن هذه السمعة التي حازتها علامتنا التجارية. فالدقة السويسرية تعتبر سفيرًا في العالم أجمع، وقد علمنا بأسف أن قرارًا صدر من الرئيس جمال عبدالناصر طلب منكم فيه أن تصنعوا كل ما تستطيعون تصنيعه بطريقة محلية، وذلك يا حضرة المهندس العزيز ضد طبيعة الكون، فالعناصر لا

(1) موتور صغير الحجم يوضع فوق الكابينة، ويستقر رأسيًا فوق الكالون بالضبط، وعند وقوف المصعد أمام الدور؛ يقوم الموتور بأمر من الكنترول بفتح الكالون فيُفتح الباب.



يمكنهـا أن توجـد جميعًا في مـكان واحد أبدًا، وأنـا أود أن ألفت نظر حضرتكم لأن شركـة شـندلر السـويسرية لا يمكنها أن تصبـح في يوم مـا كمصنع حديد حلوان عندكم في مصر، والفرق معروف لا يحتاج لبرهان، فهناك فروق شاسعة يا سـيدي بين تصنيع الكمر الحديد الضخم وتصنيع ترس سـاعة دقيق، ولكن الفرق ليس كبيرًا عندنا بين السـاعات السويسرية والمصاعد السويسرية، بل لن نبالـغ إذا قلنـا إن الأخـيرة هي الأدق بالنسـبة إلينا، فهي مرتبطة بـأرواح الناس ارتباطًـا مباشرًا. وليس حادث الممثل المصري محسـن سرحان ببعيد، لقد علمنا للأسف بتفاصيل الواقعة. عندما دخل الرجل الكابينة فأعطى الكنترول المُصنَّع محليًّا بمعرفتكم أمرًا بأن يتحرك المصعد، بينما لم يعط نفس الأمر في اللحظة ذاتها لموتـور الكامة، فلم يغلـق كالون الباب وظل مفتوحًا، مما كان سيتسـبب في بتر ساق الممثل لولا رحمة القدر.

ولهـذه الأسـباب عاليه؛ فقد اتفقت مـع الإدارة في شركتنا السـويسرية الأم بأن تبعثوا إلينا بعناصر متفوقة بمعرفتكم لتتلقى دورات في التصنيع ومهارات التركيب والإصـلاح والصيانة، ونحـن لن نكلف (فرع مـصر) أي مصاريف تذكر، تكلفة البعثة التدريبية بالكامل ستتحملها الشركة الأم، وننتظر ردكم في أسرع وقت.

ولكم المحبة والود.

ليوناردو دونان

مدير إدارة التدريب والتطوير بالشركة

السويسرية الأم «شندلر».

■■■

لم يشرب الحاج قنديل سوى رشفة واحدة من زجاجة الحاجة الساقعة فيما زوجته قد انتهت منها منذ قليل، عاد الحاج للعمال والحاجة بعد أن سرح قليلاً وأصبحت ملامحه مجهدة كمن عاد توًا من رحلة سفر، شخط في العمال وهو يغالب الضحك كنوع من المزاح:

- **ياله يا حلو بقه منك له. كل واحد يشوف شغله.**

وصّل الحاجة للبيت بالسيارة وعاد، لم يكن في المركز كله سوى سعيد توفيق، يراجع وهو قابع في كشكه كروت صيانة اليوم التالي، وكعادته دائمًا كان يشكك في توقيعات البوابين أو رؤساء اتحاد الملاك، وكان الحاج يقول له دائمًا:

- **يا أخي ماتدقش.**

وكان سعيد يرد:

- **ح عديهاله عشان خاطرك انت بس يا حاج.**

يجلس الحاج قنديل مجهدًا على دكة طويلة بطول مركز الصيانة، وعرضها لا يتجاوز ثلاثين سنتيمترًا، فرد جسده عليها فطقطقت عظامه وتمطع بكسل، وضع رأس زجاجة الحاجة الساقعة الفارغة بين أصابعه وأخذ يؤرجحها كفأر مشنوق، ثم دحرجها في حركة لا تعبر عن شيء. غامت عينه المجهدة وتقافزت أمامه المشاهد، سرعان ما تركزت وأصبحت مشهدًا واحدًا أحاله تلقائيًا لمراكز الحوار الداخلي:

كانت معركة طويلة ليلة أمس، باءت بالهزيمة وأنا لا أزال أحاول مع «سميرة» على حافة السرير، امرأة جميلة وشابة لا تزال في السابعة والثلاثين.

عفيـة مثل فـرس وطرية كالملبن. لا بد تحتاج لمناوشـات قبـل الحرب، غزل، كلـمات حـب، ولا مانع من بعض الكلـمات الإباحية اللذيـذة، لكن كيف لي أن أقول مثل هذه الكلمات التي يمكن أن تنفلت في لحظة نشـوة بصوت عالٍ ويسمعها «شادي»؟ الولد لا يزال صبيًّا في السابعة عشرة. هذه حجة يا قنديل، أنت تستطيع أن تقول كل شيء، فقط تستطيع القول ولا شيء غير ذلك.

«ماتروَّح انت يا حاج لو تعبان».

قـال سـعيد توفيق له بصـوت مزعج وهو يطل برأسـه الكبير من شـباك كشـكه الصغـير، اعتدل الحاج في جلسـته ثم تصنَّع ابتسـامة وكأنـه يخبئ بها ما كان مشـتعلاً في خياله، وصَّل سعيد «فيشة» السـخان الكهربي المفشفش. والـذي كان عبارة عن قرص مسـتدير ومتهالك من الطوب الأحمر، به شـق دائري وملتوٍ كمتاهة الفئران، قناة متلولبة ليبيت فيها المعدن الحراري، ينتهي بسـلك مزدوج حتى أقرب «بريزة»، بسـبب أعطاله الكثيرة كان سعيد يركن بجـواره دائمًا عصا انتزعت من قفص فاكهـة، لكي يلحم بها التوصيلة مؤقتًا حتـى يغلي الماء، عمل سـعيد كوبايتين شـاى، مد يده للحـاج بكوب وبدأ في ممارسة هوايته:

- **مش عارف العمال دول حيفضلوا لإمتى معفنين؟**
- **لحد يوم القيامة.**

قال الحاج وهو يرشـف رشـفة مرققة من كوبه، فاقترب منه سـعيد وهو يمسك في يده شيئًا مستطيلاً وملفوفًا في ورقة جريدة قائلاً:

- **الواد عدنان الفلسطيني. قاللي أبقى أودي الشريط ده لبدير صاحب القهوة.**

ثم فض ورق الجرائد فظهر شريط فيديو بمبي، رفعه سعيد في الهواء كمن يعلن عن بضاعة قائلاً:

- **عدنان شافه. وقاللي إن بدير مسجله من على الدش أبو كامة اللي في القهوة. دا مش فيلم كده ولاّ كده يا حاج. لأ. دا فيلم قديم بتاع مارلين منرو. اسمه إيه يا سعيد؟ اسمه إيه يا سعيد؟ أيوه. اسمه الرولز رويس الصفراء. بس طبعة أمريكا الكاملة. البت مارلين دي عليها خرطة جسم إنما إيه. يا ساتر. شمع والله يا حاج. شمع. ميلر دا كان ابن محظوظة. أنا مشفتوش. الواد عدنان هوَّ اللي قاللي. الله يحرقك يا ميلر.**

نظر الحاج لسعيد نظرة تليق برجل طيب قائلاً:

- **هوَّ عدنان قال لك إنه حيوديه لبدير النهارده.. النهارده يعني؟**
- **والله يا حاج الواد بدير أنا ليه دلال جامد عليه. لو انت عايز تاخد فكرة. خده وملكش دعوة.**

في هذه اللحظات تحول التمني عند الحاج قنديل إلى رغبة عارمة، مد يده ليسحب الشريط من يد سعيد، لكنه لم يتمكن، فقد سحب سعيد يده بالشريط في الوقت المناسب.

- **تحب تاخده وانتَ ماشي ولا تاخده دلوقتي؟**

سحب الحاج الشريط بعنف وهو يقاوم الجاذبية الأرضية من على الدكة قائلاً:

- **ماهو أنا ماشي دلوقتي.**

قبل أن يترك الحاج مركز الصيانة سأله سعيد صاحب الوش المكشوف:

- **هــي الفرجه على الحاجـات دي مش حرام برضه يا حاج؟ أنا بسـأل بس عشان أستفيد.**

وضع الحاج الشريط في جيب الجاكيت الغاطس ثم ارتداه على عجل قائلاً:

- **«فيــه ناس كتير كانــت فاكرة زيك كده. وناسـيه إن العلم بالشيء ولا الجهــل بيــه. وبعديـن مارلين دي مش جميلـة يا سـعيد؟ جميلة صح؟ طيب يا سيدي. إن الله جميل يحب الجمال. عايز إيه تاني بقى؟».**

جلـس الحاج على كرسي القيادة في سـيارته اللادا موديـل 83 ومن خلفه خرج سعيد، فهو يعلم جيدًا أن الحاج غشيم في كار السواقة، فقد دفع أربعمائة جنيـه لأمين شرطة في مرور السـيدة زينب لكي يسـتخرج لـه رخصة القيادة بـدون امتحـان، كان أمين شرطـة معرفة سـعيد توفيق هو من دبـر للصفقة، لذلك اقتطع سعيد من المبلغ مئة جنيه لنفسه، واقتطع من الحاج قنديل جمايل كثيرة أقلها أنه يتأخر عن ميعاد الحضور أكثر من ساعة يوميًّا.

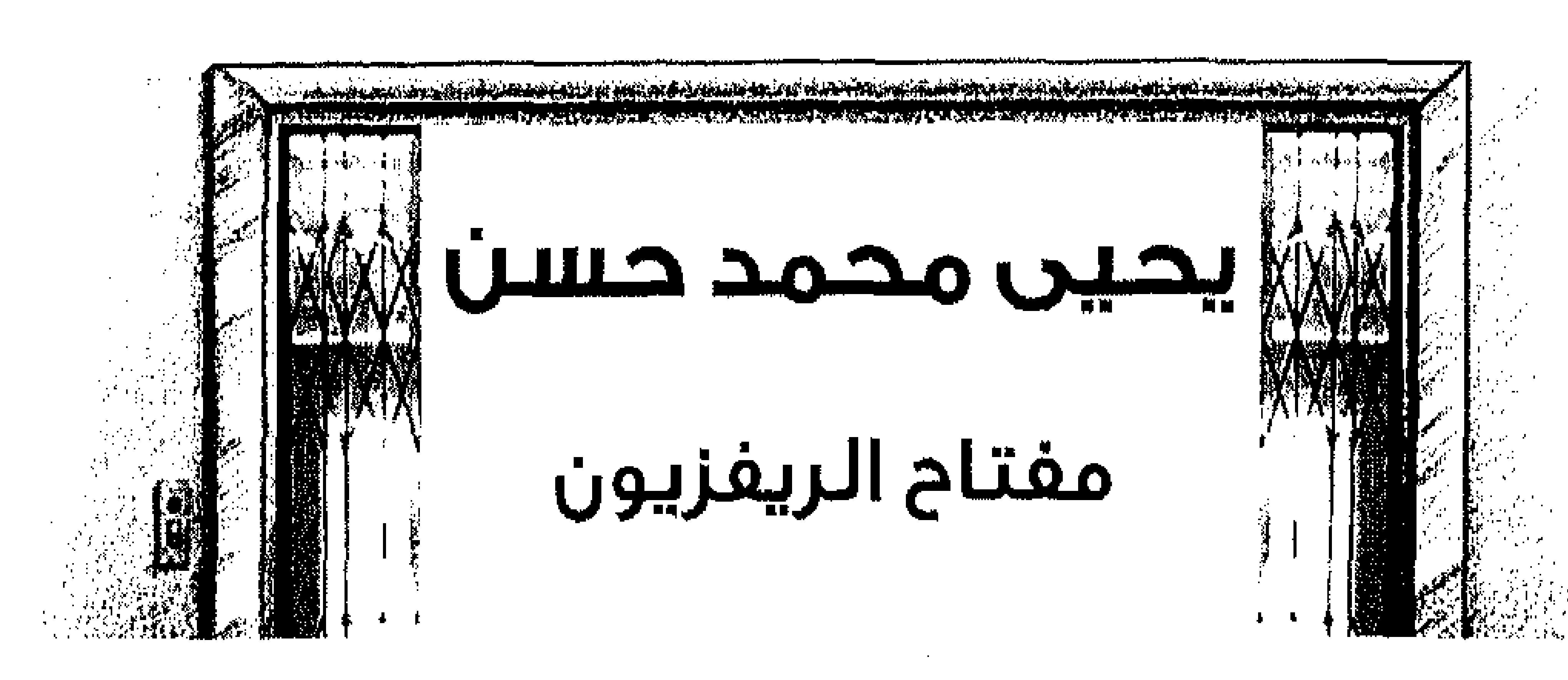
يعـرف سـعيد أيضًـا عدد الخبطـات والحكّات التي تسـببت فيهـا طريقة قيـادة الحاج المزعجة، ويعلم أيضًا كمَّ المخالفـات، فهو من يذهب ليجدد له الرخصـة ويدفع المخالفـات في طوابير المرور، لهذه الأسـباب كان يجب على سـعيد توفيـق أن يتابع الحاج لكي يُخرجه بسـيارته من الشـارع الضيق حتى يصل سالمًا ليصبح أمام مبنى وزارة الأوقاف في قلب ميدان باب اللوق:

«يمين سِنَّة يا حاج. حاسب المراية. أيوه. إكسر بقى العجل كله. لأ. الملف ع الواسع بقه. أيوه كده. طريق السلامة يا حاج. ماتحملش هم حاجة. كإنك موجود وزيادة. بقول لك إيه يا حاج. أنا رايح مشوار مهم بكرة. واحتمال اتأخر شويه. أو ماجيش. احتمال يعني. بس العارضة خلصت. والسنوية انت عارف بحجزها للمصيف».

كان الحاج قد اعتدل في جلسته واستعد للقيادة وأدار مؤشر الراديو على إذاعة القرآن الكريم، أخرج رأسه المدوَّر الصغير من شباك السيارة بشكل مائل قائلاً:

- **براحتك يا سعيد. أناح صلي الفجر في السيدة وهاجي على المركز على طول. وبعدين أنا بكره ماعنديش حاجة. بس بقول لك إيه. لو الشريط عجبني ابقى قول لبدير إنك محتاجه يومين مش يوم واحد. سلامو عليكو.**
- **في رعاية الله يا حاج.**

تمايلت السيارة على غير هدى كمشية رجل عجوز، وتباعد صوت الشيخ المنشاوي شيئًا فشيئًا...



دخل لمركز الصيانة، رمى سلامًا عشوائيًّا على العمال المتكومين في الأركان، لم ينتظر ردًّا عليه، صعد سلمًا خشبيًّا قصيرًا تُفْضي آخر درجاته لسندرة تستخدم كمخزن «للأسطبة»، بحث بعصبية عن زجاجته وجركنه؛ إذ كان على كل عمال الصيانة أن يحتفظوا بزجاجة ليعبئوا فيها الجاز، وجركن ليملئوه بالزيت «الفالفالينا» وبعد الانتهاء من عمل الصيانة للمصعد المطلوب يذهب العامل لبيته بعدَّة الشغل، مفك وزرادية وزجاجة وجركن، وعلبة حلاوة طحينية فارغة يوضع فيها الشحم ويسميها العمال «حُق».

صعد يحيى إلى مخبئه وهو يبحث بعينين ذابلتين ومدعمستين عن زجاجته التي كان يميزها بعلامة؛ قرص شمس مرسوم على غلافها الورقي، وغطاء أزرق نزعه من زجاجة أخرى كانت معيبة بخرم، أو مطبقة ويصعب نفخها. أما الجركن فقد طعن غطاءه بمفك طعنة صغيرة غير نافذة، لكنها واضحة.

مثل هذه الاحتراسات كانت واجبة، فقد سُرق منه الجركن مرات عديدة، مما قد يضطره لأن يتسول جركنًا آخر من محطة البنزين. وفي هذه الحالة من الممكن أن يفوز بواحد، ولكن كثيرًا ما يخذله عامل المحطة الذي سيقول

لـه: «مافيـش والله». رغم أن جراكن كثيرة ملونة ملقـاة تحت قدميه. ولكنها «غلاسة وخلاص».

لم يجـد يحيى الجركن ولا الزجاجة، فثار، وكانت عادته أن يثور لأسـباب تافهة، شتم وسب كل من في المركز لاعنًا أبواللي جابهم.

- **إخـرس يا يحيـى ومتعملَّكش هلولة. شـغلانة كل يوم هيَّـه ولا إيه؟ دوّر كويس.**

قـال الحاج قنديل ليحيي بـلا مبالاة، كان يدير مـؤشر الراديو المحطوط عـلى رف مبقع بالزيت ومرشـوق بارتجال فوق براميل سـولار لم يدحرجها العـمال لعُمق المخزن بعد. كان الراديو قديماً وبه جروح من كل الاتجاهات، في مقدمتـه فدغـة وجـزء مفقود من إطـاره، وفي جنبـه طعنة طولية محشـوة بالغبـار، يـبرز عن صندوقه البلاسـتيكي مفتاحان في حجـم غطاء زجاجة، ويخـرج من أعلاه إريال مزدوج ومتعرج. أما السـلك الذي يوصل له التيار الكهـربي فهو واحد ملي من فائض أعمال الصيانة والإصلاح، مؤشر الراديو لا يتحـرك في الغالب عن إذاعة القرآن الكريم. الحاج قنديل يعبث بمفتاحه الأسـود الكبـير، يحضن جسـم الراديو ويقـرب أذنه من المـؤشر جيدًا كمن ينتظر أخبار الحرب.

صعد يحيى السـلم الخشـبي الملخلـخ مرة أخرى، لم يمل مـن البحث بين غابـات «الأسـطبة» عـن جركنـه وزجاجتـه، فزعت كتـل الأسـطبة ولفت الخيوط الملونة على شـعره المكتكت فزاده ذلك ضيقًا، البالات محشـورة فوق براميل الزيت والجاز، تُخرج عند مجرد لمسـها جيوشًـا من الغبار الدقيق، كأن

قنبلة فرقعت في حمامة بيضاء، خيوط من مخلفات المصانع تشبه جبال كنافة، مجدولة ومختلطة الألوان، متكومة في بقجة كبيرة من الخيش فوق سندرة مهملة في أقصى عمق للمخزن. قص منها ضفيرة طويلة، فيحيى - ككل عمال الصيانة- يحتفظ بـ «كاتر» في جيبه لفض اشتباك الخيوط المتداخلة.

للمرة الثانية لم يجد يحيى شيئًا، نزل من على السلم غاضبًا، حتى أنه لفرط غضبه وقع على برميل الزيت النائم بجوار السندرة، خرج هائجًا في اتجاه الحاج قنديل وهو يسحب بإبهامه سلاح الكاتر للداخل، قال وصوته يسبق إحراجه بسبب اندلاقه المباغت:

- **مش كل يوم يا حاج ح ادور في أكوام الزبالة والخرابات. ولا أروح أشحت من البنزينة. وبعدين أنا لازم أعرف مين ابن حرامية مستقصدني وبيسرق الجركن والإزازة؟ مع إني بخبيهم عن عنيهم الفقرية.**

ما زال الحاج قنديل منشغلاً بمؤشر الراديو، رمى أذنيه في اتجاهه، أرهف السمع وزر عينيه حتى أصبحتا في حجم حبتي عدس، رد على يحيى دون أن ينظر في اتجاهه، وقال ببطء من لا يمرر الكلام على عقله:

- **مخبي إيه يا اهبل؟ ماانت طالع نازل والجركن والإزازة في إيدك والعمال كلهم شايفينك وعارفين انت بتخبيهم فين.**

تصنَّع يحيى الغضب وقال بثقة ساذجة:

- **طب مش طالع صيانة النهاردة.**

وصل الحاج قنديل للموجة التي ينتظر إرسالها في شغف، هش الهواء

بكفيه وهو يطلب من العمال الهدوء، ضم أصابعه كوردة لم تتفتح وأنزل ذراعه لأسفل طالبًا من يحيى صاحب الغاغة أن يهمد. انتظر قليلاً وهو صامت وشارد، يحوّط الصوت ويحرسه بنظراته كي لا ينفلت ويتبخر، انقبضت ملامحه وانبسطت، والوسائد الصغيرة المنتفخة تحت عينه تتقلص وتنفرج مع الكلمات المهمة التي تنبعث من موجة الراديو، جلبة العمال تُصدر هسهسة وتشويشًا يتوه معه صوت مذيع الخبر الهام.

قطب الحاج قنديل حاجبيه حتى أغلقا عينيه تمامًا، ثم انتفض تاركًا جسم الراديو بيأس وغضب وهو يقول بصوت ارتفع مرة واحدة بدون تدرُّج:

- **يبقى الكلام صحيح. ديانا ماتت. ودودي كمان. الله يخرب بيتك يا يحيى. مبسوط يا ابن الفقرية؟ وش أمك نحس.**

يحيى يفتح فمه وكأنه سيبتلع الكلمات، ترك شفته السفلية تنصاع صاغرة للجاذبية الأرضية، مبسوطة ومدلدلة وكأنها ستغرف شيئًا ما. رد بعد فترة صمت محاولاً الاستيعاب:

- **دودي إيه وديانا مين؟ يا حاج بقول لك الجركن والإزازة مش لاقيهم.**

ابتعد الحاج قنديل عن الراديو وهو يتمتم:

- **الله يحرقك يا شيخ.**

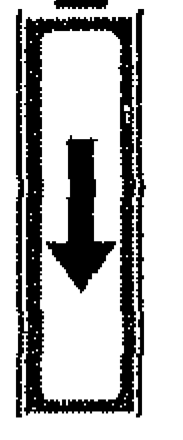
لم يهتم الحاج قنديل برد فعل يحيى، أمسك بذراع عامل عابر يتسكع في الطرقة، جذبه بعيدًا عن هيصة العمال وقال له بصوت أقرب للوشوشة:

- **سبحان الله.. سبحانه بصحيح.. له في خلقه شئون.. بقى ياخد أميرة القلوب ويسيب لنا يحيى أبو أميرة!**



الحاج قنديل تعوَّد من كثرة التكرار أن يعالج مثل هذه الأمور ويحتويها بحكمة، يأخذ عمال الصيانة جميعًا على قدر عقولهم، يشتمهم ويسبهم في الصباح، وعندما ينهون أعمال الصيانة يمزح معهم ويسألهم عن عيالهم، يسامرهم ويلاعبهم الكوتشينة على قهوة «بدير» بعد الظهر، وأحيانًا في أماسي الورديات، يسهر ويهزر ويروي نكتًا مكشوفة، وأحيانًا خليعة، وبرغم أنه يُحَرّم الرهان، فإنه كثيرًا ما كان يلاعب العمال عشرة طاولة على المشاريب، ويدفع لهم الحساب أو يدفعون له، على حسب ما تذهب الرياح بالزهر.

لم يكن ضياع الجركن والزجاجة الفارغين فقط هو سبب ضيق يحيى، لكن السبب الأهم حدث مساء أمس. اتنين كيلو جوافة حطهم يحيى في الثلاجة قبل المغرب بقليل، بعد العشاء كانوا فص ملح وداب، لم يجد لهم أي أثر، ولا حتى لمخلفاتهم في شنطة الزبالة، وكأن عفريتًا «لطش» شنطة الجوافة، وهل هناك عفاريت إلا أولاد «عوض»؟ يا رب يجيلهم ويحط عليهم.



وعوض هو الأخ الكبير ليحيى، نسبيًّا، فالفرق بينهما فقط سنة وبضعة أشهر، مات أبوهما الذي كان يعمل في نفس الشركة، وفي نفس قسم الصيانة «عم محمد حسن». هو الذي علَّم يحيى كيف يخبئ الجركن والزجاجة، وكيف يتحايل على حراس العقارات بالجُمل المعسولة من دون صيانة حقيقية، لكي يوقِّعوا له بسهولة في خانات كارت الصيانة الدورية. العمال في الظاهر يرضون رؤساء اتحاد الملاك والسكان، لكنهم في حقيقة الأمر كانوا يرضون البوابين، فيمكن للبواب أن يتسبب في توقيع جزاء قاسٍ على عامل الصيانة لو أقر في الإدارة فقط أنه قصَّر في أداء عمله.

تعلم يحيى الخنوع من أبيه، عم محمد حسن؛ الذي لم يكن يهاب المصاعد الطالعة النازلة بقدر ما كان يرعبه ركوب الأتوبيس أو الميكروباص، كان مدمنًا لقراءة صفحة الحوادث، أو بالأدق لم يكن يقرأ غيرها، فقط ليتعجب ويتندر على السائقين العمي الذين ترشق حافلاتهم في النيل، أو تخترق سور كوبري وتشق الفضاء، فيتساقط منها الركاب كفرد الأحذية. اشترى دراجة مستعملة من سوق الجمعة، دهنها وزخرفها بالسبعات والتمنيات، ققلطها ورسمها عروسة «فشر» عجل السباق. في أحد الصباحات كان جالسًا فوقها يكافح بالتبديل، وكف قدمه يكلبش في شبشب جلد وارم ويغني باندماج وتمايل حتى استبد به الطرب «غريب الدار عليَّ دار زماني الآسي وظلمني» وعندما وصل لمقطع «أنا اللي الدهر عاداني وباعني واشترى فيّ وخد أحب...» قص الطريق يسارًا بعد أن ظن أن الصندوق الحديد للسيارة النقل الكبيرة قد انتهى، فاحتضنه صندوق المقطورة التي لم يرها من الخلف وأصبح هو ومطيته الضعيفة بين فكي كمَّاشة، تحولت دراجته النصر إلى قطعة حديد في حجم منفاخ، وبالرغم من أنه كان يرى أن ركوب الميكروباص أو الأتوبيس ليس له إلا تفسير واحد، حادثة فظيعة تهتز لها أرجاء الجمهورية ويتحدث عنها كل الناس، فإنه عندما فاضت روحه وتحجرت نظرته وبهتت كعين سمكة مملحة، لم يتحدث عن موته إلا بعض الأقارب، ولم يحصل إلا على سطرين من عشر كلمات في جريدة نصف شهرية مجهولة اسمها «شمس الصباح».

وكما ورث يحيى وعوض مهنة أبيهما وقسم الصيانة والزرادية والمفك التيست. ورثا أيضًا الشقة التي كان يسكنها في بولاق أبو العلا، والتي كانت عبارة عن غرفتين صغيرتين للغاية، وممر مستطيل كمسطرة، مضغوط وضيق

ويسميانه مجازًا مدخل، بالكاد يستوعب مرور شخص، حتى أن عوض عند زواجه لم يجد غرفة نوم جاهزة من المناصرة يمكنها أن تؤدي الغرض، فالحجرة لو ضُرب طولها في عرضها لما أتمت ستة أمتار على بعضها، وكانت الصالة عبارة عن طُرقة مترين، لا تستوعب سوى كنبة استانبولي ومشاية، والحَّمام أيضًا، كان ضيقًا جدًّا، لدرجة أن أبسط أصوات التنفيس التحتي يسمعها بسهولة أي كائن موجود في الشقة؛ وربما خارجها. أما المطبخ فكان رمزيًّا، رف صغير مرتجل بجوار باب الحمام، فوقه بوتاجاز مسطح، ملخلخ الأجناب وفاقد لكل مفاتيحه، تكفلت عوامل الزمن من رطوبة وخلافه بجعله كالحًا بلا لون واضح تقريبًا، توضع تحته أنبوبة غاز مائلة دائمًا على جنبها، وعلى يمينها رف آخر يحمل بعض الحلل والأكواب والملاعق وعلب كشرى بلاستيك فارغة وبعض الشفاطات المستعملة.

- **اتنين كيلو جوافة اشتريتهم من لحم الحي. قبلهم على نفسه وعلى عياله ازاي؟**

يقول يحيى لنفسه وهو ذاهب للبحث عن زجاجة وجركن بديلين. هجم على السيارة التي تعوَّد رؤيتها كل صباح، قفز فيها كقرد. سيارة نصف نقل تأتي يوميًّا من شارع صبري أبوعلم، ثم تقف بالقرب من مركز الصيانة بشارع جواد حسني، صندوقها تملؤه أكياس قمامة مختلفة ألوانها، فوقها زجاجات متكومة بلا عدد، فوارغ زيوت وصابون وشامبو، وجراكن لا تزال تنز منها قطرات المعطر أو سوائل العصائر.

أول ما قفز يحيى شخط فيه سائقها، شاب عشريني «روش» يفلفل شعره

ويلبس «الأنسيال» والقميص المشجر والبنطلون الجينز آخر موضة من طراز «ديرتي».

- **خد يا يحيى طلبك وخلّص بسرعة عشان مستعجل. عايز ألحق شارع محمد محمود قبل عربيات الأمن المركزي ما تعسكر فيه.**

داس يحيى في جبل القمامة وغاصت قدماه حتى ركبتيه، السيارة لها أجناب خشب إضافية بمفصلات لكي تسمح بتحميل أكبر قدر ممكن من مخلفات عمارات وسط البلد.

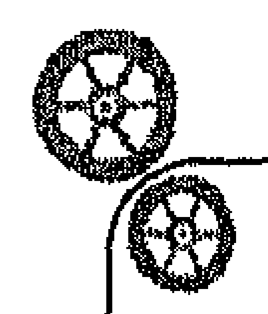
- **شهّل يا يحيى.**

شخط السائق وهو يضع المفتاح في «الكونتاكت»، عندما دار المحرك كان يحيى يقفز من السيارة وفي حضنه جركنان وخمس زجاجات، ومجلة ملونة مقطوع غلافها، وعربة واحدة من قطار لعبة، وماوس منزوع السلك وخارج من بقايا طعام لزج.

- **متشكرين يا عمدة.**

تهادت السيارة ببطء يناسب جمع قمامة من شوارع متقاربة.

خبأ يحيى كل ما عثر عليه في شنطة بلاستيكية سوداء، يطبقها ويحتفظ بها دائمًا في جيبه، أخرج جركنًا وزجاجة فقط ثم عاد لمركز الصيانة الذي لم يبتعد عنه سوى خطوات قليلة. جذب «أبو السعود» زميله من كتفه، مال عليه كمن سيسر إليه بأمر خطير، وضع يدًا على كتفه، فيما اليد الأخرى مدسوسة في جيب البنطلون وكابشة على شيء ما، قال يحيى بصوت متردد وخفيض يليق بتدبير مؤامرة:



- **تشتري كمبيوتر يا أبوالسعود؟**

فرد أبوالسعود وهو يبربش ورأسه منكّس وكأنه يكلم حذاءه:

- **كمبيوتر إزاي يعني؟**

وجد يحيى أن الوقت قد أصبح مناسبًا للإعلان عن بضاعته، أخرج من جيبه الماوس الذي لا يزال مبرقشًا بالصلصة وحبيبات الأرز وقال محتفظًا بسرِّية صوته:

- **أهو يا معلم.**

قلّب أبوالسعود الماوس في يده يمينًا وشمالاً ورمقه من فوق لتحت. كان حريصًا على ألا تلمس يده طرف السلك المنزوع، قال وهو لا يزال على عجبه:

- **أنا أصلي مبفهمش في الحاجات دي يا يحيى.**

بدون مقدمات أو تفاهم نتش يحيى الماوس من يد أبوالسعود بعصبية مبالغ فيها، أعاده لدفء جيبه مرة أخرى وهو يرفع يده عن كتفه ويقول:

- **كل فولة ولها كيال يا حبيبي. وبعدين على رأي المثل إيش عرف الحمير في أكل الجنزبيل.**

دخل يحيى مركز الصيانة فوجد الحاج قنديل جالسًا على كرسي خيزران متهالك، وعمال الصيانة في مواجهته مقرفصين، تتداخل أصواتهم بغير انسجام، تلفهم شبورة من التثاؤب والبلادة، وكأن غازًا خفيفًا يغلفهم ويهيمن عليهم، الغبار يتصاعد من فروات رءوسهم عندما يهرشون، ويُسمع

صفير كالوشيش يخرج من المكان بغير تحديد لمصدره، يبدو وكأنه زفراتهم المنهكة التي ستمر على يوم ممل وطويل، حتى النظرات، تلتهم كل ما حولها، ولكنه التهام الحملان، نظرات باهتة لا تقصد الرؤية بقدر ما تفتعلها، تمتد جلبتهم حتى يهش الحاج قنديل بيده هشات متتالية ويزعق زعقتين بخشونة، فيعودون صاغرين لسيرتهم الأولى. قال الحاج قنديل مخاطبًا شعبه الصغير:

- **الزيت حيتأخر النهارده يا رجالة. كل واحد يعبي إزازته جاز والجركن يملاه ميه. أهي حاجة تلُق قدام الزباين لحد ما ربنا يفرجها والإدارة تمضي أذونات الصرف.**

لم تكن المرة الأولى التي يتحايل عمال الصيانة فيها على عملاء الشركة – في الغالب يكون حارس العقار هو المفوض لتوقيع كارت الصيانة. فيصبح عمال الصيانة شغالين عنده ولذلك يحاولون إرضاءه وكسب وده طوال الوقت – ملأ يحيى الجركن بالماء والزجاجة بالجاز، ثم جزَّ بعضًا من جدائل الأسطبة بالكَتر، ودس كل ذلك في شنطته السوداء، ركنها على دراجة ضخمة ماركة «نصر» اشتراها مستعملة من سوق الجمعة، كان الكاوتش «مريَّح» فنزع المنفاخ عن بطن «الجادون» وأخذ ينفخ، تأكد من أنه يبذل جهدًا ضائعًا عندما اكتشف أن الكاوتش مخروم، أخرج لفافة تحتوي على الكثير من لاصق كاوتش بُني وبدأ مهمة سد الخرم. لم يشتر يحيى الدراجة إلا بعد أن أعيته طوابير تجديد الاشتراك من فئة خمسة جنيهات وأربعين قرشًا، وبعد أن خُصم منه بسبب تأخره في الطوابير المنتشرة في ميدان التحرير عشرون جنيهًا كاملة، وجعه الخصم ولم يهدأ حتى اشترى دراجة مستعملة لا يقطع لها تذاكر ولا يقف من أجلها في طوابير تهد الحيل.

كان الاشتراك مخصصًا للأتوبيسات الحمراء التابعة لهيئة النقل العام، أما الأتوبيسات الزرقاء والخضراء التابعة لشركة القاهرة الكبرى فكانت تمر على يحيى وكأنها طيف، أو جسم شفاف، لا يلتفت إليها، لأنه لا يوجد عنده أدنى استعداد لقطع تذكرة، أبدًا. فقد انتظر ذات مساء في منطقة المقطم أتوبيسه الأحمر البطيء، ظل منذ الثالثة عصرًا حتى السادسة مساء وهو جالس على الرصيف حتى تخشبت أطرافه وضربه الجوع، رآه أحد خفراء مخازن الشركة بالمقطم فتعجب من طول صبره كل ذلك الوقت، فدعاه للركوب معه في أحد الأتوبيسات الزرقاء، صعد يحيى متخيلاً أن الخفير سيقطع له تذكرة، لكنه - أي الخفير - قطع لنفسه فقط متجاهلاً يحيى الذي نظر إليه ببؤس قائلاً:

- **إنت مش حتقطعلي ولا إيه؟**

فالتفت الخفير ونظر إليه نظرة ساذجة متصنعًا الابتسام وقال:

- **كل واحد على بتاع أبوه.**

انتفض يحيى فزعًا من على الكرسي، أصبح كل همه هو البحث عن الطريق للباب الخلفي. كلما اقترب المُحصل خطوة. ابتعد يحيى نفس الخطوة، وكأنه يهرب من قابض الأرواح، اتجه مسرعًا لسلم الأتوبيس، قفز منه قبل أن يتوقف، طارت جملته في الهواء فسمعها الراكب والراجل:

- **عملتها فيّا يا ابن الكلب.**

لذلك كان لا بد له من الصبر على الدراجة وقرفها. نفخ الشنبر الداخلي

بعد لطع اللاصق وضغطه جيدًا في جسم الكاوتش، وضع حاجياته على الشبكة الحديدية وربطها بسلك واحد ملي وانطلق.

من الصعب أن ترى قدم يحيى وهي مرتكزة على البدال، فهو شديد النحول كالنُساك، وجسده النحيف يشبه جسمًا مفرغًا، لا تصدق أن بداخل هذا البطن معدة أو أمعاء، يوحي منظره بأن الجلد ملتصق بالعظم ولا شيء ثالثًا بينهما. كانت خفته تساعده على السرعة، حتى مشيته تشبه وثبات فرقع لوز، وشنبه الخفيف الهائش وكأنه شيء لا ينمو ملصوق تحت أنفه، مضطرب ويتحرك في الهواء كشنب قِط. وعوده المقدد مرن أكثر بكثير مما يعتقد رائيه.

أما ملابسه التي يشتريها غالبًا من وكالة البلح؛ فكانت تُمثل المقاس الأخير من مقاسات الأطفال. ونظرًا لنحافة عنقه فقد كانت ياقات القمصان كلها كبيرة جدًّا، كأنها تخص أباه، ودائمًا الزراير مكان العراوي والعراوي منتوشة ومفتلة، تبظ الشراشيب من الياقة بسبب كثرة قلبها عند الخياط، حتى يصبح ترميمها مرة أخرى مغامرة. أما القميص فقد رقت خامته وأصبحت كالشاش، تظهر من تحته فانلة تبان منها خروم وقطوعات مختلفة الأشكال والأحجام. وبنطلوناته كانت من البالات، قطيفة وشارلستون، ألوان فاقعة من تلك التي كان يلبسها محمود ياسين ونور الشريف في أفلام السبعينيات.

لا يملك يحيى ترف اختيار قمصان تليق على البنطلونات أو العكس، يتجلى في مظهره إساءة التوليف، فلا مانع من أن يلبس بنطلونًا مشمشيًّا على قميص أخضر، أو جاكيت بتنجاني ومن تحته فانلة كلسون رمادية وبنطلون أزرق، والكوفيات يصنعها بنفسه من ملابس هلكت، فاصطفى منها قطعًا

طولية وبرم حوافها بخيط من لون آخر. وكانت نحافته سببًا مقنعًا لارتدائه ملابس كثيرة، يستِّفها فوق جسده قميصًا فوق الآخر، ياقات متتابعة تسلم بعضها في نهاية المطاف لياقة جلد كبيرة كجناحي خفاش، جاكت أسود مقشر ومدهون بورنيش عدة مرات وطالع عينه وجزء من بطانته.

يضرب قدميه في «كندورة» زرقاء وهو ذاهب للعمل ليوفر حذاءه (أبو رباط) للمشاوير المهمة، كأن يذهب مثلاً ليُخدِّم على موائد الرحمن في أيام شهر رمضان، وبالمرة يخرج بعد غسل الصحون وتنظيف الموائد بشنطة فيها حتتين لحمة للعيال.

هذا عن رمضان، شهر واحد في السنة، فماذا عن الأحد عشر شهرًا الباقية؟ كان ليحيى عمل إضافي بعد انتهاء مواعيد العمل في الشركة ،مهنة لا تحتاج لإبداع، فقط ابتسامة، ولو بالغصب، يلبس زيًّا نبيتيًّا مقلمًا يشبه القفطان، ويضع فوق رأسه عمامة من نفس اللون، كانت كبيرة جدًّا إذا ما قيست بحجم رأسه الناشف الصغير، ويدس قدميه في بلغة بيضاء لها وبر كفرو قط، ثماني ساعات يقضيها في مطعم «مرزوقة»، مطعم فول فيه عدة أقسام: «الدوار» و«المندرة» و«المضيفة» ومكان للعائلات معلق عليه لافتة تحمل اسم «بيت العيلة».

أما في الأيام العادية فلا تخرج طبيعة عمل يحيى - بعد دخوله في الزي الموحد - عن وقوفه أمام المحل عند الباب وترحيبه بالزبائن، ينحني ويتقوس ظهره - المقوس أصلاً بفضل النحافة الزائدة - أمام كل زبون يهم بدخول المحل، أحيانًا ينفحه الخارجون بعد أن تهدأ في بطونهم العصافير ربع أو نصف جنيه، وأحيانًا جنيهًا كاملاً يجيب به علبتين زبادي لابنته الوحيدة أميرة.

في بعض نهارات الصيانة الشاقة كانت القسوة تظهر على ملامح يحيى، فلا تخرج محاولات تبسمه عن تقوس الشفتين واندفاس الغمازتين في منزلق كالمغارة، ويتكوَّن أسفل ذقنه تجويف كالمطب، لا يتجاوب ما بقي من ملامح في انتزاع الابتسامة، فالعينان المجهدتان يختلط فيهما من كثرة الإرهاق البياض بالسواد، والشدقان مطبقان وتفاحة آدم بارزة ومتسخة، حادة وبلا أبعاد، تتحرك بوضوح عند الكلام أو بلع الريق، في أسفلها حفرة يغوص فيها صُباع.

يقف يحيى ليلة رأس السنة على باب المطعم مزركشًا بملابس فاقعة الألوان وفجة التزويق، يقع اختيار صاحب المطعم على يحيى ليقوم بدور بابا نويل، فوق رأسه الصغير يحمل رأسًا كبيرًا وملونًا، ينوء به بنيانه الضعيف، يصافح الزائرين بيد عرقانة ومجهدة برغم البرد والمطر. يتمنى يحيى لو تغمض عينه التي لا يراها أحد ولو لدقيقتين، لا يحتاج للابتسام داخل الجسد المستعار، فالرأس الملون يبتسم من تلقاء نفسه، يغفو قليلاً وهو واقف، يهتز ويتطوح في مكانه، يكاد يقع، يتظاهر باللعب واللهو عندما توقظه نتشة من يد طفل وافد يجري ناحيته بعد أن يترك موكب والديه.

أما إذا رصدنا طريقة معيشته فهي لا تختلف كثيرًا عن طرق معيشة الغالبية العظمى من عمال مركز الصيانة، أو لنقُل الغالبية العظمى من عمال وموظفي شركة شندلر. لا يمكننا أن نقول عنه بخيلاً، إذ كان لابد أن يشتري لابنته أميرة علبة زبادي يوميًا، وهذا بالطبع ليس أمرًا هيِّنًا، فعلبة الزبادي تحتاج وحدها إلى ميزانية، ولو نظرنا لمرتب يحيى الذي لم يتخط بأي شكل مائة

وثمانين جنيهًا، سنجد أن هناك جمعية أم رشا شبه الثابتة بخمسين جنيهًا في الشهر، بعد قبضها يدخرها يحيى للطوارئ، كما يدَّخر طقمًا واحدًا عبارة عن قميص أبيض سادة وبنطلون أسود جبردين وصديري مفضض للمناسبات، لذلك لم يكن يعمل أبدًا - كأغلب عمال الصيانة - بملابسه، لكنه يُفضِّل على ذلك أن يجوب شوارع وسط البلد بملابس الشغل المزيتة والملطعة ببقع الشحم، ويربط بنطلونه بسلك واحد ملي بديلاً عن الحزام - الذي يدّخره هو الآخر للمناسبات - لم يكن يدخن السجائر، لكنه يستعيض عنها «بجوزة» صناعة يدوية، برطمان مربى فارغ مرشوق فيه جلدة ومدسوس فيها خرطوم أبيض رفيع وطويل، ينتهي بمبسم ضيق ومبطط، حجر صباحًا، وآخر بعد الانتهاء من دورية الصيانة، أما طعامه فأحيانًا على عربة الفول - وهذا ليس بشكل دائم، لكنه-وبعد سرقة حاجياته عدة مرات- أصبح يخبئ في مكان أمين برطمان عسل أسود يكفيه لمدة شهر، إذ كان كل ما عليه أن يشتري فقط رغيفين ببريزة. أما مشهد يحيى وهو يحمل في يده عود كبريت ويجوب الطرقات والأرصفة بحثًا عن «شطاطة» فهو مشهد مألوف، تمامًا كرؤيته وهو يزاحم زميلاً له في طبق فول بعد أن يشتري رغيفًا واحدًا بشلن، وبين كل لقمة وأخرى يدسها في فمه. يشتكي لزميله صاحب طلب الفول:

- **صدري حارقني أوي. ولو حد عصرني حنزِّل عسل أسود.**

لا يعيره الرجل اهتمامًا فيضيف يحيى في تناحة:

- **آه والله.. بطني بقللت.**

ويحيى عندما يأكل لا يأكل مثل خلق الله، فلا يغلق فمه أثناء المضغ

أو حتى يكف عن الكلام، ويمكن للواقف أمامه أن يرى بلعومه وبنكرياسه، يعلو الطعام ويهبط ويهرس، لسانه يُقلب الخلطة ويتذوق الطعم ويُخرج الكلمات في نفس الوقت، ناهيك عن الزبد الذي يتكوم على جانبي فمه حتى يفيض ويختلط بالرغاوي اللزجة المبقبقة بسبب طحن لا يتوقف، فهو يندمج في الأكل ولا يشعر بأي شيء آخر.

تأمل يحيى كارت الصيانة الأخضر

«23 شارع نجيب الريحاني»

ربط تموينه بقايش عريض فوق دراجته ومر على دورة مياه عمومية في ميدان باب اللوق، كان مزنوقًا فركن الدراجة ودخل ينط كفرقع لوز، منعه رجل سمين ومهيب اللغد يجلس أمام الباب كالزكيبة وحوله زوبعة من الذباب، سأل يحيى:

- **رايح فين ياخينا؟ هي وكالة من غير بواب؟**

فرك يحيى بكلوة يده بتلة البنطلون وهرش بين فخذيه من أعلى لأسفل وكأنه يحلب جاموسة وقال:

- **هي مش دي برضك مراحيل؟**

فأشاح الرجل بدفتر في حجم الكف وهو يرد:

- **آه يا سيدي مراحيض. بس التذكرة بنص جنيه.**

هنا توقف يحيى عن الفرك، تخشب قليلاً، زغر للرجل ثم ذهب من سكات ليركب دراجته القريبة، ربما أنسته سيرة النصف جنيه أنه مزنوق، ومع أول لفة للبدال قال موجهًا كلامه للرجل السمين:



• أشخ بخمسين قرش؟ دانا مباكلش بيهم!

ولأن دراجته بغير فرامل، وبما أنه تعود ذلك من كثرة التكرار، فكان عندما يريد التوقف يعود بالبدال للخلف عدة مرات ثم يباعد بين رجليه ويحكهما بقوة في الأسفلت، ثم يُزَحِّف ويكلبش في الأرض حتى يتوقف حماره الحديد عن المسير. وصل للعنوان المدون رقمه في كارت الصيانة.

حارس العقار نوبي وبدين، يلبس جلبابًا أبيض وفوق رأسه عمامة كبيرة عشوائية، تتدلى أهدابها على قفاه العريض، يجلس على فرو عنزة لها شراشيب معقودة على جانب واحد، مفروشة على دكة طويلة لها مسند ومدهونة بلون أخضر باهت، جلبابه الأبيض الذي يزيد من حجمه متسخ قليلاً عند حواف العنق وطرف الكم، لملم ذيله في يده وكأنه سيعصره. رمى يحيى التحية:

• صباح الخير يا عم صالح.

• أهلاً يا يحيى.

لما وجد يحيى الرد مقتضبًا أردف:

• سمعت آخر نكتة يا عم صالح؟

فالتفت صالح بكل جسده ناحية يحيى وقال:

• نكتك كلها طويلة زي الحدوتة يا يحيى وبعدين ملهاش قفلة.

• طب اسمع دي بس مني يا عم صالح. دي نكتة طازة. أطيز حاجة.

نفخ صالح الهواء ليزيح عن صدره إلحاح يحيى وقال:

• **قول يا سيدى وخلصنا.**

ركن يحيى دراجته بجوار بوابة العمارة ووقف أمام صالح الذي يجلس بجواره رجل منصت وفي عينيه غباوة واضحة ونعاس:

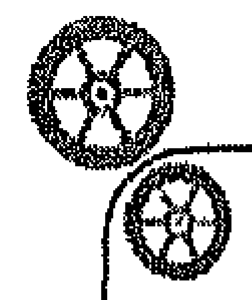
مرة بيسألوا واحد بخيل أوي لو الدنيا بردت تعمل إيه؟ قالهم أقعد جنب الدفاية، قالوا له طب لو بردت أكتر قالهم حقرب من الدفاية أكتر، قالوا له طب لو بردت جدًّا جدًّا، قالهم حلزق في الدفاية، قالوا له طب لو نزّلت تلج، قال لهم حشغل الدفاية بقى وأمري لله.

ضحك صالح فاهتز صدره العريض مع كتفيه كتلة واحدة، وكأنه مبطن من الداخل بطبقة جبس. وعين الرجل الجالس بينهما تتجول بينه وبين يحيى، يحاول أن يستكشف سبب الضحك، شفته السفلية الغليظة تركت وجهه وسرحت ممدودة وحدها للأمام. ربت صالح على كتف يحيى في أُبوّة وقال:

• **خلي بالك. النهارده الدكتور سيد أجازة. يعني ح يراجع على الصيانة بنفسه.**

• **إيه الاصطباحة دي بقى؟**

قالها يحيى دون أن يستمع إليها صالح البواب الذي ظل جالسًا على الدكة يتابع المارة ويهش عن وجهه الذباب، يندمج في الحديث مع بواب آخر جالس بجواره على الدكة، لكن ملامحه لا تتجاوب مع الكلام، كان يبدو في ملكوت آخر. ربط يحيى دراجته بجنزير في بوابة العمارة الحديدية الكبيرة، ورغم ذلك لم ينس توصيته الثابتة:



- والنبي تخلي بالك من العجلة يا عم صالح.

الدكتور سيد مختار. أستاذ الحضارة الأوربية بجامعة القاهرة، يوبخ عادة عمال الصيانة، يقارعهم بالمنطق والعقل، بالحجج والبراهين، ولكن بلغة شعبية مفهومة إلى حد ما. اصطدم كثيرًا مع عمال لا يفهمون ما يقول برغم بساطته.

فكَّ يحيى زنقته في ركن قذر ومتسخ بجوار المزراب يسمى مجازًا دورة مياه، ثم صعد بعدته البدائية لعمل الصيانة التي من المفترض أن يأتمنه السكان بعدها على أرواحهم، أوقف يحيى المصعد عن طريق مفتاح الشوكة الذي هو أكبر مفتاح في ميداليته[1] لـمَّع يحيى «الكابينة» من الداخل بورق جرائد يحمله معه دائمًا، وتعد هذه المرحلة هي الأكثر وضوحًا للعملاء، تبرق الكابينة كالفضة، وذلك بلا شك دليل على وجود عامل صيانة محنك وممارس جيد للمهنة، يقفز بعد ذلك فوق ظهر الكابينة ليمسح العمودين الحديديين اللذين يسير على هداهما المصعد - يسميهما أغلب سكان العقارات قضبانًا.

ممارسته للعمل كانت كحركات مسرحية، لا يخرج فيها أبدًا عن النص، بلل ضفيرة من الأسطبة بالجاز ودلك بها العمودين، طلع ونزل عن طريق مفتاح «الريفزيون[2]» الموجود فوق سطح المصعد لهذا الغرض، زيَّت أحد

(1) تفتح جميع أنواع المصاعد بنوعين من المفاتيح المخصصة لذلك الغرض؛ مفتاح شوكة ومفتاح مثلث، ولا يسمح لغير العاملين في الشركة بحملهما.

(2) مفتاح في علبة معدنية قوية، مثبت في الكمرة الحديدية فوق المصعد، مستطيل وفيه مفاتيح ثلاثة، طلوع ونزول واستوب، تتلخص وظيفته في تحكم عامل الصيانة أو الإصلاح في تحريك الكابينة صعودًا وهبوطًا دون الاعتماد على لوحة المفاتيح الاعتيادية داخل المصعد.

العمدان وهو طالع، وزيَّت الآخر وهو نازل. راضٍ عما يفعله تمامًا، لم يشعر ولو لثانية واحدة أن وضع الماء في الجركن بديلاً عن الزيت أمر مشين، أو غير لائق أو حرام، فلا يمكنه أن يعترض أو حتى يحاول أن يبدي رأيه:

- **لو الحاج قنديل قاللي طرطر على العمدان ح طرطر.**

يقول لنفسه بينما يده ضاغطة على مفتاح الريفزيون ويده الأخرى تدلك العمود الأقرب له بالأسطبة والجاز، كان منحنيًا بشكل كبير كنصف دائرة، ليس هذا تواضعًا لأحد، لكنْ لتلك الانحناءة سبب قوي.

منذ أسابيع مضت، وفي نفس العقار «23 نجيب الريحاني» ضغطت يده على زر الصعود وهو فوق الكابينة، وأثناء ما كانت يده الأخرى تدلك نفس العمود بالزيت، كان يدندن بأغنية «وقدرت خلاص تبعد عني. طب بكرة تشوف» وصل المصعد للدور الأخير وتخطاه، وفيما يحيى منسجم في الدندنة وقد انتشى طربًا، وقبل أن يكمل مقطع «مانا لازم اسامحك يا حبيب».. وجد رأسه محشورًا في «الشنيشة» التي تنزل منها الأحبال الصلبة الحاملة للمصعد من غرفة المكن، أصبح وضعه على ظهر الكابينة كالمشنوق. صرخ بصعوبة، فصعدت صرخته لغرفة التحكم فوق السطح، ولم ترتد لبئر المصعد ليسمعها «صالح» البواب، رفست رجلاه كثور مذبوح يفرفر ويسلم الروح. الدكتور سيد مختار الساكن في الدور الأخير كان يفتح باب شقته استعدادًا للنزول، سمع الاستغاثة المكتومة فأسرع ينادي البواب بلهوجة وارتباك، صعد صالح لغرفة المحركات، لف جريدة كاملة حول رأس يحيى حتى لا تجرحها الزوائد الخرسانية البارزة، ضغط بقبضته الغليظة على الرأس المحشور حتى فض اشتباكه مع الأحبال الصلبة. خرج رأس يحيى وهو متدثر بخبر بالبنط

الأحمر الكبير «خالد الغندور يتربص بالأهلي». منذ ذلك اليوم ويحيى يطلع فوق ظهر المصعد منحنيًا بأقصى ما يستطيع، فلا يمكن لأوسع شنيشة أن تبتلعه من ظهره أبدًا.

لمَّع يحيى الأبواب جميعًا بهبرة أسطبة عليها مسحوق سبيداج ليزيدها بريقًا ولمعانًا. لكنه اهتم بشكل خاص بباب الدور الأخير، فهو لن يتحمل توبيخ الدكتور سيد الذي يرطن بكلام غريب وغير مفهوم.

طوَّق يحيى الباب المقابل لشقة الدكتور بالجاز. وفيما هو مندمج في الدعك والتلميع فتح الدكتور سيد باب شقته، خرج يرتدي بيجامة مقلمة وشبشبًا، رأسه مستدير كبطيخة نظيفة بيضاء، ذقنه حليقة وعينه خضراء، وشنبه كخط قلم كوبيا مرسوم فوق شفته، ما تبقى من شعره مصبوغ بلون أسود مُشبّع بحمرة خفيفة، شعيرات طويلة وخفيفة جاءت من أقصى شمال رأسه لأقصى اليمين لتستر الفراغ، ضم بسبابته وإبهامه فتحتي أنفه جازعًا من رائحة الجاز النفاذة. سحبت يده الأخرى من جيب بيجامته العلوي ورقة صفراء، مدها في وجه يحيى قائلاً بصوت مائل للخنفان:

- **تقدر تقولي دي تبقى إيه؟**

ترك يحيى ما كان منشغلاً به والتفت يحملق في الورقة الصفراء، يمسكها الدكتور ويقلبها بينَ يديه بعصبية حتى كادت تتمزق:

- **إيه دي سعادتك؟**

فردها الدكتور، أخرج نظارة طبية من أنبوب فضي كان في جيب بيجامته،

وبعنف وضعها على وجهه حتى كادت إحدى ذراعيها تدخل في عينه، نظر في الورقة وقال بصوت عالٍ وكأنه يلقي محاضرة:

- **دى مقايسة يا سيدي الفاضل. الشركة المحترمة بتاعتكم طالبة ألف وتسعميت جنيه عشان تبليط أرضية الأسانسير. ليه .. حتبلطوه بميّة الدهب؟ يا ابني دا هوَّ الأسانسير كله متر × متر.**

- **سعادتك أصلــ....»**

- **عارف عارف. عارف إنك مسكين ومغلوب على أمرك وملكش في حاجة. أنا بس عايزك تقولي متر القنالتكس بكام يا سيدى الفاضل؟ بتلاتين.. بخمسين جنيه؟**

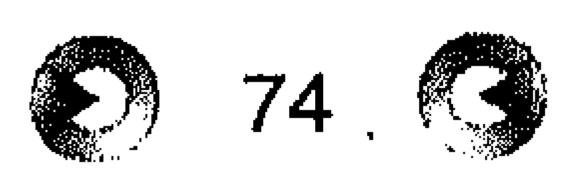
- **ماهو سعادتك لسه فيه صنايعي ومادة لاصقة و.....»**

- **كمان ميت جنيه. ميتين؟ ميتين وخمسين. تلتميه... تاخدوا ألف وتسعمية ليه»**

- **أنا بســـ....»**

خلع الدكتور سيد نظارته بعصبية، فبانت دوائر منتفخة تحت عينيه في حجم عملة معدنية صغيرة، ظلت تنقبض وتنبسط وترتعش مع رمشة عين متوترة، أشاح بيده القابضة على ذراع النظارة بإحكام قائلاً:

يؤسفني أقول لك يا حضرة يا محترم إنكم شركة حرامية. بختكم بقى إن من الشهر دا أنا بقيت رئيس اتحاد ملاك العمارة. روح قول لرؤسائك الدكتور سيد مختار مش خواجة حتلبسوه برنيطة وتركبوه جمل وتاخدوله



صورة جنب الأهرامات. وقول لهم كمان الدكتور سيد قال لي إنتو شركة حرامية. ومش دافعين الصيانة الشهر ده كمان يله هه.

مرت فترة صمت بعد أن أخرج الدكتور سيد شحنة غضبه، فوقف يحيى بملامحه البائسة التي تميزه ينتظر الأوامر التالية لكي ينصرف، ولكن الدكتور سيد ظل واقفًا ينفخ زفيره في وجه يحيى ويضع يديه في جنبيه متأففًا دون أن يقول شيئًا، فبادره يحيى وقال بلغة تخلخلت فيها الحروف وتكسرت العبارة:

- **طب حضرتك عايز مني أنا حاجة دلوقتِ؟**
- **آه استنى.**

قال له بعد أن سحب شهيقًا عميقًا ثم أخرجه دفقة واحدة وكأنه يزيح صخرة عن صدره. دخل الدكتور سيد شقته وخرج مسرعًا يحمل شيئًا يتأرجح في يده:

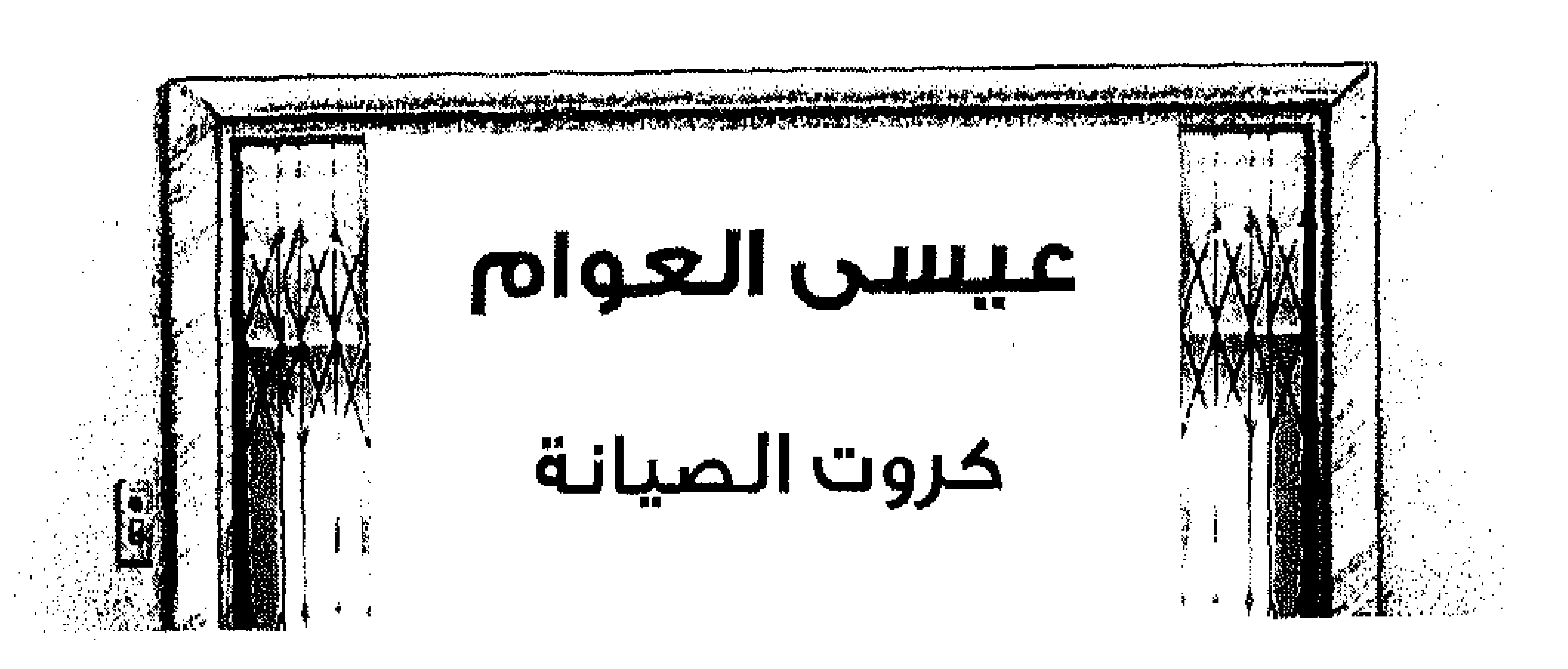
- **خد. دي نتيجة السنة الجديدة. مانتا غلبان ومالكش ذنب في حاجة.**

بعد متشكرين ويجعله عامر مد يحيى يده وأخذ النتيجة، لفحها تحت باطه وأخذ يثب وثبات واسعة الخطى، كأن الجاذبية الأرضية تعطلت ولا سلطان لها عليه. ظل ينظر للنفحة في يده ويتأمل ملامح الشيخ الشعراوي الورعة على كرتونة النتيجة، نفحة السنة الجديدة، يضاف إليها أيام الأعياد المفترجة، بالأدق قبل الأعياد بيوم أو بيومين، يوزع السكان المبسوطين على العمال لفائف تزيد على حجم قبضة اليد بقليل، شنط صغيرة تفوح منها رائحة

الذبائح، وأحيانًا كيس تمر أو زجاجة زيت أو كيس سكر، فما أكثر أولاد الحلال ربنا يزيدهم ويحنن قلوبهم.

دخل يحيى المصعد، وقف أمام المرآة، أخذ يبلل سبابته بلعابه ويمسح حواجبه، ظل يرفعها وينزلها كمخبول حتى وجد نفسه في الدور الأرضي، انطلق خارج العمارة، فوجد صالح البواب لايزال يجلس مع نفس الرجل ويحكي له نفس الحكاية التي لا يمل من سرد تفاصيلها:

- **ولما رحلونا بسبب السد العالي قعدنا كلنا في منطقة عابدين. وبعد كده انتشرنا في وسط البلد. لكن جدي حامد الكبير عدى التسعين سنة ومش عايز يفقد الأمل. اتفق مع محامي مشهور إن هوَّ وكل المتضررين حيرفعوا قضية على الحكومة. ولو كسبناها كل واحد هاينوبه ييجي اتنين مليون جنيه. انا بقى لو خدتهم مش حرجع البلد تاني. لأ يا متولي. عارف ساعتها أنا حعمل إيه؟ حشتري العمارة دي!**



عيسى العوام

كروت الصيانة

الأوقات في الشركة تمر بغير حساب، وكأنها ليست من العمر[1]، فإذا ما أضفنا لتلكؤ العمال تأخر البضاعة من قطع غيار وخلافه، فإننا أمام ثلاثة أرباع يوم عمل ينقضي بين الكانتين والطرقات والمصاطب الخرسانية المتقابلة أمام الباب الرئيسي كطريق الكباش الشهير. يجلس العمال وكأنهم منذورون للكسل والبلادة، مستعدون دائمًا للصياح، يزيد أو يقل حسب مواهب الحناجر، يندبون الحظوظ والأقدار، أو يقارعون بعضهم بالحجج عن أمور لا تخص سواهم. يشربون الشاي أو يعفرون السجائر، يظلون هكذا حتى تهمد عزيمتهم وتتلاشى أصواتهم. يتحفزون دائمًا في وضع الانقضاض على منتقديهم، يذكرونهم بأن شندلر هي أم الشركات، وفي صناعة المصاعد لم يُخلق مثلها في البلاد.

---

(1) بخصوص هذه النقطة يجب ذِكر ملحوظة هامة، فأغلب العاملين في الشركة يرون أن ما يتم توفيره من وقت خاوٍ وضرورته قليلة جدًا لأنها لن تطيل العمر لحظة واحدة، فكلما زاد الوقت الذي يوفرونه؛ قل فعليًا ما لديهم من وقت، وأنه كلما أسرعوا في العمل زاد الإنهاك والمطاردة، ولذلك فضغط الساعات لدقائق من وجهة نظرهم ليس انتصارًا على أية حال.

في مركز الصيانة يكون التسكع على أشده عندما تتأخر سيارة التموين[1]، يرتاح العمال من همِّ الصيانة الدورية التي لا تنتهي، يرتاحون أيضًا من «تناكة» البوابين وصلفهم، وخاصة عندما يكون عامل الصيانة مستجدًّا، فيجد فيه البواب فرصة للمنظرة أمام أبنائه وزوجته، وزغدة البربرى ألمها لا يحتمل. ويكون ذلك بديلاً مقنعًا عن مرمطة اللي يسوى واللي ما يسواش من سكان العمارة له، فيقف البواب وهو يلبس الجلباب الأبيض المزهَّر ورأسه مدفون في عمامة مرتجلة وفكاهية، ويضع يديه في سيالة جلابيته وهو يهرش بين فخذيه، يشرف على العمال وكأنه مهندس تقييم، وأحيانًا يقول بملء الفم:

- **متكنُس البير وتلم لنا الزبالة معاك بالمرة يا ريس.**

ثم يعطي له مقشة انتزعت من نخلة ولها يد أطول منه، يمسك البواب بنصف جنيه ورق جديد، يطبقه في كفه الأسود الكبير، وبعد أن ينهي العامل البائس كنس بئر المصعد يفعصه في كفه وهو يلم الزبالة ويده لا تزال متأثرة بلزوجة الزيت، يقول بعد أن يربت على ظهره بأبوة:

- **خد. اشرب شاي.**

ولأن العامل في الغالب لن يستطيع رد طلب البواب في الكنس، فلا يرد يده أيضًا بنصف الجنيه، ولا بأي شهريات أخرى[2] يدوخ العامل السبع

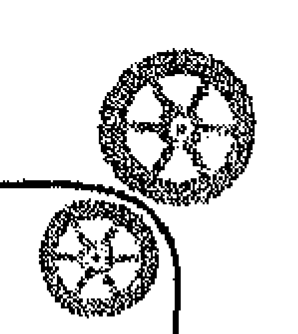
(1) الاسم المتداول بين العمال للجاز والزيت والشحم.

(2) كانت هناك مكاتب منتشرة في عمائر وسط البلد، كمكاتب الاستيراد والتصدير أو شركات محدودة لتصنيع الورق أو الأحبار، أو مكاتب السياحة. هذه الأماكن كانت تخصص شهرية لعامل الصيانة، لا تزيد في الغالب على عشرين جنيهًا، ولا تقل عن خمسة.

دوخات ما بين غرفة المواتير والكابينة وبئر المصعد، وفي النهاية لا يتقاضى الشهرية إذا لم يدخل البواب معه للمكتب، لا بد أن يقول للمانح إن هذا الشخص هو عامل الصيانة التابع للشركة الرسمية، والمسئول عن صيانة المصاعد، وقد أنهى عمله على أكمل وجه، لا بد أن يكون البواب شريكًا في العملية كلها، يرضى العميل عن العامل ويعطيه المكافآت، أو يغضب عليه ويتسبب له في توقيع الجزاءات. وأحيانًا لم يكن العامل «يهوّب» ناحية المصعد من أساسه، ورغم ذلك يتقاضى الشهرية كاملة، ولكن بشرط، أن تقسم بينه وبين البواب

لنعُد إلى مسألة أوقات الفراغ، التي وإن كانت مملة في أقسام الشركة كافة فهي لم تكن كذلك في مركز الصيانة، وذلك لأن الحاج قنديل كان يخترع الشغل بشكل دائم للعمال، فهذا يرفع الأسطبة، وذاك ينزلها، وهذا يدحرج البرميل من مكانه وآخر يعيده لنفس المكان، أو يُدخلهم في مسابقة دينية مكافأتها مسبحة بلاستيك ثلاث وثلاثين حباية، فيعيد على أسماعهم الأسئلة التي ملوا من تكرارها، من هو النبي الذي كلم ربنا؟ من هم الذين ماتوا ثم عادوا مرة أخرى للحياة؟ ما هو مفرد مذكر نمل؟ منْ هو النبي صاحب القبر المتحرك؟ كانت أطرف الإجابات التي فشل الحاج بعد سماعها في ضم فكيه واستعادة وقاره؛ عندما سأل عن العشرة المبشرين بالجنة؟ فأجابه أحد العمال بعد تفكير عميق وهو مقرفص بجواره والثقة تنضح من نبرة صوته:

«صلاح الدين القليوبي».



أما السؤال الذي لم يعرف الحاج إجابته فكان:

- «**أبو عبيدة بن الجراح. هوّ نفسه كان اسمه إيه؟**».

كانت مثل هذه الأساليب التقليدية لقتل الوقت متَّبعة منذ مدة، وتحديدًا منذ عام، وبدقة أكثر قبل أن يتم نقل عيسى العوَّام لقافلة مركز الصيانة. فقد أصبح عيسى في فترة وجيزة هو فاكهة الحاج قنديل، أو بالأدق أفيونته. يستمع لعيسى كمن رأى ممثلاً يؤدي دوره على خشبة المسرح مئات المرات، فأصبح يعرف ما هي الحركة التالية وماذا سيفعل بعدها، بل يعرف أحيانًا كيف ستخرج انفعالاته. وبرغم ذلك كان عيسى يستحوذ على اهتمام الحاج بشغف لا يفوز به عامل.

وعيسى صاحب جسد برميلي مدكوك، ورأس كبير مستدير، ملامحه مبرطشة وفمه كبير ومفلطح، شفته العليا مقببة والمساحة من فتحتي أنفه حتى بداية شفته - التي من المفترض أن ينمو فيها شنب- كبيرة أكثر مما يجب، وكان مشعرًا وذقنه تنمو كل ساعة تقريبًا، فلو تركها يومًا واحدًا يصبح كأرباب السجون، الشعر يتناثر في أنحاء جسده، عنقه وقفاه وذراعيه، كأنها لمخلوق وسط بين قرد وإنسان، وبرغم ذلك لم يتكاثف الشعر في رأسه، فلا هو بالأصلع ولا هو بالمشعر، فقط شعيرات تنمو في رأسه متباعدة ومرشوقة كدبابيس، واقفة وفزعة دائمًا، ويبرز فوق حزام بنطلونه كرش كبير لا يتناسب مع قصره.

كان عيسى من المغضوب عليهم، تم نقله لمركز الصيانة فورًا بعد أن ارتكب حمقًا لا يغتفر..



منذ عام تقريبًا، ترشح ابن خال المهندس محمد زكريا رئيس مجلس إدارة الشركة في انتخابات مجلس الشعب عن دائرة المعادي، وبالطبع كان سيحتاج لأصوات داعمة، فشحن المهندس محمد عمال الشركة جميعًا في أربعة أتوبيسات مكيفة نقلتهم على أربعة أدوار حتى لجنة التصويت، وجلس مع ابن خاله ومعهم مقص وعشرون ألف جنيه عشرينات، كانت مهمتهما طوال الليل هي تقسيم كل عشرين جنيهًا إلى نصفين، شطر سيتقاضاه العامل وشطر يظل في محفظته، وبالطبع بعد أن يصوت العامل لصالح ابن خاله سيناوله باقي العشرين جنيهًا، كانت طريقة قديمة ومفقوسة، لكن المهندس محمد زكريا وقته ضيق، ويريد أن يجامل قريبه بأقل جهد أو إبداع. جلس أحد عمال الشركة بكرسي عند قهوة متفق عليها ومعه «بواقي العشرينات» يسلم بالرقم كل عامل الشطر الآخر من فلوسه. وحول اللجنة يحوم شباب شكلهم غلط، استأجرهم المهندس لنفس الخدمة، اختصرهم أحد العمال في كلمات قليلة:

- **عيال صايعة. بعشرة جنيه ممكن يضربولك اللي انت عاوزه. وبعشرة جنيه كمان ممكن يخرشموك انت في نفس الليلة.**

سارت المسائل مثلما خطط تمامًا، لكن النهاية لم تأت كما أرادها النائب المحتمل، أخفق قريبه في الانتخابات بفارق ثلاثة عشر صوتًا فقط، فجلس ابن خاله في مكتبه بالشركة يقرقض أظافره ويغلي، وكان لا بد للمهندس محمد زكريا أن يشفي غليله بأي قرار، فأمر الساعي بأن يحضر له كشف الحضور بالشركة كلها في ذلك اليوم، وبعد متابعة وتدقيق تأكد أن هناك

اثنين وعشرين عاملاً غابوا في يوم التصويت، كانت هذه النسبة معقولة جدًّا وعادية في شركة تعدادها أكثر من ألف عامل وموظف، لكن مسألة الغياب لم تمر على خير، وقَّع جزاءات كثيرة على كل من غابوا في ذلك اليوم، وكان عيسى العوام من بينهم.

نُقل عيسى من أعمال التركيب لأعمال الصيانة، وفي يوم وليلة تغيرت مهنته، فبدلاً من شيل المواتير وتثبيت الكنترولات بالجبس والأسمنت في قواعد متينة، أصبح يحمل شنطة سوداء مرصوصًا فيها التموين، يلف بها على العمارات ويستجدى عطف البوابين، مرة بنكتة لاذعة بعد زغدة من يد بواب كسول وسمين، ومرات بالتظاهر بأنه يعمل صيانة حقيقية ليفوز بالشهرية.

ظل اسم العوَّام ملازمًا لعيسى الفترة الطُّولَى من حياته، فمنذ صباه حتى وقت ليس ببعيد كان يتغلب على المرتب الهزيل بصيد الأسماك من النيل، في البداية كان يلقي لأسماك البلطي بفتات الخبز المتبقي من الوجبات، وكان أحيانًا يصنع كورًا من العجين المتماسك ويلقيها فتسعى إليه الأسماك من الأعماق، بالخبرة والتكرار تعلَّم عيسى أن البلطي لا يوجد إلا على جانبي النهر، بجوار الطمي والزرع. ولكنه اخترع طريقة لم يعتَدها خلق الله في الصيد من قبل.

في مكان هادئ وغير مأهول، على تبة خرسانية في ضواحي حلوان، كان عيسى يحمل فوق رأسه مشنَّة كبيرة، يقفز بها ويغطس لدقيقتين تحت سطح الماء، ثم يرفعها بخفة نشَّال لتخر ما بها من ماء ويعلق بها نصيبه من الصيد، كان يلبس تحت بنطلون الخروج لباسًا طويلاً من الدمُّور يغطي ركبتيه، ومكتوبًا عليه من

الأمـام بخط أحمر باهت «أنا منكم» وملطوع على مؤخرته كلمة واحدة «ولكم» وتحت كرشه مباشرة مرسوم جمل أحمر صغير، بائس المنظر وباهت.

كان يقـف عـلى التبة بعـد أن يخلع كل مـا عليه من هلاهيـل، ويظل فقط باللبـاس، يـضرب بلنص بالمشـنَّة، يغـوص ويـرى أسراب البلطـي الغامق متوسـط الحجم تحت سـطح الماء بمترين أو يزيد قليلاً، تقع عينه على الأكبر حجـمًا، كل بلنـص بكيلو سـمك، بعد أقل من سـاعة يكون قـد أنجز المهمة ودس مـا رُزق به في شـيكارة بلاسـتيك، يذهـب لبيته ويرمـي حصيلة اليوم لزوجته، فتأخذها وهي تعرف محتواها، وربما تعرف عدد السـمك من حجم ونفخة الشيكارة. تغلب عيسى على ارتفاع الأسعار وبؤس المرتب في الشركة بهذه الهواية التي مارسـها لسنوات طويلة. لكنه فجأة بطل يضرب بلنصات، ولم يعد يذهب للتبة الخرسانية.

ففي إحدى مرات الصيد، وفيما هو مندمج في دس السمك في الشيكارة. سـمع سرينـة تنطلق مـن خلفه، ولما أفاق مـن «البلنص» وأخرج رأسـه من الماء ونتر ما علق بشـعره من قطرات، وجد بوكس شرطة يفرمل من خلفه، نزل منه ضابط برتبة ملازم وبجواره أمين شرطة أكبر سنًّا، أشار له الضابط بسـبابته إشـارة بطيئـة انثنى فيهـا إصبعه على شـكل خُطاف، خرج عيسـى بلبوص، لا يسـتره إلا لباس طويل مهدل الأستك ومنقور من كل الجوانب كأنه كان محطًّا لطيور جارحة، وقف أمام الضابط ونكَّس رأسـه وهو يعتمر المشـنَّة كقبعة مكسيكية حجم عائلي، استسـلم قبل أن يوجهوا إليه الأسئلة، فترفق الضابط بحاله وهو يسأله:

- **إنت مش عارف إن دي منطقة سياحية وممنوع النزول في النيل بالمنظر ده. السياح يقولوا علينا إيه؟**

رد عيسى وهو لا يزال محني الرأس وكاشش:

- **حاضر يا فندم.**

كان عيسى بمنظره أكثر ذُلًّا وبؤسًا من جنود الأمن المركزي الواقفين بالقرب من الموكب الصغير يهشون عن وجوههم الذباب. اقترب أمين الشرطة من أذن الضابط وقال له كلامًا لم يسمعه عيسى، بعد قليل أمراه بالانصراف وعدم مزاولة النزول للنهر مرة أخرى. انصرف عيسى وارتدى ملابسه على عجل واختفى بسرعة من أمام «الحكومة».

في اليوم التالي لم يحك عيسى لزملائه ما حدث بالفعل، ولكنه اخترع حكاية موازية تنقلب فيها الأحداث للنقيض تمامًا. فقد شخط في الضابط والأمين وكلمهما عن أن المصري لا يهان على أرضه بسبب «شوية» سياح، حتى ولو كان السبب في ذلك هو كلينتون نفسه.

انتقل عيسى لمهنة أخرى ليس لها علاقة من قريب أو بعيد بأي مجال عمل فيه من قبل، مهنة تساعده فقط على اجتياز الأيام الصعبة. لقط صنعة السباكة من سباك يسكن بجواره، كان في البداية يحمل له الشنطة والبضاعة، ويرفع شيكارة فوق كتفه فيها عدة تساوي وزنه، مطربيطة ومفتاح استونسون وميزان ميه ومفكات ومفاتيح بلدى وحبل كتان وونش يدوي. بعد قرابة الشهرين لم يعد عيسى في حاجة لمزيد من التعلم، فقد أصبح أسطى غطت شهرته في المنطقة على الأسطى الذي شرَّبه الصنعة. والغريب أن عيسى كان مستعدًّا لأن يتعلم أي مهنة إلا ما يتعلق بأعمال المصاعد.

دبـر من تلك الأعـمال البسـيطة جمعية بخمسـة آلاف جنيـه، وكان حلم عمـره أن يراه زملاؤه وهو راكب سـيارة، أي سـيارة، لم يكذِّب خبرًا، قبض الجمعيـة وبحث في نفـس اليوم عن ميكانيكي شـاطر وكهربائـي «متودك»، ذهبوا لسـوق الحي العاشر واشـترى سـيارة فيات 125 موديل 1969 قال له بائعها عند التعاقد:

- «أوتوموبيل بريمو» تروح مشـوار كـده ولا كده تلاقيها تحت رجلك. **محتاجها هتمونها. مش محتاجها هتركنها. يعني لا بتاكل ولا بتشرب.**

لم يكن يمر عليه أسبوع إلا ويصرف عليها من دم قلبه شيء وشويات. مل مـن المصاريف وركنها تحت البلكونة لما تأكد أنـه من المضحوك عليهم، وأن البلوة التي اشتراها تأكل قطع غيار وتشرب بنزين وزيت أكثر من مصاريف بيت بحاله. ركنها عيسى ولم يعد يرغب حتى في مجرد رؤيتها. بعد أيام عمل جمعية أخرى واشترى موتوسيكل «جاوا» مستعملاً.

صباحات كثيرة كان الحاج قنديل يرفض أن يذهب عيسـى للصيانة، فهو يتكيف من قعدته بجواره، ليحكي له أي حكايات.

يذهـب كل العـمال للشـغل، ويظل عيسـى في المركز، يشرب الشـاي مع الحـاج قنديل، أو يذهب بصحن ألومنيـوم يملؤه بالفول ويرص فوقه عشرة أرغفـة، ويضع تحت باطه حزمتي بصـل، يفطر مع الحاج، ويصطفيه فيأتي له بالشاي من قهوة بدير عندما يتفتت سلك السخان الحراري.

لو سمع الحاج ما يحكيه عيسى من آخر غيره فسيصبح مثل نكتة بايخة، لكن من عيسى العوام الأمر مختلف. فهو لا يعدم التأليف ولا يمل التكرار، يحكي

ويبلغ مداه من التقمص، حتى ليراه السامع وكأنه خرج لتوه من الحكاية، يرويها طازجة بحذافيرها، وكأن ما يقوله ينتظره عند ناصية قريبة ليمتطيه ويعود به لأرض الحكاية مرة أخرى عبر آلة زمن عكسية. أما إذا أضفنا تمثيله لكل ما يتفوه به، واستجابة ملامحه ومطاوعتها لما يقول بسهولة. فسيصبح المستمع لعيسى يشاهد فيلمًا سينمائيًّا كاملاً من بطولة شخص واحد.

عمل عيسى في قسم التركيبات عشرين عامًا، لكنه رغم ذلك لم يتعلم من التركيبات شيئًا، كان يسرح أغلب الوقت في ملكوته، ولا يشغل باله برسومات كهربة الكنترول أو بدوائر الأمان، كان يقضي يومه كأغلب العمال، وعندما يأتي ميعاد انصرافه ينصرف، يندِفس في أتوبيس 413 الذاهب لدار السلام - أو الصين الشعبية كما يطلق عليها ساكنوها- يشب حتى يطول الماسورة الممتدة بطول السقف وهو متشعبط، ينام وهو واقف، تأتي محطته فينزل، تضع له زوجته الطعام فيأكل، يحين ميعاد نومه فينام، واليوم ورا اليوم، والشهر في قفا الشهر حتى انقضى على هذه الحال عشرون عامًا، مرّت كيوم واحد طويل، وبرغم ذلك لم يسأل عيسى نفسه عن تلك السنوات، وكأنها سقطت من آخر غيره، كان مطمئنًّا لأبعد حد، ولا يشغله إلا يوم القيامة، يترك الدنيا الطويلة العريضة ولا يشغله كيف بنيت، ولكن كل ما يؤرقه ويؤجج مشاعره هو كيف ستُهدم. يصدق أي رواية تتحدث عن يوم القيامة ونفخ الصور، وكثيرًا ما كانت لديه سيناريوهات مُتخيّلة لذلك المشهد؛ فيرى أن الأرض ستنقلب كما يُقلب الرغيف في الفرن، ويأتي عاليها على سافلها، ستخرج مياه البحار من حفرها وتسقط السماء من عليائها، فيختلط الكل بالكل وتصبح الأرض أشبه بطبق السلطة. كل ذلك سيحدث للأرض وعيسى العوام في

وعي كامل، فيكمل بريشـة خياله ما سيحدث بعد ذلك، ستنزل أمريكا «اللي طالعـة فيها» تحت حذائه، وستُمنع المواصلات وستنقطع خطـوط التليفون وتتوه العيال وأمهم، الله يلعن العيال وياخد أمهم.

يضحـك الحـاج قنديـل من تصورات عيسـى، ويسـأله عن سـبب غيابه بالأمس فيطرد زفيره بآهة متقطعة ويقول:

- **ياه. امبارح. دا حصلت بلاوي.**

نفـس الحكاية كان عيسـى ينسـاها أحيانًا، فيضيـف في كل مرة ويحذف، وبرغم ذلك فإن الحاج لا يمل من تكرارها، يضحك عيسى ضحكة ساذجة تليق بضبه الكبير قبل أن يستعد للحكي، وأحيانًا كان يتوه عن الخط الرئيسي فيدخـل في غياهـب خطوط فرعية كثـيرة تنتج حكايات متفرقـة لا نهاية لها، وأحيانًـا يحكـي الحكاية الواحدة بروايتين، مرة يضيف ومرة يحذف، يشـذبها حتـى تتطابق مـع ما يمر على خيالـه أثناء الاندماج. يجلس عـلى برميل زيت نائـم ويظل يهـزه بمؤخرته فيتدحـرج البرميل بمقدار ربع لفة، يظل عيسـى يهتز فوقه حتى تأتيه البداية:

- **بالليـل وانا نايم ومتغطي سـمعت حس تخين بينـده عليّه. افتكرته حد كـده يعني حسـه تخـين خلقة ربنـا. قمت فتحـت الشـباك وألاقيلك بوكس وعربيتـين م المتصفحـات الكبيرة دي بتاعـة الحكومة. أنا قلت يـا واد تلاقي حد من قرايبك المعفنين دول عمل نصيبة. خفت ياخدوني مكانه ولاّ حاجة. رحت ناطط من على سطوح الجيران وأنا متكلفت بفوطة مش مبينة غير عنيّه بس. وهما واقفين بيندهوا رحت راكب المكنة وطالع أمريكاني.**

يميل عيسى بجذعه يمينًا وشمالًا، ويضم قبضتيه على مقود وهمي ويقلد صوت سرينة الدراجة البخارية فتمط شفتاه وتبرز عن باقي ملامحه وهو يقول:

- عاااان.. بيب.. بف بف تررران.. تششش.. عاااان

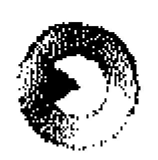
فيتابعه الحاج بملامح جادة، منتظرة ومتشوقة، كطفل يستمع لحكايات جدته:

- ها. وبعدين يا عيسى؟

- لمحني ظابط منهم بطرف عينه. راح راكب العربية بسرعة وفتح ع الرابع وهاتك يا جري ورايا. قامت بقية العربيات جريت وراه، بقيت أنا بجري في أول الشارع وهما كلهم بيجروا ورايا في آخره، قلت يا واد ماهم كده كده حيجيبوك عشان نمر المكنة. يعني هيّه موتة ولا أكتر، تعمل إيه يا عيسي. تعمل إيه يا عيسى؟ ما هي الذكاوة رزق ربنا وزعها بنسب على البني آدمين. جاتني الفكرة رحت لافف بسرعة. داريت على النمرة الورانية بالفوطة وأنا سايق، وبعد شوية قلت آه يا مغفل، طب ماهي المكنة ليها نمر قدمانية، رحت قالع القميص ومداري عليها هي كمان.

- طب والجادون متهزش كده ولاّ كده من إيدك؟

سأله الحاج قنديل وهو يضع يده على فمه وضحكة مكتومة في بطنه تأبى أن تنطلق، يهتز بطنه، ينقبض وينبسط وكأنه ابتلع قطًا، ثم طرح عليه سؤالاً آخر وابتسامة عريضة تقوس شفتيه:



• يعني ربطت النمرتين وانت سايق؟!

فتوقف عيسى عن دحرجة البرميل بمؤخرته وسكت لبرهة ثم انطلق كمن وجد ضالته:

• آي نعم الحكاية دي كانت صعبة حبتين بس يا روح ما بعدك روح. رحت محوّد بالمكنة على قهوة ملقيتش عليها «زرنيخ» ابن يومين، ركنت المكنة المتلفعة من ورا ومن قدام وقعدت. وبعدين رحت مسقَّف وطالب واحد شاي بحليب.

فسأله الحاج بتركيز أكثر وبطء شديد:

• قعدت على القهوة بالفانلة أم حمالات؟!

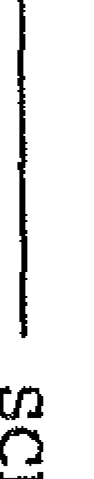
فانطلق عيسى بدون تفكير:

• أومال. مانا يا إما أتصرف يا إما حيقفشوني. راحوا داخلينْ القهوة ورايا. ولاد الهرمة دول عرفوا منين طريقي؟ معرفش. قلت يا واد أكيد معاهم رادار هوَّ اللي دلهم. المهم دخلوا دوروا في القهوة كلها ومشفونيش...

هنا قاطعه الحاج قنديل صارخًا فيه وهو يغالب الضحك، وكأن القط مل في بطنه ويريد الإفراج، اهتز لغده الأبيض الملظلظ وهو يقول:

• يا بني إزاى انت قاعد لوحدك ع القهوة ولابس فانلة بحمالات وقدامك مكنة معصّبها برباطين ومشافوكش. هوّ كان فيه حد غيرك أصلاً؟

سرح عيسى وهو يمرر ما حكاه منذ قليل أمامه مرة أخرى ثم قال:



• ما هم قفشــوني. بس في الآخر بقى. واحد منهم مسكني من قبة الفانلة وراح حادفني في البوكس. قام واحد تاني غمَّى عنيه برباط اسود جامد. وبعد كده ربطوا إديه ورا ضهري. وكل ماجي أسأل يقوم واحد منهم يخبطني على راسي بحاجة كده متهيألي إنها كعب بندقية.

• وودوك فين بعد كده يا عيسى؟

يسأله الحاج قنديل فيفرك عيسى عينه ثم يكمل:

• أول ما فكوا عنيه..

ورفــع عصابة وهميــة من على عينــه ورماها عــلى الأرض، فنظر الحاج في موضع رميها وكأنه يتفحصها بالفعل، وأكمل عيسى:

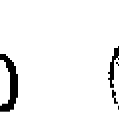
• لقيت نفسي زي ماكون مُتّ. لقيتني وسط جنينة فيها شجر خوخ وجوافة وتين. وحَمَّام ســباحة كبير. بصيت يميني وشمالي لقيت صفوف ظباط وكتيبتين تلاته عســاكر لابســين نضيف أوي. وألاقيلك الناس اللي بيطلعوا في التلفزيون واللي ما بنشفهمش إلا في الجرائين دول واحد داخل وواحد خارج. عرفت على طول إني في القصر الجمهوري. وفجأة شفته جاي عليَّ بشحمه ولحمه!

زر الحاج قنديل عينيه وقال:

• لأ لأ. متقولليش بقى يا عيسى.

فرد عيسى بنبرة صادقة وكأنه يحكي عن حلم فور استيقاظه مباشرة:

• ورحمة أمي يا حاج زي مابقولك كده بالظبط. حتى بالأمارة كان لابس... أيوه كان لابس بيچامة حرير بيضه مقلمة م القماشة الغالية أوي دي.

نظر الحاج لسعيد توفيق الذي كان يرتب كروت الصيانة فوق الأرفف ويفرز منها أي كارت غير موقَّع سواء من العامل أو من البواب وقال:

- **الحكاية دي عايزة كوبايتين شاي يا سعيد.**

فنظر سعيد لعيسى وهو يوجه كلامه للحاج قنديل:

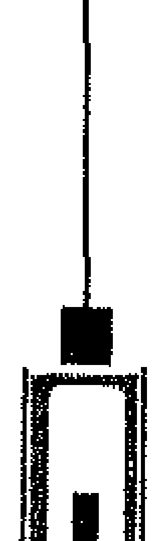
- **متخلي ابن الفشَّارة اللي قاعد جنبك ده يقوم هوَّ يعمل الشاي.**

رد الحاج قنديل بعد أن جلس بجوار عيسى على برميل الزيت النائم وأخذ يدحرجه كما يفعل عيسى:

- **معلهش يا سعيد. اعمل لنا انت الشاي الدور ده. انت قاعد فاضي.**

كبش سعيد رزمة كروت وأشاح بها في وجهيهما وقال:

- **أنا شغال وحياة أمي. وبعدين يعني هوّ ابن العبيطة اللي جنبك ده اللي وراه الديوان؟ ماهو قاعد ينفخ كرشه اللي ينجِّد مرتبة ده وعمال يجخ من الصبح.**



فقال الحاج لسعيد بهدوءِ مَن لَا يريد أن يخرج عن حالة السلطنة التي وصل إليها:

- **عيسى وراه اللي أهم من الديوان. وراه القصر الجمهوري يا أخي.**

ما يعجب الحاج قنديل في حكايات عيسى أنها تخرج منطلقة، يصدقها ويؤمن بها من باب الفرفشة، وليس من باب المقارنة بالمنطق والمقارعة بالحقائق. حكايات وكأنها مرصوصة على أرفف في مكان ما داخل رأسه،

ملفات تقبل الحذف والإضافة بشكل مستمر، وما عليه فقط إلا أن يمد أطراف أصابعه ليلتقط إحداها بخفة ويعرضها على جمهور المستمعين.

- **وبعدين يا عيسى؟**

سأل الحاج، وأكمل عيسى:

- **قاللي أنا سألت في المنطقة كلها عن سباك كويس. قالولي مفيش غيرك انت. دوختنا يا شيخ.**

أخرج الحاج سيجارة وأعطاها لعيسى، ووضع أخرى بين شفتيه دون أن يشعلها وقال:

- **وقال لك كده من ورا ساتر والاَّ كان الوش في الوش؟**

أشعل عيسى سيجارته وسحب نفسًا طويلاً حتى سقطت النفاية في حِجره، ثم قال ورأسه يلفّعه الدخان من كل جانب:

- **الوش في الوش يا حاج ورحمة أمي.**

سحب الحاج نفسًا موازيًا لكنه وهمي من سيجارته غير المشتعلة، وسأل:

- **وبعدين؟**

- **خدني من إيدي وراح ورَّاني بنفسه الحنفيات اللي بتخر ميَّه في القصر كله. وقال لي تعال بقى نصلي الفجر حاضر. حاكم أنا بحب أوي أصلي الفجر بالذات حاضر.**

سعيد عمل كوبايتين الشاي وخرج بيهم. رزعهم بقرف حتى تدلدق

الشاي على الخشبة التي تعمل مكان الصينية، ثم دخل كشكه مرة أخرى بعد أن قال:

- الشاي يا حاج.

ونظر لعيسى بغيظ وقال:

- الشاي يا ابن المزّاعة.

وبرطم بكلمات أخرى وهو ينصرف:

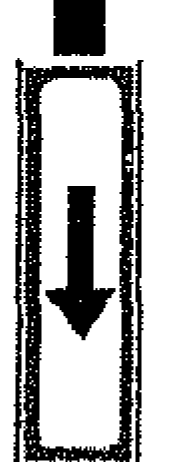
- آل قصر جمهوري آل.

وسأل الحاج قنديل عيسى بشغف:

- وصليتوا الفجر؟

محمخ عيسى ببق شاي ونفس دخان، ثم أكمل:

- أومال يا حاج. وبعد ما صلينا السُنّة قعد يكلمني كمان عن إنه مش عايز حاجة من البلد. وإن مصلحة مصر فوق كل اعتبار. بيني وبينك يا حاج كلامه كان حيخليني أعيط. بس مسكت نفسي أحسن يفتكر إني بعيط عشان حاجة كده والا كده. ظبّطت الشغل اللي طلبه مني تمام. قام راجع عليه بنفسه. وبعدين اداني كارت مرسوم عليه نسر ومكتوب تحت النسر رياسة الجمهورية وقال لي: لو عُزت أي حاجة يا عم عيسى...



هنا قاطعه الحاج قنديل بحدة قائلاً:

- قال لك يا عم عيسى؟

- **والعيش والملح يا حاج قال. قمت قلت له الله يخليك يا باشا.**
- **ها.. وبعدين؟**
- **ولا قبلين يا حاج خلّصت شغلي وراح نافحني اللي فيه النصيب. مرضيتش ابص فيهم. لا يقول مستقلّهم والاَّ حاجة.**

دفع الحاج ببق شاي آخر وأخذ شهيقًا طويلاً وقال:

- **والكارت ده لسه معاك يا عيسى؟**

وبسرعة أخرج عيسى محفظته وأخذ يقلب فيها والحاج يبتسم ابتسامة الواثق. ولكن سرعان ما أخرج عيسى الكارت وأعطاه بترفُّع للحاج الذي أخذ يقلب فيه غير مصدق، وقبل أن يعلق خرج سعيد توفيق من كشكه وسحب الكارت من يد الحاج قنديل وقال:

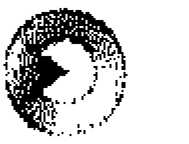
- **مضروب.**

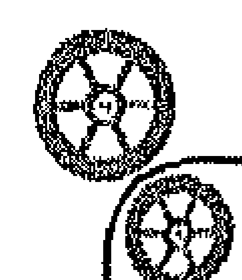
وقبل أن يدافع الحاج عن عيسى أو الكارت، انطلق سعيد بطريقة وقحة ومكشوفة ونبرة صوت شبه آمرة:

- **هات عشرين جنيه وابقى مرة لو ما جبت لك ميت كارت أجدع من ده بكرة الصبح.**

ترك عيسى الجدل حول صحة الكارت وأدام النظر لرأس الحاج قنديل:

- **شعرك مش طويل حبتين يا حاج؟**





أمسك الحاج شعره وكأنه يتفحصه بخياله، ثم سأل عيسى ببراءة:

- **انت مش لسه حالقهولي من اسبوعين؟**

وكأن ليونـة الحـاج في الرد تعني أنه لا مانـع من الحلاقة مرة أخرى. وهنا أخرج عيسى من شنطته الصغيرة فوطة «بوليستر» بيضاء عليها رسمة كالحة، بقايا وجه لشـاب وسـيم. خلـع عن رأس الحـاج الطاقية الشـبيكة البيضاء، ووضعها على الدكة بحرص ثم سأله:

- **آخدلك دقنك بالمرة؟**

نفخ الحاج شدقيه وحك أصابعه مرات في خده قبل أن يقول:

- **زي بعضه.**

سرعان ما همّ عيسـى بدهان وجه الحاج بكريم الحلاقة. «انتفش» اللون الأبيض وغابت ملامح الحاج الصغيرة في رغاوي الصابون الكثيفة، اختفت معالمـه ولم يبق منه سـوى عينـين وأنف فقط. مـرت مظاهرة صغـيرة خارج مركز الصيانة، بعض أصوات متداخلة تسللت لمسامع الحاج قنديل، فمسح حواف الصابون من عند فمه وتوجه بسؤاله لعيسى:

- **همَّ مين دول يا عيسى؟**

شـب عيسـى على ركبتيه حتى يتمكن من سحب الموسَى على وجه الحاج بشكل رأسي فيتفادى بذلك جَرحه. وأجاب بنبرة غير مهتمة:

- **دول شـوية عيال فاضيين. متشغلش بالك يا حاج. بكرة يكبروا. انفخ بقك جامد يا حاج انفخ.**

نفخ الحاج صدغيه فاستدار وجهه المكلبظ أصلاً. انتهى عيسى من جرد الجزء المنفوخ بالموسى وعاد الوجه المحلوق لسيرته الأولى، سأل الحاج وهو يمد يده ويسحب مرآة في حجم الكف من شنطة عيسى ويتفقد فيها وجهه بعد الحلاقة:

- **بيقولوا إيه العيال دول يا عيسى؟**

سلت عيسى فوطة صغيرة من شنطته المركونة بجواره كعنزة نائمة، أعطى الفوطة للحاج أولاً ثم رد:

- **بيقولوا يا كلينتون يا جبان يا عميل الأمريكان.**

ضحك الحاج وانبسطت أساريره، سحب الفوطة وقام ليغسل وجهه ثم عاد سريعًا وهو يسأل عيسى:

- **إلا صحيح. انت عملت إيه في العربية بتاعتك؟**

عبّرت ملامح عيسى عن حاله، كأنه لا يريد من أحد أن يذكره بـ«المدعوقة» كما يطلق دائمًا عليها. أجاب عيسى بوجه لا يزال باسمًا:

- **عملت بيها حادثة.**

تغيرت ملامح الحاج أثناء حك ذقنه وتفقد شعيرات زائدة تطل من فتحتي أنفه. فرد بلهفة:

- **يخرب بيتك. حادثة إزاي؟ ما انتَ زي القرد قدامي أهه.**

لملم عيسى عدة الحلاقة ونفض الفوطة بعيدًا عن الحاج، هرش في قفاه وتأمل أظافره ثم قام من على الأرض وجلس على البرميل مرة أخرى، ودحرجه بمؤخرته في حركة لا إرادية ثم قال:



• **مانتاش واخد بالك يا حاج. أصلي أعرف واحد ريجيسير بيشتغل في السيما. كنت قايل له يشوف لي شغلانة معاه تساعد على المعايش. قام لما عرف إني محتاس بالمدعوقة العربية عرض عليّ فكرة. قالي احنا بنعمل فيلم قديم ومحتاجين عربية كلشنكان نصور بها مشهد حادثة. قلت له خدوا عربيتي فرقعوها وخلصوني منها، قام لما شافها رجع في كلامه. وقالي أنا قلت لك عربية قديمة مِش مشنّة. اتحايلت عليه شوية وفي الآخر بعد ما سمكرتها ودهنتها أي كلام قمت مديهاله واداني أربعتلاف جنيه. وبعدين خدوها عملوا بها حادثة.**

نفح الحاج قنديل عيسى ما فيه النصيب، سلت عيسى يده بليونة من يد الحاج قائلاً بلغة تليق أكثر بالنساء:

• **هي إصه يا حاج. مانتَ لسه مديني الإسبوع اللي فات. وبعدين مانتَ طول عمر خيرك علينا.**

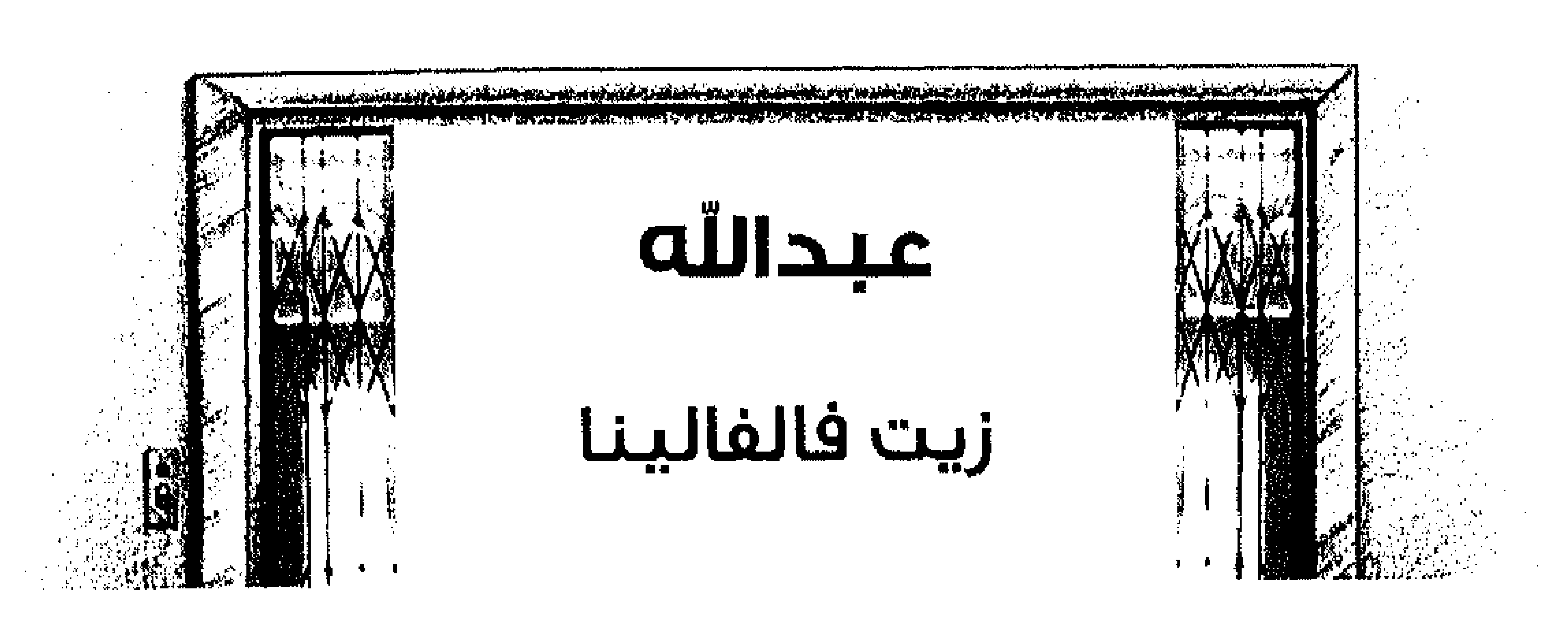
قال ذلك ويده تحتفظ بمسافة آمنة ليست ببعيدة عن اليد المانحة، اقترب الحاج ربع خطوة من عيسى وصمم على دس ما في يده في كف عيسى الموارب، ظلت أصابع الحاج تؤكد على المنح لبرهة:

• **خد اومال. انت صاحب عيال.**

قبض عيسى على ما فيه النصيب وقبّل قبضته بها تحوي لأكثر من خمس مرات ثم قال:

• **ربنا يجعله عامر يا حاج.. معندكش حاجة بايظة في سباكة البيت آخدهالك معايا بالمرة؟**





مركز الصيانة لم يكن مركزًا بالمعنى الحرفي، لا يصلح مكانًا لتلقي الشكاوى وجلوس أصحاب عقارات وسط البلد على دكته، ولا يمثل بأي حال واجهة مشرفة للعاملين فيه، فقد كان عبارة عن ممر مستطيل بغير تناسق. متعرج بغير لزوم، سرداب بدايته كشك زجاجي ونهايته دورة مياه، واجهته مزيتة وبلاطه متسخ، يتكاثر على بابه الذباب، وتزحف الصراصير بين أدراج مكتب شكاويه المتَواضع، يجتمع في أركانه كل صباح كومة من اللحم البشري، يتشاجرون لأتفه الأسباب على زجاجة فارغة لا تساوي شيئًا، أو مفك ثمنه جنيه، أو لحسة فول في قعر طبق، أو بقايا بُق شاي كوباية تسحَّب التفل على جوانبها. أصوات متداخلة وعالية، كزمجرة وحش هائل له ألف شدق. لا يهمدون إلا بعد أن يفرغوا شحناتهم اليومية من الثرثرة في مواضيع تافهة، مجايب في سيرة الناس. تلصص على شباك حمام من منور عمارة، فضيحة أحد زملائهم بعد ضبطه متلبسًا بتركيب قطعة غيار صغيرة بدون علم إدارة الشركة، أغلبهم يفعلون ذلك، لكنها شهوة الفضح، يجلسون في الطرقة الطويلة، يفعلون ما كانوا يفعلونه منذ عشرات السنين، وكأنهم بقايا من حطام قصص كثيرة بدأت ولم تنته.

والرزق في الأيام الضنك يحب الخِفية، يحتاج لمناورات طويلة، والمحلسة هي الطريق الأمثل للفوز بمكانة ما في شركة شندلر، وسكة التميُّز هي مسح الجوخ، أو حتى الحذاء، والروقان والزقططة في الحصول على الجنيه، فالجنيه أندر من الكبريت الأحمر، والعمال يسعون للقرش بهمة أكثر من سعي الحجاج بين الصفا والمروة. وتزويق الكلام أفضل بكثير من اتِّباع قوانين أعمال الصيانة المرهقة دائمًا والمُذلة غالبًا.

وعبدالله عبدالغفار كان فلاحًا من عزبة النخل، أيام ما كان فيها نخل، لا يستطيع التخلص من آثار الكسرة الملازمة له في كل كلامه، أو بعض جلافة إن لم تظهر في كلماته فتظهر في أفعاله المستفزة. كأن يتمسك بشيء يخصُّك حتى ولو كان تافهًا، فيساومك بنكتة بايتة على ميدالية مفاتيح بلاستيك، أو يحكي لك حكاية مملة حتى تنسى في يده نوتة تليفون أو إمساكية رمضان. وأحيانًا يكلف خاطره ويفاتحك في الاحتفاظ بخلة أسنان مستعملة كانت بين أصابعك، يتمسُّك بها تمسُّك الغريق بالقشة، ومن استفزازاته أيضًا كانت ضحكته، تخرج مفتعلة وكأنه لو لم يفعلها فسينال عقابًا، خشنة ومتقطعة، كشحير منشار صدئ. لم يدخن عبدالله سيجارة قطُّ من حر ماله، ولكن كل سجائره شحاتة، أحيانًا يعزم عليه زميل. وغالبًا يتطفل هو بطلبها، أو يدس يده في جيبه عنوة ويسحب واحدة كليوباترا ويعفرها.

كانت ملابسه تميزه من بين ألف واحد، فدائمًا بدلة شُغل بُنيّة، مبقَّعة ومكرمشة، صباغتها متدرِّجة وباهتة، الفاتح بلون الطحينة، والوسط بلون صدأ الحديد، أما الغامق فيها فهو طيني الدرجة والوسخ، مقاسها واسع

جدًّا، يسقط بنطلونها كل خطوتين، يرفعه ولا يمل من تكرار ذلك، أو يربطه بالحزام المشهور في الشركة، ماركة السلك الواحد مللي. وملابسه لا تصلح لأن يستخدمها أحد غيره، ولو بعد حين، فالبنطلون تاه لونه ما بين بَهتان ورُقع، مشمور ومربوط عند الكمر ومكشكش، والقميص كل زرار من لون وياقته اشتكت من كثرة تغيير وجهتها فضاعت معالم سيرتها الأولى، طرفاها مهدلان وتبرز منها شراشيب كالكنافة، وظهر قميصه منحولاً وفي رقة قطعة شاش من عند الكتفين، وحذاؤه بيادة ميري تلاطم الحديد، وتُظهر بِكبرها جسده النحيل كرسوم الكاريكاتير.

وعبدالله لا يشغله في طول الشركة وعرضها سوى يوم خروجه على المعاش، وكل الأيام بعد ذلك تمر كمعبر فقط لذلك اليوم، باقٍ على بلوغ معاشه أكثر من ثلاث سنوات. ولكنه يعد له ويرتب من الآن، وكأنه سيخرج من الخدمة غدًا أو بعد غد، يجهز العدة التي سيسلمها في يومه المشهود، يشتري «زرادية نصف عمر، أو شنيور موتوره محروق، كوريك، قصافة، مفك صليبة، مفتاح شوكة، مفتاحًا مثلثًا، طقم مفاتيح بلديًا، وآخر مشرشرًا، ثلاثة مفكات مِشَكِّلَة، صاروخًا». يحلم بتجميع عهدته المدونة في الورقة، يشتريها أو يشحتها قطعة من هنا على قطعة من هناك، حتى لو اضطره ذلك لأن يذهب لسوق الجمعة، يحتفظ في جيب بدلته البُنية دائمًا بورقة باشت من كثرة البص فيها وتأمل سطورها، خانات مقسمة لمتعلقات وإمضاءات بطول الصفحة:

«حسابات المصانع. المخازن. الذمة المالية. السكرتارية العامة. المحفوظات. الخدمة الإدارية. الشئون القانونية. مديونيات أخرى».

وما يُصبِّر عبدالله على بلاوي الشركة وقرفها ومرتبها البائس أنه يحلم ببناء بيت مِلك، تحقق حلم عمره بعد قرابة عشرين عامًا، طويت أيامه الطويلة لتوصله سالمًا ينام ويشخر فوق سطح بيته الملك، عشر سنوات تسديد في أقساط قطعة أرض ستين مترًا، وعشر سنوات أخرى ما بين سلفيات وجمعيات لتأسيس السملات وإقامة العمدان وتشييد المباني ودهانها بالأخضر الفاقع. لم ينس أن يطلب من البناء كتابة (الله أكبر) بالطوب الحراري الوردي عند أعلى صف في الدور الأرضي.

كانت الشركات الناشئة في مهنة تركيب وإصلاح وصيانة المصاعد قد بدأت في التكاثر منذ بداية التسعينيات، بعض مكاتب لا تخرج عن كونها غرفتين وصالة في إحدى عمارات وسط البلد، تعلق لافتة إعلانية مضيئة مكتوبًا عليها شركة كذا للمصاعد، ظهرت في السوق شركات كثيرة أغلبها بأسماء أجنبية ذات اسم واحد، وكانت مثل هذه الشركات تلهف الشغل من الشركة الأم عيني عينك، ولا تتردد في سحب منشآت مهمة مثل الجهاز المركزي للإحصاء، أو الجهاز المركزي للمحاسبات، أو الصالة المغطاة، أو استاد القاهرة.

وكانت الشركة قد تحولت لأسد عجوز أمام الشركات الأخرى، فقسم التركيبات لا يلتزم بمواعيد، وقسم الإصلاح يُرسل جنوده المتكاسلين بعد خراب مالطة، والصيانة تتم بطريقة عتيقة لا تخرج عن خطوط مرسومة منذ عقود طويلة، يخرج العمال كقطيع كل صباح، يُلَحْوسون عمدان المصاعد بالجاز والزيت ويصعدون بالكابينة وينزلون عدة مرات، والواحد منهم

رابض فوق سقف المصعد كقرد مختبئ فوق شجرة، وبعد أن ينهي عمله الصوري يبرز كارت الصيانة في وجه البواب ليفوز بإمضائه الكريم.

وكان من الطبيعي أن تصبح شركة يخلو نظامها الوظيفي من أي تشجيع على الإبداع عرضة للاختراق من قِبل أشد المنافسين تواضعًا، فتسحب المنشآت الهامة عقود صيانتها من الشركة؛ ويكون ذلك مقدمة لسحب عقود التركيب والإصلاح وإعطائها لشركات لم تكمل في سوق العمل عامًا أو عامين.

ولأن الحاج قنديل يعرف ذلك جيدًا فقد وجه تعليماته في الفترة الأخيرة إلى إرضاء العميل، والذي كان لسان حاله يقول للعمال «هاود الزبون» فيسمم أبدّان العمال كل صباح:

«أوعوا تزعّلوا حد، ربنا يرضى عليكم، العملية مش ناقصة».

ولأن عبدالله عبدالغفار كان جلفًا في تعاملاته؛ ولأنه مرتين في الأسبوع لابد أن يخرج من أي عقار وهو عامل مصيبة، ولأن أقرب كلمة يقولها عبدالله «معلهش» حتى لو تسبب في إصابة أحد زملائه بعاهة مستديمة - فقد أقصاه الحاج من خدمة الصيانة وأبقاه بجواره؛ لأنه مهما ارتكب من مصائب فهو باقٍ، ونقل جبل المقطم أهون من زحزحة موظف حكومة بلغ من العمر أرذله في الخدمة. وهذه الفكرة كانت أكثر ما يستند إليه العمال، فماذا سيحدث له لو ارتكب بلوَى؟ سينتقل من قسم لقسم. سيوقَّع عليه جزاء ما. سيوبخ ويبكته أحد رؤسائه. لكنه راسخ كالأهرامات، ورفده منها أهون منه ذهابه إلى القبر.

وعبـدالله ارتكب مخالفات كثيرة، بعضها بقصـد وبعضها بغباء، فالقصد مثلاً أن يلفع على كتفه سلكًا مستعملاً تم فكه من عمارة، يعبئه في شنطة كبيرة أو شـيكارة، وفي منطقة نائية يقوم بحرقه، ويجلس بجواره يدخن سـيجارة، يعفر الدخان الفضي من فمه وبجواره دخان آخر أسود يشبه حرق بئر بترول، وبعد أن تصفى النار وتسـيح قشـور السلك الملونة كاشـفة معدنه النحاسي؛ يجمعـه عبـدالله بعد أن يصب فوقـه الماء ليبرد ويذهب فيبيعـه في وكالة البلح بالكيلو، ومن فلوس الصفقة يشـتري ملابـس للعيـال وقميصين لأمهـم، أو يحوِّد على أي جمعية ويشتري فراخًا مجمدة أو أسماكًا مثلجة.

أما مخالفاته التي تسـبب فيها الغباء فكانت ستنهي حياة أحد السكان في يوم أغبر. كان الرجل عريسًا لم يكمل شهر العسل، وأثناء ما كان عبدالله يقوم بالصيانة أراد العريس أن يطلع غسالة أتوماتيك للدور الحادي عشر، فرفض عبدالله:

- **ممنوع يا سـعادة البيه. دا مش أسانسـير عفـش. متودينيش في داهية الله لا يسيئك.**

ولما غمزه سـعادة البيه ودس في كفه عشرة جنيهات تنحنح عبدالله، وقال بعد أن تبدلت ملامح وجهه بسرعة:

- **أوام بس عشان لسه عندي شغل كتير.**

رفـع الرجل الغسـالة بكرتونتها، وضعها ومكَّنها جيـدًا، وقبل أن يدخل لصندوق المصعد لطش كفه زر الطلوع فيما كان رأسه وجذعه فقط بالداخل. أما مؤخرته وقدماه فكانت لا تزال تشم الهواء بالخارج، ولأن عبدالله كان قد وصَّل فردة سلك سِرية على كل الكوالين. فأصبح وجود جميع الأبواب مثل

عدمها، تحرك المصعد بنصف الرجل، ارتفعت قدماه عن الأرض، رفرفتا في الفراغ، رفستا دون أن تطولا أي مركز. ولستر ربنا - هكذا قال عبدالله بعد أن هدأت نفسه- أن يد العريس ذاتها التي لطشت زر الصعود، مرت بسبب اللبخة والتهبيش على زر STOP فتوقف المصعد بعد أن ارتفع عن الأرض حوالي متر ونصف، عبدالله أخذه الذهول والرجل متعلق في فم المصعد يصارع مصيره المحتوم مع الحوت الحديدي، انزلق العريس ورست رحلته على الأرض بعد أن كاد يُشطر لنصفين.

وكل عامل في الصيانة له شيء يفخر به دائمًا، فمنهم من سلَّم على محمد عبدالوهاب، ومنهم من قالت له الست أم كلثوم: الله ينور عليك. ومنهم من شخط فيه فريد شوقي، ولكن أغرب ما كان يفخر به عبدالله أنه تسبب في كسر ساق ليلى علوي.

أضف لذلك تصرفات شاذة غريبة أخرى اشتكى منها العملاء؛ كأن يبصق على درابزين السلم وهو نازل، ثم يقف يتابع من بعيد بلذة غريبة من يتقززون عندما تلمس كفوفهم الدرابزين المقرف، أو "يترتر" في منور عمارة راقية وهو يغني بصوت أجش وبشع لا يجلب إلا حلقات الذباب.

لتلك الأسباب كان الحاج قنديل يفضل ألا يخرج عبدالله في أعمال صيانة، واكتفى فقط بأن يجعله يوزع التموين على العمال، فكانت طبيعة عمله لا تتطلب بأي حال أكثر من ساعة واحدة، من التاسعة صباحًا حتى العاشرة، يجلس أمام برميلين نائمين على حامل حديدي ومائلين للأمام، وأمام كل برميل نصف برميل آخر مشقوق بالطول ليتلقى ما يقع من زيت أو جاز، يبرش عبدالله

مفرشـحًا رجليه وكأنه أمام طشـت غسـيل، يضع لفة أسـطبة في فوهة البرميل ليغلقـه بعـد تعبئة زجاجـة أو جركـن لأحد العـمال، ويجذبها لـو أراد أن يحلب السـائل الأخضر اللزج مـن أحد البرميلين، يعبئ لكل عامـل لترًا أو نصف لتر من الزيت، وجركنًا أو نصف جركن جاز، وعلبة أو لحسة شحم.

لم يكـن عـدد المصاعد هـو المحدد لكميـة الزيـت والجاز والشـحم التي يتسلمها العامل من عبدالله قبل الخروج للصيانة، ولكن ما يحددها هو تناحته ووقوفـه يلابـط عبـدالله حتى يفـوز بأكثر كمية ممكنـة من التمويـن ولفائف الأسـطبة، كانت التعليـمات من الحاج أن يخرج جميع العـمال بأقل القليل من محتويـات البراميل، وسـيكفي بإذن الله (كان الحاج شـبه متأكد من أن بعض العـمال يبيعون الزيت لمحطات الوقود القريبـة بنصف الثمن)، وكان عبدالله يجد تلذذًا في فرض سيطرته على كل من يساومه في أخذ كمية أكثر.

بعـد أن يخـرج جميـع العـمال يتمحلس عبـدالله للحـاج قنديـل، يعمل له الشـاي، يجيب له السجائر البلومنت التي يعزم بها على ضيوفه ويعلقها عيرة بين شـفتيه، يمثل أنه يسـلك الحوض أو يربط حنفية أو يعدل وضعية شطافة في دورة الميـاه، أو يقرفـص أمـام قدمي الحاج كامرأة تخـدم زوجها. وبعد أن يعتقـد أنه فعل ما عليه يرسـم ابتسـامة عريضة، تقف وسـطًا بين الابتسـامة والضحكة، وقبل أن تعود قسماته لسيرتها الأولى يقول:

- **طيب يا حاج. كُله كده تمام. حتعوز مني أنا بقى حاجة دلوقتي؟**

لا يرد الحاج، ولكنه يشـيح له بأن «يقش الحتة»؛ فيمسـك عبدالله بمقشة بلـح أطول منه ويجعل مدخل المركز يبرق، ثم يملأ شـنطة بلاسـتيك بالمياه،

يطعنها بالمفك في عدة مواضع، يتدفق الماء من الثقوب الكثيرة، يمر بها لتخر حمولتها حول الحاج قنديل.

ينصرف عبدالله بعد انتهاء توزيع مشتقات البترول على العمال، يخرج بالأسمال التي يسميها هدوم الشغل، يذهب لوجهته، موقف سيارات ملاكي أمام بنك مصر في شارع محمد فريد، يقوم بمساعدة تبَّاع بلدياته، يعمل هناك طوال اليوم، يطوِّق عبدالله السيارات المركونة جميعًا بقطعة أسطبة «مزفرة»، فتجعل زجاج وصاج السيارات يبرق كما لو كان خارجًا في التو من «الأچنس»، ينفحه الرجل بلدياته حتة بخمسة تناسب نصف ساعة شُغل، فيكمل عبدالله مشواره متوغلاً في اتجاه شارع شريف، ثم يحرد الطريق لشارع سليمان باشا، عند مقهى «ألف ليلة» يقف، يعرف عمله جيدًا، على نصبة الشاي تكون هناك أعمال محددة وسريعة في انتظاره كل صباح، يُسلِّك لَى الشّيش بسلكة صلب رفيعة، يرص حجارة المعسل في مربعات خشبية سوداء تشبعت برائحة الدخان، يبدر النشارة على بلاط الأرضية ثم يكنسها، يرص كراسي الجلوس في أماكنها حول المناضد المستديرة ويرمي فوقها مفارش ساتان مشرشرة، يجلس بعد عمل يستغرق حوالي ساعتين ليشرب الشاي والمعسل بمزاج وكأنه زبون (كان ينتشي بشدة من إحساسه بأنه زبون)، وقبل أن يمضي لحاله ينفحه مسئول الوردية حتة أخرى بخمسة جنيهات، ينصرف عبدالله ويكمل بعد ذلك طريقه لوسط البلد. يقف أمام عربة كارو صغيرة في حجم كنبة، يتقدمها حمار أعجف تبان عظامه وتكاد تخرق جلده، يرصها صاحبها بتلال من حزم البرسيم، كميات عالية لا تتناسب مع حجم العربة، يقف بجوارها رجل تربطه بحماره بعض العلاقات، فهو جلد على عظم مثله،

وهو أيضًا صامت لا يتكلم مثله، كان منظر البرسيم غريبًا والرجل يقف عند ناصية تقاطع شارع 26 يوليو مع شارع فؤاد، يبيع البرسيم للعربجية السرّيحة من مشتري وبائعي الروبابيكيا ليعلفوا حميرهم التي تلف وتطرقع بحدواتها على أسفلت شوارع وسط البلد طوال النهار، ويبيعه أيضًا لزوجات بعض البوابين، فوق أسطح العقارات التي يعملون فيها يربون الطيور، أو يربطون في بدرومها خروفًا أو عنزة عُشرًا.

يعرف بائع البرسيم طلب عبدالله فيجهزه له في شيكارة كبيرة، عشرون حزمة برسيم، يفك عبدالله السلكة التي تمنع بنطلونه من السقوط، يدب يده بالداخل، تغوص ذراعه وكأنه سيقبض على برغوث يتجول فوق ركبته، يظهر جزء صغير من بنطلون بيچامة مقلمة، يُخرج من جيب لباسه البفتة زجاجة كولونيا من الحجم الكبير، لكن ما بداخلها ليس بكولونيا، كانت تحتوي على حوالي ربع كيلو زيت فالفالينا، يرفعها «عزام» بائع البرسيم في الهواء ويميلها يمينًا ويسارًا ويتأمل سائلها اللزج وهو ينساب ببطء في اتجاه الجاذبية الأرضية ويقول:

- **جت في وقتها.**

يميل عزام على عجلات عربته غير المتساوية الأحجام ولا الأشكال، فالكاوتش منبعج من مكان ومفلطح ومقبب من مكان آخر، والتعاريج الخارجية المفترض أن تكون غائرة ممسوحة لا أثر لها. ينقّط من الزجاجة بحرص على الطنابير والرولمان بلي فيخف بالتزييت الأزيز والصفير، وتعالج انسيابية الزيت ونعومته النعير والشخللة، ويقول عبدالله وهو يستعد لرفع شيكارة البرسيم:

- **عيني الفارغ بقى عشان بعد يومين تلاتة أملاهولك تاني.**

بعد أن يوزع عزام محتويات الزجاجة بالتساوي على العجلات الأربع، يلقي بالفارغ في شبكة من الحبال الكتان الرفيعة، معلقة في مؤخرة عربته ومربوطة كأرجوحة تهتز من أقل حركة، يضع عزام فيها الزجاجة، فتستقر بين أشياء كثيرة ومتناثرة، بردعة، قرطاس طعمية مزيت يطل من فوهته قرصان، مكيال فئة خمسة كيلو، قُلة جافة بدون ماء، كفة ميزان، شنطة يد مفشوخة وطالع منها بعض أوراق متسخة، مجلة بلا غلاف، حصيرة بلاستيك صغيرة تآكلت وبانت منها خيوط كثيرة متشابكة وملفوفة على فردة حذاء مدفوس بداخلها ملعقتا طعام.

عبدالله يحاسب عزام بالشهر، برسيم قسط طوال ثلاثين يومًا، وأحيانًا يخمه في حزمة أو حزمتين. يلفع الشيكارة على كتفه الضامرة، يمر على مطعم في سكته، يمد بنصف جنيه يده، يسحب رغيفين ويطلب بالباقي طعمية، يدفس الرغيفين في جيب صدريته، ويحشر القرطاس بين حزم البرسيم، يسير بهمة حتى ميدان العتبة، ومن هناك يرميهم في أتوبيس 315، يضعهم غالبًا فوق الموتور أمام الكنبة الخلفية ويجلس فوقهم، يظل طوال الطريق يشاكس الكمساري، يتجادلان حول استحقاق تذكرة على الشيكارة التي يجب أن تُحسب «بنفر»، وعبدالله يقول وهو يخرج من جيبه بعد عناء ثمن تذكرة واحدة:

- **يا عم الحاج.. داحنا غلابة زي بعض وبناكل عيش.**

ويرد الكمساري بوابل قاسٍ من الكلام المنقي أهونه:

- **هيه تلاقيح جتت يا خينا؟**

لا يمـل عبدالله من الرد كلمة بكلمة وهـو تائه كالمنوَّم، وفي النهاية تنجح المنـاورة بالتلامة. يبتلع الحوار نصف الطريق، ويقضي عبدالله النصف الآخر نائـمًا، يتطوح رأسـه حـرًّا بلا مركز، يشـخر ويشرئب عنقه ثـم يتفتف ويملأ الزبد الشـق الصغير الموارب بين شـفتيه، ولأنه سـينزل آخر الخط؛ فيغط في النوم بمزاج، إشارته في النزول هي كلمة الكمساري الأبدية:

- المرج وآخر يافندية.

ينزل عبدالله تسبقه شيكارة البرسيم، يرميها أولاً من السلم الخلفي، وإذا ما كان الزحام على أشـده يضربها بالشـلوت فور نزوله، وقبل أن تتكوم على الأرض يحضنها ثم يرفعها على كتفه في حركة تنم عن رشـاقة، يسـير بها قرابة محطـة أخرى، ثم يرميها في سـيارة «مهكعة» وكأنها مذنـب يلف كعب داير، يُكمل وصلة النوم في مواصلة أشد عذابًا من الأتوبيس..

«عزبة النخل الجديدة.. العزبة البيضا يا فندية..».

ينـادي صبـي مهلهـل وكأنه خارج مـن قبر، ينغِّـم كلماته وتشـتد أحباله الصوتية وتظهر بوضوح وسط الضجيج والهرجلة، يده متسخة ووجهه قذر. يقفز عبدالله في صندوق سـيارة نصف نقل، كل ما فيها منتفخ ووارم، وكأنها تسـير منـذ قرن، لهـا خوصتان من الحديد وسـقف من الصاج، مشـدود على جنبيها قماش خيم فيه قطوعات أضعاف عدد الركاب، فيها دكتان خشـبيتان متقابلتـان، يجلـس عليها ضعف الحمولة، نسـاء ورجال وعيال مشـحونون كالبهائـم، يختلط الزعيق بالنداء بطلب دفع الأجرة بالشـخير بتزييق الدكتين المَخْلخَتـين، في كل مطـب ينقـر السـقف الصـاج رأس عبـدالله، ومن كثرة

التعـود لا يصحـو. يصل بعـد أن يتخدر جسـده تمامًا من كثرة الهـز والزغد والتطوح في كل الاتجاهات، يزيل أثر التنميل برش وجهه بكفيه من أول زير يقابله، يفرك عينه المحْمِرة بكلوة يده ثم يرمي سلامات عشوائية على كل من يقابلـه، لا يهتم بالرد. يدخل بيته المِلك المبنـي في منطقة زراعية نائية، امتدادًا لعزبـة النخل التي كانت يومًا نائية أيضًا. يرمي حمولته لمعزاته الثلاث، تلتهم المعزات نصف محتوى الشيكارة؛ فالأكل لا يأتيها إلا كل يومين.

يطلع للبراح وينسـى الدنيا، يتمدد على السـطح الخرسـانة في بيته الملك، بجوار القشاير الحديد يحلى التثاؤب والنوم، يفرد قرطِاس طعمية ويخرج من جيب الصديري رغيفين ويأكل، يلتهم محتوى القرطاس وينسـف الرغيفين، يرفع قُلة من على حافة السـور، يدفع ما بها من ماء لجوفه مرة واحدة وبدون راحة، يتكرع ملء فيه بصوت جهوري كنعير جاموسة أهلكها الشقاء.

مـن الحتـت أم خمسـات دخـل عبـدالله جمعيات كتـيرة، ومـن الجمعيات اشـترى الغنـم ورباها وباعها، ومن فلوس التجارة اشـترى حديد التسـليح والأسمنت والزلط ودفع رشاوى بالهبل لمهندسي الحي.

تمطع عبدالله في كسل ثم شب واقفًا، فوق السطح البراح، تبزغ «قشاير» الحديد المسلح أمامه كحصون، أو قلاع تحميه من غدر الزمن، الدور الأرضي خصصه كزريبة مؤقتة، ثلاث معزات إحداها سـتصبح ثلاثًا بعد أن أشرف على تعشيرها بنفسـه من «جدي» في البيت المجاور، نفح صاحبه خمسـة جنيهات حتة واحدة، ربنـا يطـرح فيهـم البركة ويجعلهم قطيعًا، وفي الدور الثـاني الذي ينام عبدالله على سطحه سَيبْني شقة لـ «محروس» ابنه البكري بعد آخر سنة له في الدبلوم.

لكن يبدو أن الرياح أبدًا لن تتعاطف مع السفن، فقد سمع عبدالله طَرْقًا شديدًا على البوابة الحديدية بالخارج، قام مفزوعًا يفرك عينه التي أصبحت حمراء كالدم، أول ما فتح البوابة انهمروا للداخل، كائنات فزعة ومتوترة. سأله أحدهم:

- **انت عبدالله عبدالغفار علوان؟**

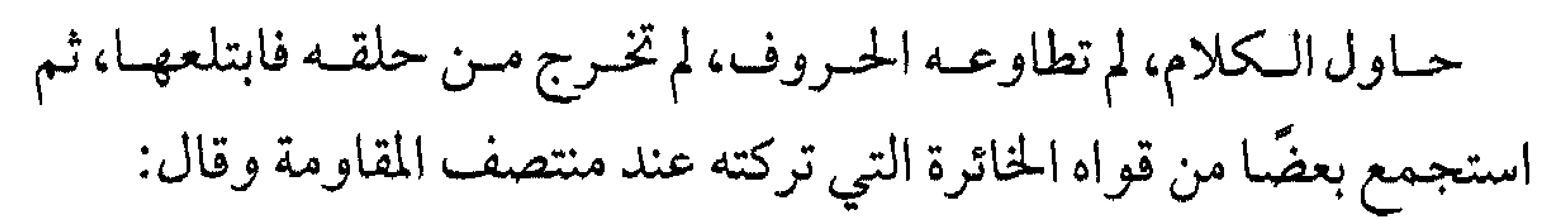
فانكمش عبدالله انكماشًا إضافيًا. رد وهو ينظر لغنماته التي تأكل البرسيم في طمأنينة وتؤدة:

- **أيوه سعادتك. أنا حضرتك. ليه. هوّ فيه حاجة جنابك؟**

أشار السائل لرجاله فهجموا بالهراوات وتبعهم بعض عمال ضخام يلبسون الجلاليب ويمسكون في أيديهم مرزبات تزن الواحدة أكثر من عشرة كيلوجرامات. انتشروا في أرجاء البيت كالجراد، بعد أول خبطة على الطوب ووقوع قالب واحد دب فيهم النشاط كالحمى، استمروا يحطمون باقي الجدران، ويهوون على العمدان بهمة غريبة ولذة. وقف عبدالله واجمًا، متخشبًا، توقف جريان الدم في عروقه، ابيضت بشرته كميت، لا دليل على وجود حياة فيه إلا خط سائل تسرسب من أعلى بنطلونه إلى أسفله، انتهى السرسوب داخل بيادته، لم يشعر إلا بدفء في نصفه الأسفل وبرودة وتجمد في نصفه الأعلى. ألجمته الرهبة عندما أخرج له الرجل المفوّه قرار الإزالة ووضعه بالقرب من عينه:

- **وسّع بقى يا عم الحاج عشان ننفذ.**





حاول الكلام، لم تطاوعه الحروف، لم تخرج من حلقه فابتلعها، ثم استجمع بعضًا من قواه الخائرة التي تركته عند منتصف المقاومة وقال:

- **حاسب يا جدع. كُلّه إلا الطوب الحراري اللي مكتوب به الله أكبر.. كُلُّه إلا الله أكبر.**

محاولة خائبة لم تمنع الجراد أن ينتشر ويقوم بتنفيذ الأوامر. وكان أقسى تنفيذ يشهده عبدالله، ولولا الحياء لرقع بالصوت، ولولا خوفه الفطري لقتلهم جميعًا، ولولا ولولا...

لكنهم حكومة، وما يقدر على القدرة إلا ربنا، ابتعد وخرج، جيرانه يتفرجون عليه ويضحكون ضحكات رنانة، متتالية وعالية، لها صدى صوت تتبعه قهقهة تشق السماء، وهو يقف مذهولاً وضامرًا، ينكمش ويدخل في بدلته البنية حتى لا يرى الطوب الذي رصه بنفسه قالبًا قالبًا وهو يقع أمام عينيه قالبًا قالبًا:

- **حرمت يا رب. معتش حاخد زيت من الشغل تاني. ولا حتى حجيب برسيم من عزام. الحرام سكته بطالة وآخرته وحشة. يا رب. وحياة حبيبك النبي..**

عملية الهدم كانت أسرع مما تخيل عبدالله، أصبح بيته كومة تراب مساوية للأرض. ومعزاته الثلاث تقف أمامه تلوك الورق من الزبالة وتهز آذانها الرخوة لتُخلّصها من أثر الغبار. احتضن الرجل الذي أخرج له قرار الإزالة إحدى المعزات وهمَّ بالانصراف. فاستجمع عبدالله بعضًا من شجاعته وسحبه من كوعه:

- **إنت واخد المعزة ورايح على فين؟**

لم يرد الرجل فترك عبدالله كوعه وأمسك بقدمي العنزة وظل يجذبها حتى كادت تتفسخ وتترك بطنها للأبد:

- وحياة النبي مانت واخدها. مش كفاية هديتوا البيت. والله ما حتاخدها لو إدّنْت حتى. سيب أمال. سيب بقولك..

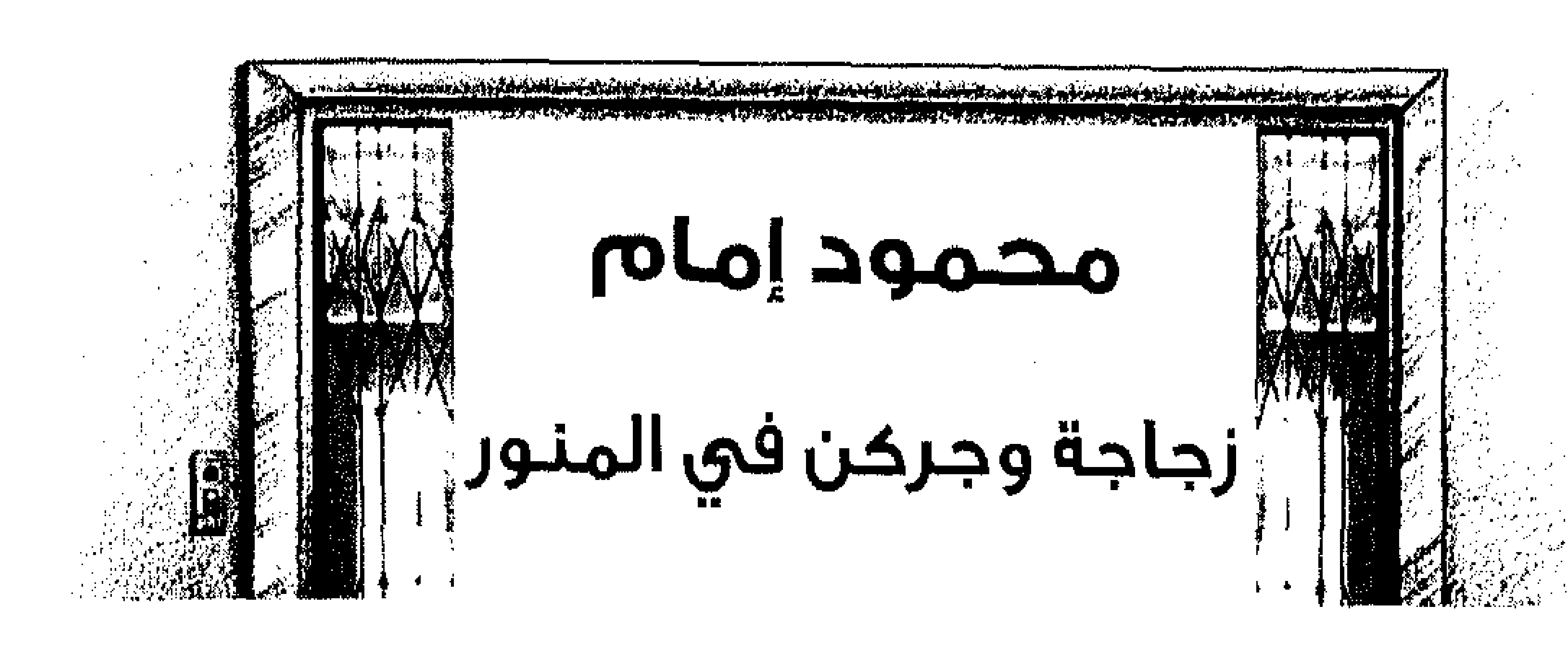
تمرغ عبدالله وهو يسحب قدمي العنزة، برم جسده المنكمش، لف لفتين فوق السطح، سحب ذراعيه من تحت رأسه، تمطع وخياله يتابع صورًا تتقافز أمامه وتطل عليه من ملكوت آخر.

سمع صوت معزاته تمأمئ بالأسفل، فقام من فوق السطح يجري في اتجاهها ثم توقف على السلم، سرح وهو يحك بأظافره وجهه، ويملس على شعره ويعبث في شنبه، ويبتسم ابتسامة ساذجة.

حلم سخيف، الحمد لله، القشاير الحديد كما هي. والبيت قائم يشق طريقه للسماء. والطوب الحراري المكتوب به الله أكبر لايزال يضيء ناصية البيت.

بعد يومين كان عبدالله يدب يده في لباسه ويخرجها بزجاجة الكولونيا، والتي لم تكن تحتوي على كولونيا. قدمها لعزام، فناوله عزام شيكارة البرسيم، لفعها عبدالله وتمشى حتى ميدان العتبة ورماها في أتوبيس 315، أمام الكنبة الورانية جلس بجوارها وأسند كوعه فوقها ونام، أيقظه الكمساري وأخذا يتجادلان حول أحقية قطع تذكرة للشيكارة، وعبدالله يمانع ويقول بتمسكن واستكانة:

- إيش حال لو مكُنّاش غلابة زي بعض وبناكل عيش يا عم الحاج.



محمود إمام

زجاجة وجركن في المنور

لم تقدم الشركة لمحمود كما قدم لها، فرجلاه دابتا وعلّمتا في كل شبر من شوارع وسط البلد، من شارع شريف إلى محمد فريد، ومن شارع عدلي إلى قصر النيل، ومن طلعت حرب إلى سليمان باشا. ولولاه لكانت بعض المصاعد قد انهارت وهوت بأصحابها في البئر حدف، فلو انتظر أصحاب العقارات المقايسات التي تنفذها إدارة الشركة بطريقتها التقليدية التي انقرضت منذ عهود لكان العوض على الله في المصاعد والسكان والصنعة كلها.

والمصعد بالنسبة لمحمود لم يكن صندوقًا من صاج وإضاءة ومفاتيح صعود أو هبوط، لكنه كان حياة كاملة يعيش فيها الناس، يبدءون فيه قصص حب ربما تصبح ذكرى عابرة، وربما تنتهي بزواج أو تدبيسة في علاقة منحرفة، وتُقام في المصعد أيضًا مناقشات لا تكل عن السياسة، وحوارات لا تنتهي عن النساء، وتُعقد فيه كذلك صفقات صغيرة لشراء موبايل أو بيع ساعة يد، وأحيانًا يصبح المصعد مكانًا للأكل والشرب، وأحيانًا أخرى للتبول أو الاستمناء.

كان محمود يغيّر ما يستطيع من قطع غيار بسيطة دون الرجوع للشركة، ريشة كونتاكت انقصفت، كالون باب قفش سَكّاكُه أو ساح غطاؤه الفبر،

جنزير باب علَّق، طلمبة سقف تحتاج لتزييت، يغيِّر لمبة كابينة احترقت، يربط «استارتر» فك من قاعدته. بعد مدة من تكرار مثل هذه المقايسات البسيطة التي لا تتعدى أكبرها قيمة خمسين جنيهًا، تسحبت يد محمود وتجرأ على مقايسات أكبر وأغلى، فصار يتكلم في تغيير قنالتكس أرضية، ثم تبجح قليلاً وأخذ مقاولة تغيير مفاتيح جميع الأدوار، ثم مبيِّن الأرقام المضيء.

العملية راجت وعرفت الفلوس طريقها لجيوب محمود. وبرغم البحبوحة في الرزق وبرغم بلوغه الأربعين فإنه لم يتزوج.

في أيام العمل، يخرج من مركز الصيانة بشبشب زنوبة وملابس شغل لم تشم الصابون منذ شهر، عرقانة وملبدة من الأملاح، يحمل شنطة التموين على ظهره كالمشنوقة، يشق طريقه من شارع جواد حسني حتى ميدان رمسيس مشيًا، ورغم قشيته المعدن فإنه لا يفرط في قرش إلا بخلع الضرس، ولا يمكن أن يأخذ منه أحد مليـمًا، لا يُقرض ولا يقترض من أحد، صامت أغلب الوقت، يأكل ساندويتش أو يشرب الشاي وحده، يستمع للبوابين أو يتأمل النساء القاطنات في سكون، أحيانًا يضفي عليه صمته مسحة من غموض، وربما تجنب الآخرون مجالسته، لا يلعب الدومينو على قهوة بدير كأغلب عمال الصيانة، ولا يجلس في تجمعاتهم، ولكنه يسحب كرسيًّا ويجلس خارج القهوة، يشرب الشيشة أحيانًا ولكن بشكل غير منتظم، وبعد أن نبهه بدير مرارًا «ممنوع الرص لصاحبه» أصبح يطلب كرسيًّا واحدًا كل صباح، يشربه ويمضي لحاله. ولكن ما دام كسيبًا فأين ينفق ما يكسب؟

غرفته بمنافعها في الدويقة كانت عبارة عن مجلة فنية كبيرة، تركها على

المحارة، لم يدهنها لكنه غطاها بصور لمشاهير الفنانات، مصريات وعربيات، وصور محدودة لأجنبيات، يرصهنَّ في طابور صغير بجوار بعضهن كالواقفات لكي تُلتقط لهن صورة للذكرى في فصل مدرسي، كان يلطعهن على باب غرفة النوم من الأمام والخلف. وأحلاهن يكون موقعها محجوزًا بالطبع في وِش السرير مباشرة.

لم يكن محمود يهتم بزيادة عدد العملاء أو نقصانهم، فكل ما يتمناه أن يمر اليوم بسلام، ليأتي من بعده يوم آخر، وتنفرط باقي حبات العقد كما انفرطت أربعون حبة وطُويت، أما العمال المتكالبون على لم الفلوس فهم من وجهة نظره مجانين، لا ينقصهم سوى يافطة تعلن ذلك، فالسور موجود، والبوابة موجودة، والتصرفات الغريبة أكثر من الهم على القلب. ففي شركة شندلر يحلف معظم العملاء بالطلاق أنهم لن يتعاملوا مع الشركة مرتين، وكأنها جحر، أو شق ثعبان لدغوا منه، فمن يجرب التعامل مرة يكتفي بشرف التجربة، وكان لهم في ذلك الحق لأسباب كثيرة:

بعض البضاعة التي تورد للعقارات لا بد أن يسقط عليها المطر وتزحف عليها مياه المجاري وتشرف على الهلاك قبل أن تمسَّها في التركيب يد. وذلك بسبب تضارب أذونات التوريد بين الإدارة وقسم الصيانة. ويمكننا أن نضيف أن المصعد أحيانًا يتعطل أيامًا وأسابيع وربما شهورًا بسبب قطعة غيار هايفة لا تساوي عشرة جنيهات. ويجعل ذلك بالطبع أغلب السكان يلعنون اليوم الذي سلموا فيه ذقونهم للشركة وكتبوا فيه العقود.

وقد كانت الشركة تحدد أسعارًا فلكية للعملاء، فما يتم تركيبه بألف



يسألون عنه ويعرفون أنه لا يتعدى مائة وخمسين، وما ينجزونه في أسبوع لا يستغرق في الحقيقة سوى ساعتين.

شجعت مثل هذه الصورة السيئة بعض العمال - وخاصة في قسم الصيانة- على تركيب ما يتلف من قطع غيار بديلاً عن الشركة، فاضطرت الإدارة لتوقيع الجزاء على أي عامل لا يكتب في تقريره الشهري مقايسات، أي مقايسات، حتى ولو لم تكن قطعة الغيار المذكورة تالفة، حتى ولو كانت محطوطة منذ شهر فقط، وما على العامل سوى خط بعض الخربشات على ظهر كارت الصيانة بالمطلوب، تغيير حبال، تجليد كابينة، تبديل كوالين، تركيب باب داخلي، إسدال ضفيرة كهرباء مُحسَّنة، توصيل كابل مرن جديد، تغيير مبيِّن أدوار مضيء، طلب «كوندينسر»، أو احتياج «سيلِّكتور»، أو تبديل «ديكتفاير»أو ربط كبَّاش كهربة ثلاثة فاز بعدما يتلف القديم.

ولا يحتاج تنفيذ مثل هذه المقايسات إلا كتابة تقارير سريعة على ظهر الكارت، جُمل تبدأ غالبًا بكلمات مثل:

«لا يصلح.. متهالك.. لا يقوى على تحمُّل التيار.. سوء استعمال.. ضعيف الكفاءة....».

تتحرك بعد ذلك قافلة من مجموعة إداريين يجيدون الكلام الناعم مع العملاء، كأن يبدأ أحدهم مخاطبة رئيس اتحاد الملاك بأقوال من نوعية:

«حرصًا على سلامة».

«أخطر شيء في الأسانسير».

«لا بد وفي أسرع وقت».

«لازم والنهارده قبل بكره ودلوقتي قبل كمان شوية».

يتابع العميل الكلمات بهلع، ولا يجد بديلاً عن الموافقة وبالتالي إقناع السكان بالدفع، ومن فرط رعبه يأمر البواب بعدم تشغيل المصعد قبل تنفيذ المقايسة. وكان يساعد الشركة في تسهيل مثل تلك المهمات مشاهدة الناس لأفلام أجنبية متقنة عن عالم المصاعد، تُعرض في برامج مثل نادي السينما على القناة الأولى أو أوسكار على القناة الثانية، تحكي غالبًا عن شخص شرير يقطع أحبال مصعد في بناية شاهقة فتسقط الكابينة بركابها في الفراغ، ترتطم بقوة حجر سقط من السماء. وفي الغالب يتم إعادة تصوير هذه المشاهد من زوايا متعددة بشكل مثير. ربما كانت مثل هذه الأفلام شيّقة وتجمع إيرادات ضخمة، لكنها في الواقع كانت أفلامًا خيالية ولا علاقة لها بالواقع. فإذا ما حدث وتقطعت جميع الأحبال التي تحمل المصعد فلن يحدث شيء، اللهم إلا بعض رجرجات خفيفة كتلك التي تحدث في مترو الأنفاق عند بداية تحركه من المحطة، وذلك لوجود أنظمة أمان جبارة في أكثر المصاعد تواضعًا، حتى ولو كان مصعدًا للحيوانات. فعندما تتغير سرعة المصعد عن السرعة المعتادة يقوم نظام مكابح رباعي بكلبشة الكابينة في العمودين المحددين لخط السير، وبذلك لا يمكن أبدًا أن تهوي في الفراغ كما يحدث في الأفلام الأجنبية التي لا تبحث عن الدقة بقدر ما تبحث عن الإثارة[1].

---

(1) وحتى الفيلم العربي «بين السما والأرض» لم يكن دقيقًا في عرض الحقائق على المشاهدين، لكن المخرج فضّل الإثارة على تحري الدقة، فلا يوجد مصعد في العالم أجمع ينقب رجال المطافئ الجدران من حوله

لهذه الأسباب أو لمعظمها كان محمود يبدل قطع الغيار بنفس مطمئنة وراضية، ولا يطلب سوى ضعف ثمن ما يُركِّبه فقط، فالقطعة أم خمسين تركب بمئة، وأم مئة تركب بمئتين، وهكذا.

ومحمود الذي لا يختلف منظره العام وهو خارج من مركز الصيانة عن المتسولين بالمباخر، أو المجاذيب الذين تنفَلِت الشعيرات الدقيقة لأمخاخهم، وينامون في الميادين يطلبون سيجارة من المارة، نفس هذا المحمود يتحول بقدرة قادر إلى شخص آخر تمامًا في المساء، يتبدل ملبسه المستدعي للشفقة بآخر يجذب الأنظار ويستدعي الانبهار، كممثل يبدِّل ملابسه بعد انتهاء المسرحية، يلبس جاكيت جلد أسود وقيِّمًا، وبنطلون كشمير إنجليزيًّا، وحذاء فنلنديًّا يشتريه في علبة خشبية تساوي وحدها ثمن حذاء عادي، يصفف شعره بطريقة قديمة لكنها جذابة، لا تليق عليه كلمة «تغيَّر» بقدر ما تليق كلمة «تحوَّل» ليس من حيث المظهر فقط، لكنه يصبح شخصًا آخر، يدفع «التبس»، ويبتسم في وجوه الباعة وينفض الذل الذي يلاقيه في عمله بمهنة صيانة المصاعد على يد البوابين وملاك العقارات.

محمود إمام، مدمن حضور الحفلة الأولى من العرض الأول لأي فيلم يشك أنه مثير، تتلاطم فيه العواطف بالجنس برغبات المخرجين الغامضة

ليُخرجوا منه الركاب وكأنهم في منجم تهدمت فوقه الأحجار! ولكن عمليات الإنقاذ تكمن في حل بسيط جدًّا، وهو فتح ذراع الفرملة في منتصف الموتور، فينزلق المصعد في اتجاه الوزن الأثقل، صعودًا أو هبوطًا، وبذلك يمكنه الوقوف أمام أقرب باب ويمكن للناس الخروج بسهولة.

في الدقة والإجادة أثناء تصوير المشاهد الساخنة، السلم الخلفي، الحب تحت المطر، درب الهوى[1].

في عام 1981، يوم إجازة 6 أكتوبر انتهز محمود الفرصة، سيرتاح من هموم الصيانة ومن شبح عمدان المصاعد وسِحَن البوابين. وقف أمام سينما كايرو ليقطع تذكرة لفيلم حمام الملاطيلي، صورة البطلة الجميلة بالحجم فوق الطبيعي، والشعر سايح يقطر عطرًا على المعجبين وهي راقدة ونائمة على جنبها، تنقط فتافيت جمر صغير ملتهب فوق أدمغة الناس. خمسة وثلاثون قرشًا ثمن التذكرة، وشلن للواقف بكرش على الباب وهو يقبض على كشاف صغير، تتبقى ستون قرشًا، بعد الفيلم يشتري أربعة ساندويتشات من مطعم آخر ساعة، ثم يحبس بواحد شاي وحجرين معسل تفاح، جنيه كامل، شغل يوم بحاله، لف على العمارات كعب داير، زيت وجاز وطلوع ونزول لغاية طلوع الروح، تناكة بوابين ورغي سكان، مرمطة في بئر المصعد وتذنيب فوق السطح، شمس لا ترحم في صيف ولا تطلع في شتاء، خطر السقوط من الأدوار العليا والرعب من الكهربة ثلاثية الفازات. كل ذلك يهون من أجل خفة دم نجمته المفضلة صاحبة الشهد الأنثوي الطاغي.

مد يده ليقطع التذكرة، أمامه في الطابور شخص آخر يمد يده أيضًا بثمن تذكرة، لكن موظف الشباك لم يأخذ منه النقود، تلفت حوله بارتباك ثم أغلق

(1) في مهرجان القاهرة السينمائي عام 1992 دخل محمود فيلمًا أجنبيًا بعنوان «نافذة على غرفة النوم» وبعد قطع التذكرة؛ اكتشف عند بداية العرض أنه فيلم كرتون مخصص للأطفال وأحداثه تدور حول نوم السلاحف.



الشباك بسرعة، وقبل أن يعترض محمود ويشخط في الموظف السخيف كان كل من هب ودب يجري من حوله، وقت وجيز مر وتحولت الساحة المزدحمة حول سينما كايرو لحالة هياج مستمر، تشغي بالناس والزعيق، جلبة تتصاعد وهرج دائري يشبه الزوبعة، دوامة واسعة ومحمود مركزها، ابتعد عن الطابور الذي انفرط ثم سأل أحد المارة:

- **هوَّ فيه إيه يا عم الحاج؟**

فرد الرجل وهو يهرول ويسحب في يده طفلاً صغيرًا:

- **بيقولوا السادات انضرب بالنار في العرض العسكري.**

لحق محمود بجزء من ذيل قميص الرجل فأمسكه منه وأردف:

- **طب وانت بتجري ليه؟**

فرد الرجل وكلماته تطير في الهواء متقطعة وغير واضحة:

- **مروَّح أشوف العيال. ممكن إسرائيل تضرب البلد في أي وقت. أومال يابا. ما هي بقت سايبة.**

لم يعد محمود لغرفته ذات المنافع، شق طريقه وخرَّم حتى سينما كريم التي كانت تعرض نفس الفيلم، موظف الشباك في كشكه الزجاجي لا يزال على مقعده، مؤكد لم يصله الخبر بعد، أحسن، فصورة نجمته النائمة فوق رأسه ستعطيه دفئًا كفيلاً بأن ينسيه أي خبر.

بعد أن شاهد الفيلم وانبسط من المشاهد التي تستحق خمسة وثلاثين جنيهًا وليس فقط خمسة وثلاثين قرشًا، خرج يتأمل الناس الذين قلَّ عددهم

بشكل ملحوظ، المطعم أغلق أبوابه، جلس على قهوة البورصة، طلب الشاي والمعسل بعد أن التهم صميطة ومعها بيضة وقطعتين جبنة نستو، لم يهتم بكل ما سيقال عما حدث للسادات.

حقق الفيلم جزءًا من رغبة محمود إمام، مشهد قُمع العسل الذي وضعته نجمته المفضلة بين شفايف بطل الفيلم الذي كان لا يزال وجهًا جديدًا لازق في خياله، يذوب فيشعل النار، يسحب نفسًا من الشيشة وقُمع العسل يطلع وينزل مع حلزونات الدخان التي تبعد وتتلاشى.

بعض تصرفات فقيرة تفضح محمود برغم هيئته الفخمة، إذ لم يكن في وسعه أن يركب «تاكسي»، فينتظر بمظهره الوقور أمام عمارة استراند بباب اللوق أتوبيسه الأحمر المشلول، فلا وسيلة توصله للغرفة أم منافعها بشلن غيره، يطلع الأتوبيس فلا يرى ركابًا ولا كمساري، فقط يرى نفس القُمع البني يطلع وينزل في الهواء، يستحوذ على أعلى نقطة من مزاجه وتركيزه، لا يهتم بمناقشات الكمساري مع الركاب، كانت مناقشة أخرى أهمُّ تدور بالداخل، بينه وبين نفسه، لا يراها أحد، لا يتجسس عليها أحد. محمود يسمع من حوله، ولكنه لا يركِّز معهم بوعي كامل، تتلاطم الأسئلة وتتداخل مع اجتهادات المتطوعين بالإجابة..

«مين دول اللي ضربوه؟.. اللون الأحمر غرَّق المنصة.. أحمر شفايف لف على راس القمع الطويل وقطمه بعد ما سيَّحه.. نسيت أشوف اسم المخرج.. محدش خرج سليم. مفيش غير أبو غزالة وعبدالأحد جمال الدين.. النائب حسني اتصاب.. كله اتصاب.. قميص نوم حلو ومحبوك لو اتحط على تلجاية

حتولع... القميص الواقي بيقولوا مكنش لابسه في العرض.. العرض كان جامد والناس بتصفر وقلوبها بتطلع دخان.. مشفناش غير ضرب نار ودخان وبعد كده قطعوا الإرسال.. الناس كلها عارفة إن فوق السرير مهم. المخرج قال للبطلة تاخد البطل وتنزل تحت السرير، تحت أهم.. كلهم استخبوا تحت الكراسي. أمال يابا. يا روح ما بعدك روح....».

- **فلماذا إذن لم يتزوج محمود حتى الآن؟**

سؤال وجيه جدًّا، لكن ما دام صاحبه لا يعرف له إجابة فلا ترهقوه بكثرة الإلحاح، يكفيه أنه يذهب بعد كل فيلم يشاهده على الشاشة الكبيرة، يتخلص فوق سريره من أعباء الرغبة، يخلع كل ما يستره، يطفئ الأنوار جميعًا عدا لمبة واحدة صغيرة وحمراء، ينام بين الجميلات اللاتي يزينَّ الجدران، يجمع أطياف نسائه الملصوقات على الحوائط في نظرة واحدة طويلة، فيقوم قِطاره من محطته منطلقًا وقويًّا، قادرًا على الوصول للهدف بنفس الصلابة، حيوان هائج وطير أخرس يتحسس أماكن تمدده ويتضاعف طوله في الخيال، تهيج الأرواح المختلطة الهائمة، تبدأ في إطلاق أدخنة شبورية تغيِّم على ما بقي له من وعي، يطير به عاليًا، لا يحط بسرعة، يستحث خياله أن يستمر في الطيران لأبعد نقطة، يخرج ما بداخله من جن، يرسو جِنُّه فوق صورة الممثلة الأجنبية التي لا يعرف اسمها، ولكن منظرها أعجبَه، فثبَّت وقفتها الباسمة وجمَّد زمنها فوق السرير، رشق لمبة حمراء صغيرة في منتصفها، بالأدق عند مفرق صدرها، بعد أن ينزل القطار ركابه ببطء؛ تتجول العفاريت الوليدة اللذيذة، تنزل بأحبال طيفية من أشعة اللمبة الحمراء الصغيرة، فيستعذب الوقت الذي يمر، ينز من

بين أصابعه، لا يدركه، لا يدري إن كان يعي سريره أم أن الحلم جعله يستسلم للكائنات الورقية التي يتلاقى عن طريقها بمخلوقات هجينة، لا هي بحلم ولا هي بيقظة، كأرجوحة يحملها هواء وتسيرها أمواج وتنضجها نار.

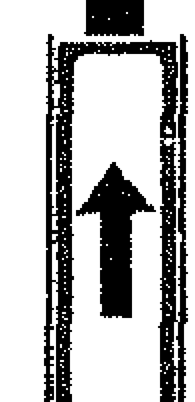
يصحو من غفوته يفرك الركاب فيصيرون ترابًا. ويعاود الكرَّة كلما نكشت هواجسه العفاريت، فما عليه سوى أن يطفئ الأنوار ويحضن في خياله من جاء عليها الدور، فهي لن تسأله عن وظيفة أو مرتب أو مظاهر فارغة. ينزع الصور ويعلق غيرها، يتماشى مع الموضة، وربنا لا يحرمه من نفحات «المزراب» الذي يمر عليه كلما كنس بئر المصعد، تمثل محتوياته بالنسبة له كنزًا. زجاجات خمور فارغة تسمح له بأن يتشممها وينوبه من قعرها قطرتان، يغسلها بعد ذلك ويضع فيها الماء ثم يرصها في باب الثلاجة، ينفحه «المزراب» أيضًا كابات وكاسكيتات رماها أصحابها لأن موضتها بطلت، أو لأن بها قطعًا لا يراه إلا صنايعي رفا، يكبسها محمود في رأسه فتحميه من الشمس أو المطر أثناء التجول في الشوارع الممتدة التي لا تنتهي، وكذلك يسحب من بين أكوام الزبالة في المزراب مجلات أجنبية ملونة، وهنا مربط الفرس، فالمجلات جديدة، ربما لم تُفتح ولم يفض غلافها المشمَّع، ماذا سيحدث لو أنه خلَّصها من بقايا الطعام وسلَّكها من أوراق الدشت المُكلفتة والمفعصة، جوهرة مرمية في كوم زبالة، مجلة أو مجلتان أو حتى عشرة، يضعها في كيس، ثم يرصها في شنطة عدة الصيانة، لا يسأله البواب، لا من شاف ولا من دري، يذهب للبيت ويفتح الكنز، يطل عليه بالنساء التي ما أنزل الله بحلاوتها من سلطان، وبعد أن يقص الصور بمقص يحتفظ به مخصوص لهذا الغرض، يحتنتف الصورة حتى

يزيـل عنها كل الزوائد، يـرص الوجوه الجميلة في كتاب كبـير كان ملقى أيضًا في مسـتقر المـزراب، مكتوب على غلافـه «دورة وزارة القـوى العاملة»، صور كثـيرة بالداخـل للوزير أحمد العـماوي، يلطع محمـود فوقها صدرًا ناهـدًا لفتاة سمراء تمسـك في إحدى يديها سيجارة نحيفة كشفاطة، وتشير بالأخرى لحمالة صـدر بالكاد تخفي الحلمتين، كانت الصور كلها عـن إعلانات، أزياء، أحذية، عفش بيت، أثاث مكتبي، نساء سوداوات أجسادهن الفارعة تحتل دائمًا المسافة الواقعـة بين حافـة الصفحة وآخرها، من الحذاء السـيور مثـل دوبار حتى أول الجيبونة، مسـافة شاسـعة وصلبة، شفافة وشـمعيَّة، كالعمدان التي تمنع السماء من الانطباق على الأرض، والأسنان بيضاء حليبية، صفوف كبيرة ومرصوصة من بقايا صور كثيرة، ربما تنفع لأغراض ليلية. يقص كل ما له علاقة بالنسـاء، والذي لا تحتاج اليوم لوشها بكره تحوجه الوحدة والعفاريت الهائمة لقفاها.

متعـة أخـرى يمارسـها محمـود فوق أسـقف المصاعـد، تسـاعده خفته ولماحتـه عـلى الانتهـاء منها في وقـت وجيز، ولكـن ربما يحتـاج ذلك أولاً لبعض الشرح.

بعض العمارات التي تتكون من طابقين أو ثلاثة في وسط البلد، تكون عادة مبـاني قديمة قِدم القاهـرة الخديوية، وحتـى منتصف القـرن العشرين، وهذه المبـاني لم تكـن تحتاج لمصعد من الأصل، فالسـلالم فسـيحة ومريحـة، ومدخل العمارة لو أضيف للمنور الواسـع والمسـاحات الجانبية فهـو يكفي لبناء عمارة مـن مبـاني هذه الأيام. ولكـن مع مرور السـنوات وتغير الشرائـح الاجتماعية التي أصبحت مالكة لتلك العقارات، تحوَّل بعضها لمكاتب سياحية وشركات

استيراد وتصدير، وجعلوا من البنايات ذات الأدوار الثلاثة؛ ثلاثة عشر دورًا، وأحيانًا كانت تتخطى ذلك بكثير، فمن أجل التوسع الرأسي ستحتاج مثل تلك البنايات لوجود مصعد، ولكن ما الحل وتلك العمارات غير مصممة أصلاً لتركيب ذلك القطار الصغير داخل أحشائها؟ كانت هناك عملية زرع مصعد تُجرى بمنتهى السهولة. يتم فيها استخدام المنْور كبئر مصعد، هكذا بمنتهى البساطة، يذهب مهندس من الشركة للعمارة ويخط مقايسة، ويبدأ عمال الميكانيكا في التنفيذ، بدءًا من تكسير السور الطوب في كل دور، مرورًا بإقامة سقالة لرفع العمدان وتركيب كابلات الكهربة والكابينة، وانتهاء بتركيب الأبواب بدلاً من السور المهدم ثم تسيير خط المصعد داخل البناية بالسلامة، وكانت لهذه الطريقة عيوب كثيرة، أهمها كتم منافذ التهوية والبجبحة في العمارة، ومن عيوبها أيضًا أن المنور به نوافذ المطابخ والحمَّامات التي لم يكن يعلم مصممها قطُّ بأن نوافذها ستطل يومًا ما على مصعد. وبهذه السهولة كانت فرصة لمحمود لكي يلقي النظرات المختلسة القصيرة من فوق الكابينة أثناء عمل الصيانة، يرى كل شيء واقعيًّا وطبيعيًّا؛ فالمرة الأولى كانت صدفة، ولكن المرات التالية كلها كانت مدبرة ومخططًا لها، المرة الأولى كان محمود على ظهر الكابينة يخلط الجاز بالزيت ليقلل من لزوجته، يبلل هبرة الأسطبة ويفركها على العمود الواقف شامخًا يلمع في يده، وتدمع عينه من خليط الجاز والزيت. كان في وشه شباك حمَّام موارب، يا دوب سلخة ضوء تكفي تلصص ربع رأس، الزجاج مصنفر وأبعاد الجسم واضحة، الحمَّام مضيء والبئر مظلمة، لن يَبين محمود أبدًا، حتى لو اقترب أكثر، فاقترب، بينه وبين الزجاج والألوميتال أقل من شبر، فرأى؛ كل شيء رآه، امرأة تستحم،



تلف لوفة تحت زندها، ثم تمررها فوق قفاها، تستدير، وكأنها تعرض عليه نفسها، وبياضها، كانت نحيفة بعض الشيء لكنها جميلة - أو خيل له الظلام ذلك - فالعمارة في الزمالك، والبنت قمر، أو بالأدق توحي تركيبتها الجسدية بذلك، لا ترهلات ولا زوائد، الزجاج مغبش بعض الشيء، فيعطيه ذلك طابعًا أثيريًّا حالمًا على ما يرى ويمر على رأسه كوكتيل من الخواطر الخبيثة، تخبّطت الاحتمالات عندما رأى حيِّزها وحركاتها فهو لا يدري إن كانت صاحبة الشقة أم شغالة، الظل المتحرك متحرر من كل ما يميزه أو يحدد هويته، ولكن هذا لا يكفي، فلكي تكتمل الصورة التي ستخزنها ذاكرته لابد وأن يراها بملابسها، ثم يُركب المشهدين، هكذا يشتعل الخيال، مرة بالملابس ومرة بدون، كان من أجل إرضاء هواجسه يفتعل أشياء مضحكة ومسكونة بالاستعباط، كأن يطرق بابها بعد أن ينتهي من صيانة المصعد ويسأل فاتح الباب:

- **ملاقيش عندك سلم. أصلي بصلح الأسانسير؟**

فيخرج له رجل عجوز، أصلع ونحيف، يلبس طرطورًا وبيجامة يغرق جسده النحيل في تفاصيلها، يسأله الرجل صاحب الرأس المسلوخ:

- **عاوز إيه يا أسطى؟**

مخارج الألفاظ تحدد شخصية المتحدث، لغة الرجل الأرستقراطية تغري محمود بأن يستعبط بزيادة:

- **عايز سلم حضرتك أو ترابيزة أو حتى كومدينو. أصلي بصلح الأسانسير.**

يقول وتتجول عيناه بحثًا عمن رآها صافية تلعلط تحت زخات الدش،

يبحث عنها بملابسها، يتمنى أن يشوفها مغطاة حتى تكتمل الصورة، لم يرها ولا مرة. يروّح للغرفة أم منافعها، يدمج منظرها بغير ملابس مع صورة من النجمات المعلقات بأنصاف ملابسهن حوله، تتضارب الملامح فتخرج كائنًا ثالثًا يقضي تحت سطوتها الليلة بعد أن يقع في شِراكها وينقض عليها ببراثن خياله. وفور أن يستحم ويستقبل الصباح يتمنى لو أنه ركب ظهر الكابينة وبص مرة أخرى من شباك الحمام ليستعيد ما فات على ذاكرته.

ويسأل محمود البواب في اليوم التالي عن فاتنته الآسرة، لكنه يمتعض بشدة عندما يرد عليه حارس العقار قائلاً:

- **الشقة دي ساكنها رجل عجوز ووحيد من عشر سنين.**

يتسحب وهو يضغط فكيه ويصر أسنانه ويبرِّق في اتجاه الفراغ.

وبرغم بحث محمود الدائم عن الجنس. فهو لا يعترف بوجود الحب:

«مفيش حاجة اسمها حب بين واحد وواحدة.. في حاجة اسمها....».

يُفضِّل الفعل الممنوع ذِكره والمكون من ثلاثة حروف على بديله المسموح والمكون من حرفين فقط.

تتلخص أمنياته في البحث عن قيمة، لا يهم تعبه بالنهار ولا مرمطته بين العقارات بقدر ما كان يبحث لنفسه عن ذات جديدة يدخل فيها بكل قوته، يفصص النماذج التي يقابلها، ولا يجد نفسه في أي منها، يعامل من حوله وكأنه طائر مرتفع، يحلق بروحه بعيدًا رغم اندساس جسده بين اللحوم البشرية الكثيرة، يهرب بتبديل هيئته ليلاً ليغير من جلده، فلا تكفي فقط هيئته، يصبح

كديكور فج في غرفة فقيرة، أو قبة فخمة تسيِّجها خرقة متسخة وقذرة، بازلت شوارع وسط البلد علَّم في بطن قدمه لسنوات طويلة، مهما لبس من أحذية فنلندية وإيطالية بالليل، تؤلم قدمه كدمات صغيرة سببها سيره نهارًا في الشوارع بالشبشب، شبه حافٍ، أو «بكندورة» زرقاء اشتراها من باتا، الخربشات الصغيرة كبرت وأصبحت جرحًا غائرًا، كالحصى الكثير الذي يُكوِّن جبلاً، طلوعه الأرصفة، نزوله الممرات، مطاوعته لبواب هو يعلم يقينًا بأنه غبي، كل هذه النواقص كانت تتحول لأسنَّة مدببة وجارحة تشق ما بناه من عزة روحه.

لا يكاد محمود يفكر في الأمر حتى ينسى، يأخذه اليوم التالي بما اعتاد، ولكن ما إن ينسى حتى تجبره الأحداث على التذكر مرة أخرى.

كان يقوم بأعمال الصيانة المعتادة في عمارة يقطنها بعض الإقطاعيين القدامى بشارع البرازيل بالزمالك، عند صعوده للدور الثامن والأخير ووقوفه فوق ظهر الكابينة لعمل الصيانة الدورية، انفلتت زجاجة الزيت الكبيرة من يده وسقطت فهشمت في طريقها زجاج نافذة كبيرة في الدور الأرضي، السكون في العقار مرعب، مجرد سعلة صغيرة تدوي في جميع الأدوار وتنتج صدى صوت، كان صوت تهشيم الزجاج قويًّا وخادشًا لحالة السكون، وقف محمود بملابس الشغل ينتظر مصيره.

وقع خطوات تصعد السلالم، بطيئة وبعيدة، ثوانٍ تمر وتزيد الخطوات تأكيدًا ولا يتغير بطئها، يبدو الدبيب الواهن لشخصين، وقف محمود كفأر وجد نفسه في المصيدة، ينتظر حتمية المواجهة، يعرف جيدًا أنه لا يفصله عن وصلة توبيخ محترمة سوى بضع سلالم وبضع ثوان، وأنه لا بد من أن

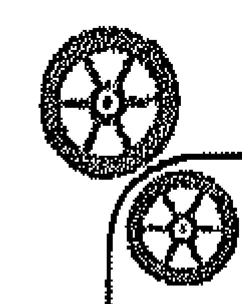
يتحمل حتى تسير الحياة. وحتى قبل أن تفلت من يده زجاجة الزيت الثقيلة أيضًا، فجميع الشواهد تبرهن بأن ما يفعله محمود من تغيير ليلي لا يغير شيئًا على الإطلاق، فالناس "المرتاحين" بجد حاجة تانية، يراهم في نفس العمارة، طباخين طالعين نازلين وهم يحملون نقالات بأربع أياد، مغطاة بطبقة فضية من رقائق الألومنيوم، أكياس البيليسيه البيضاء النصف متر منكبسة في رءوسهم، وخدمًا سودًا يلبسون زيًّا أبيض بأشرطة حمراء تقمط الخصور، وجوههم مُحْمَرَّة يكاد يفط منها الدم، وأجسادهم ملظلظة تنشع سمنًا ودهنًا، مرات كثيرة يسأل محمود عن محتويات القبب الفضية التي يحملونها وتشبه النقَّالات، مرة يقولون ديكًا روميًّا، ومرة خروفًا محمرًا، ومرة خنزيرًا رضيعًا، وفي كل المرات لا تختلف الروائح التي تفك تماسك اللعاب في فمه. وكان الأكثر انتشارًا من روائح الأطعمة أريج العطور، برفانات نافذة التأثير وقادرة على تبديل المشاعر وتنعيم الأفكار، لا يطلع أحد السكان من المصعد ويخرج بحاله عندما يصل لشقته، يترك قبسًا من رائحته المعطرة التي تأبى أن تترك المكان، تنتشر في الأجواء، يشمها محمود عند عمل الصيانة، تطغى على روائح الزيت والجاز والشحم، ماذا عساه أن يفعل مع ناس مثل هؤلاء؟

وجد أمامه وجهًا لوجه رجلاً وسيدة عجوزين ويلبسان أرواب النوم، وقفا أمام محمود وملامحها مكشرة ومحتقنة، كأنهما يعانيان من الإمساك، أشارت له السيدة بعصا كانت تتوكأ عليها وسألت بإنجليزية رصينة:

- What happened? Is it an explosion?

تلاحُق الكلمات جعل محمود يسمع الجملة وكأنها كلمة واحدة طويلة. انتظر قليلاً ثم أجاب بعد أن خمن السؤال:





- **اسـمي محمود وشـغال من يبجي نص سـاعة حضرتك أو ساعة إلا ربع كده.**

- And you. what are you doing here?

قالتها وهي تنظر لزجاجات ملحوسـة وملقاة بهرجلة من حوله، فأجاب محمود وملامحه حائرة بين الابتسام وتصنُّع الجدية:

- **الإزازة اللي فيها الجاز فلتت من إيدي يا فندم غصب عني.**

لم يتكلـم الرجل العجوز، ولكنه اقترب مـن محمود أكثر وأخذ يتأمله، في حين ردت السيدة بطريقة أقرب للصراخ:

- The Broken glass wounded the boy!

- **أنا بتاع الصيانة.**

اسـتعادت هدوءهـا مرة أخـرى وقالت لـه وهي تحرك يديهـا الاثنتين في الهواء بشكل مسرحي:

- You are reckless

- **آه من شركة شندلر وآدي كارت الصيانة الشهري.**

لم تنظـر للكارت الأخضر في يده، ولكنها نظـرت لزوجها الذي بدا عليه القرف وعدم الفهم، قالت وكلماتها تخرج في زفرات متقطعة:

- Oh my god

الكلمـة الوحيدة التي لقطهـا محمود «يا إلهي»، سـمعها كثيرًا في ترجمات الأفلام الأجنبية، فرد بثقة:

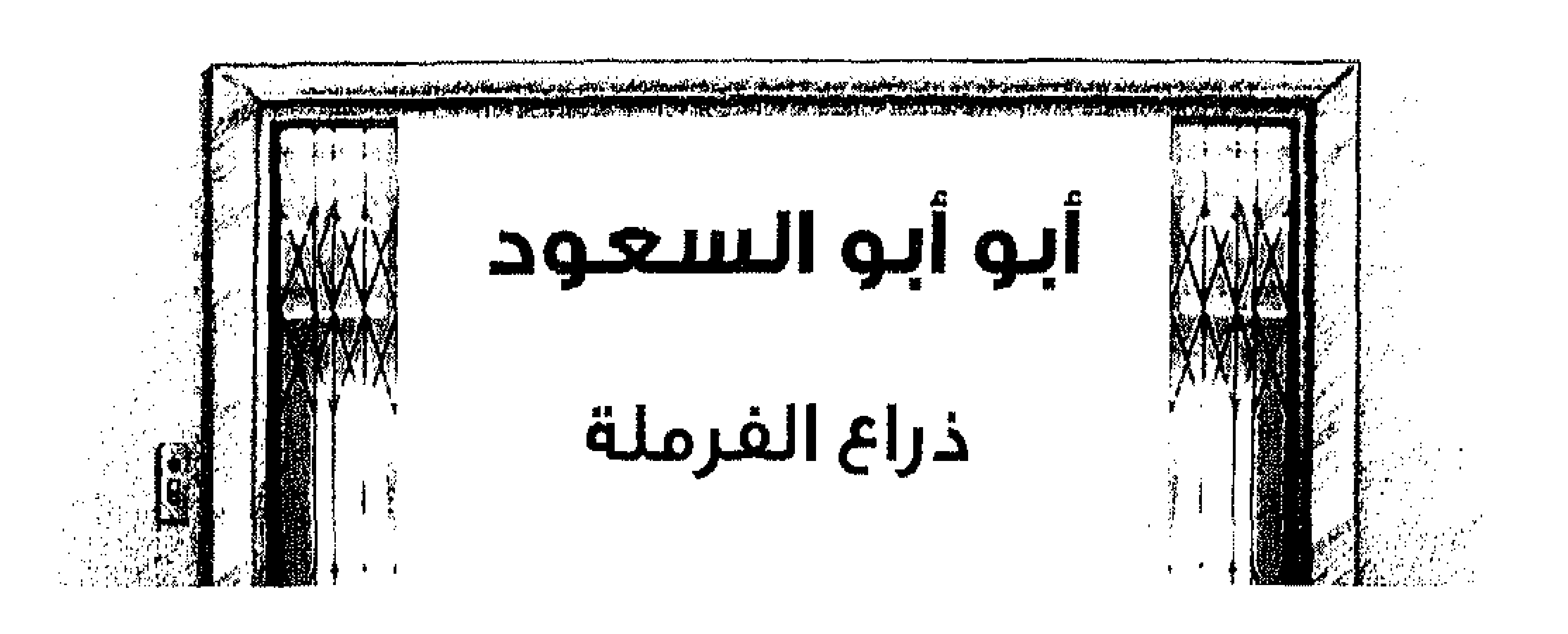
- **قدر الله وما شاء فعل يا هانم.**

كانت الزوجة هي المتحدثة وزوجها يقف بجوارها يهز رأسه ويدب يده في جيب روب كارو غامق، يمط شفتيه ويرفع كعبيه عن الأرض ببطء ثم يدقهما بقوة.

رأى محمود نفسه في ذلك الموقف بحجمه الطبيعي، عامل صيانة في شركة متواضعة، مهما أهين فلا يمكنه رد الإهانة، حياة مقموعة وفرص ضائعة. تحوَّل أمام مرآته لشيء لزج ومقرف، بلا حول، ولا رغبة، ولا نفس، كان يتمنى أن يظهر في هذا المشهد موقرًا، أو على الأقل إنسانًا يستطيع رد الإهانة، أو شرح وجهة نظره، ولكنه عند أول خطأ غير مقصود ظهر بحجمه الحقيقي، بمقاييسه التي قدَّها بنفسه وارتضاها، لوهلة أصيب بالدوار. استقر رأسه بين كفيه قليلاً وظل يفكر، ماذا سيحدث لو ذهب هذان الزوجان للإبلاغ عنه؟ مؤكد سيشبع ضربًا ويأخذ على قفاه لما يقول يا بس.

سلم محمود أمره لله، ابتلع كبرياءه ووقف ينتظر ما سيوقعانه عليه من عقاب.

لم يتطور المشهد عن تلك الجمل البسيطة والتوبيخ المعتاد، انصرفا بعد ذلك دون توقيع عقاب، ولكن محمود عاقب نفسه بطريقة أقسى، لم يخرج في تلك الليلة كما اعتاد، لم يبحث عن فيلم يثيره، ولم ينكت الجرائد أملاً في العثور على عرض سينمائي أول، به بعض المناظر الفاتنة أو العبارات الممنوعة، اكتفى فقط بأن يسلي نفسه بتقشير صور النساء من فوق الحيطان، فقد طقت في دماغه فكرة، سيدهن الشقة بالزيت، فبعد تخطي الأربعين لم تعد جميع الصور جذابة كما كانت، حتى صورة الممثلة الأجنبية التي لا يعرف اسمها.



في شركة شندلر تنقسم عملية تركيب المصاعد لمرحلتين، أولاهما ما يُسمى الميكانيكا، وهي عملية تقوم بها فرقة من العمال، مفترض أن يكونوا شديدي البأس، أقوياء كألواح اللطزانة، أقدامهم أول أقدام تطأ العمارة، أول من يذهبون بعد مسئول المقايسات، يبدءون العمل في البنايات وهي نائية وبكر، لا حس فيها إلا لطائفة المعمار، يصعد عمال الشركة بعِددهم الثقيلة سلالم العقار مهما كانت كثيرة، يعبرونها بدأب نمل وصبر أيوب. في الغالب تكون العقارات على الطوب الأحمر، لم تمسسها في عمليات التشطيب يد، طرقات متربة وشقق بدون أبواب وغرف كخرابات صغيرة، ليس فيها إلا تلال الرمل وشكائر الأسمنت والتراب والحصى وبراز العمال المزنوقين.

والمقصود بمرحلة الميكانيكا تركيب العمدان والأبواب، ثم تحديد مكان البكر المناول للأحبال في بئر المصعد، وتخريم ثقوب للتشحيم، ثم تحديد أماكن صناديق التروس في غرفة المكن، تروس مسننة، تروس بسقّاطة، تروس لولبية، تروس مخروطية، وترس مشطي واحد يساعد على الشد الدائم للحبال، ثم وضع تيلة مشقوقة لكل ترس لكي لا ينفلت من قاعدته، ثم يتم إنشاء تبَّة خرسانية في حجرة المصاعد المشيدة وحدها فوق السطح،

ثم تثبيت الموتور فوقها بعد فرشها بطبقة من كاوتشوك سميك لامتصاص الهزات عند التشغيل، في المرحلة التالية لذلك تُركَّب الأبواب الصاج بحلوقها، ويحيط بالحلوق حبيبات الموزايكو لو كان المبنى فقيرًا، أما لو كان فخمًا فيسيجه ملك الصخور[1] وبعد ذلك تنزيل الأحبال التي تنتهي بالثقل الموازن لنصف حمولة الكابينة.

أما القسم الثاني من عملية التركيب فيسمونه في الشركة أعمال الكهربة، وهو القسم الخاص بتنزيل الكابلات وتثبيت الكنترول مواجهًا للموتور في الغالب، ثم تركيب مُبيِّن الأدوار المضيء ونقر أماكن لتبيت فيها علبة الاستدعاء بمقدار مفتاح للمصعد الواحد في كل دور، ثم بعد ذلك يتم تثبيت جنازير سحب الباب السفلية وطلمبات غلق الباب العلوية. والدور يُسمى حطة[2] فكلما انتهى دور تكون قد أُنجزت حطة! ولا يسأل العمال المبنى مكون من كم دور ولكنهم يسألون من كم حطة! والدور الأرضي يُحسب بحطتين، فهو يستغرق وقتًا أطول في تأسيس بادئ للعمدان وتقميط عروق السقالات وصب القوائم الخرسانية وتثبيت مصدات الكابينة الممتصة للاحتكاكات.

وعدة عمال الميكانيكا مختلفة تمامًا عن عدة عمال الكهرباء، فشغل الكهرباء لا يحتاج إلا لآفوميتر ومفك تيست وزرادية وبعض العدة الخفيفة، شاكوش أو شنيور، أو سلك مجدول ينتهي بدواية مرشوق فيها لمبة

(1) مسمى يطلق على الجرانيت لأنه متين جدًّا ويمكن تقطيعه لأي شكل، وعند صقله يلمع كالزجاج.

(2) الحطة هي الدور الكامل بكل ما يحتويه؛ من تركيبات ميكانيكية وتوصيلات كهربائية، ومن إقامة سقالات في بئر المصعد، وهي أقرب لوحدة قياس.




للتجارب ومحاطة بسلك شبك «بلدوس»، أما شغل الميكانيكا فيحتاج لعدة لا يمكن لشخص واحد حملها، ونش صغير لرفع الموتور، هيلتي لتخريم الشنايش وتثبيت الكوابيل، بكرة بحبل كتان مثل الرزية لصعود العمدان واحدًا واحدًا وتعشيقها فوق بعضها، مفاتيح بلدي كبيرة جدًّا تفك وتربط صواميل في حجم قبضة اليد، وتعصر على زراجين لقفش الأحبال الصلب المتدلية كمشانق من «الشنيشة» وكبشة تشبه حلة صغيرة لها يد تزيد على المتر لتسييح الرصاص وتجنيش الحبال وتمكينها من الكمرة الحديد عند رأس الكابينة، ووابور نار يُعمَّر بالجاز ويسلط على كبشة مليئة بكتل الرصاص، فتسيح بالنار الزرقاء الموجَّهة، يصاحبها وشيش عالٍ يجيب صداع ويدمع العين من رائحة النفط النفاذة.

والميكانيكية لا مؤهلات يحملونها ولا يحزنون، ربما أشباه الشهادات، يجوز الابتدائية، أو أولى إعدادي، ولو كانت ثانوية صناعية فلا بد بدرجات فاضحة وفيها كحك، وباقي المواد نجاح على الحركرك أو دور ثانٍ، أما المتفوقون من حاملي الشهادات المتوسطة فمحجوزون للعمل في فنيات الكهربة، مجهوداتهم تعتمد على عمليات داخلية لا تكاد تُرى داخل أدمغتهم، لهم شنطة عدة خفيفة، وعلبة مارلبورو يطل طرفها من جيب قميص يهفهف على اللحم، وولاعة إيطالي مفتخرة تلبد بجوار العلبة، أحيانًا يلبسون كاسكتة وتنبت لهم سكسوكة، أو حسنة طالعة في الذقن يهرشها صاحبها عندما يفكر في حل عطل كهربي عويص لا يفك طلاسمه إلا فنان.

وعمال الميكانيكا أيضًا هم من يقومون بإنشاء سقالات بطول البناية، ثم

حلها بعد إتمام عملية تركيب المصعد. والميكانيكية دائمًا عرقانين وملحوسين وريحتهم قبر، وملابسهم تشبه خرقًا قذرة تتوه فيها أجسادهم من فرط وسعها، أو تكاد تتمزق وتبظ منها لحومهم من شدة ضيقها. ودائمًا يروحون ويجيئون وهم يحملون أشياء ثقيلة؛ هيلتي ببنطة طولها نصف متر، كمرة حديد تحتاج للحام أو تقطيع، قالب زهر قد الداهية، نصف موتور تقل السخطة. وأحيانًا تلاقي الواحد منهم مُحملاً بأشياء كثيرة تقارب حمولة عربة كارو، يمشي باصص في الأرض وفوق ظهره ما ينوء بحمله حمار، يظل بعضهم يعمل في فرق الميكانيكا حتى يطلع له قتب، والغريب أنه لا يعترض على ذلك، بل إنه أحيانًا يبدو سعيدًا لأن أحدًا لن يطلب منه أبدًا تشغيل مخه، وذلك هو أشد ما يخشى. فيمكن لأحدهم أن يتأفف أو يزمجر من طريقة المعاملة القاسية. لكن ذلك يتم في حدود ضيقة للغاية، لا تتعدى بحبحة لزميل أو فضفضة على قهوة بدير لبدير وهو ينزل المشاريب، وأحيانًا يكون الواحد منهم مخنوقًا من مهندس فيستسهل أن يلعن الحياة والعيشة لأن الحياة لن تخصم له نصف يوم والعيشة لن تلحس اسمه من دفتر الحوافز.

وكما أنهم يطلقون على عمال الميكانيكا العتالين؛ كانوا يطلقون على عمال الكهربة الخواجات[1]. وبالرغم من أن عمل الميكانيكية أقرب لشغل السخرة ويقارب ثلثي عملية التركيب- فإن فضل تسيير المصعد يُنسب لعمال الكهربة وحدهم الذين هم دون غيرهم يقفون مع «كُبارات» البلد عند

(1) في بدايات العمل بالشركة كان الخواجات هم من يُعلِّمون المصريين أعمال الميكانيكا والكهرباء على السواء، ولكن بعد هجرة الجنسيات المختلفة لبلادهم لم يبق إلا خبراء الأعمال الكهربية فقط، فالميكانيكا من السهل تعلمها بقليل من الذكاء، وبالتالي فقد ارتبط اسم الخواجة في الشركة بأعمال الكهرباء فقط دون غيرها.

التسليم النهائي. أما الميكانيكية فيقفون صفًّا ثانيًا يتفرجون وهم يبتسمون باندهاش، وربما ببلاهة، أو يحملون صواني الشاي للخواجات من عمال الكهربة، ينتظرون في رضا وصبر لمحة ثناء أو كلمة شكر.

وأولاد البطة البيضاء لا يشعرون ببياضهم، ولكن أبناء البطة السوداء يشعرون بكل النواقص، فميكانيكي في الشركة تعني عتَّالاً أو إنسانًا أول لا يدرك أنه كذلك، أو على أفضل وصف هو شخص لا يصلح لأن يتحول في يوم ما إلى خواجة إلا بمعجزة كتحول عصا موسى لثعبان.

وأبو السعود كان من أبناء البطة السوداء، ولكنه على غير عادة أبناء مهنته، لا يشعر بأي فرق، بل لا يفكر في المسألة أصلاً، متوائم مع نفسه حد الالتصاق، ومتصالح مع ذاته حد الاحتضان، وسعيد بكل ما يفعله حد البهجة. لم يفكر يومًا في طبيعة موقعه على خريطة الشركة، عمل فيها منذ ما يزيد على عشر سنوات، روح يا رجب. حاضر، تعال يا رجب. ماشي، خليك واقف في النص يا رجب. زي بعضه، اطلع المقطم. ميضرش، انزل السبتية. وماله، كلم المهندس. مفيش مانع، روح الصيانة. عادي، ارجع للميكانيكا. مش حتفرق.

عشر سنوات وأبو السعود يفعل ما كان يفعله طوال كل الأيام، عمره كله يشبه يومًا واحدًا طويلاً، لكن لا أحد يسأله، ولا مرة سأل هو نفسه، والهواجس التي تخطر على بال زملائه لا تشغل له بالاً، والدنيا التي تطهق الناس وتذهب بعقول بعضهم بنت صرمة ولا تستاهل، والفلوس اللي تخلي الأخ يعض في «أخوه» بتتبعزق وملهاش لازمة، والفكر وشيل الهم

الـذي لا يـترك النـاس إلا «خردة» ينقلب بقدرة قادر انبسـاطًا ورضا ينشـع عـلى ملامحه، فالفلوس لو وقعت منه انفشـخ حنكـه وضحك ضحكة بلهاء سـاذجة، وقال لنفسه: «يمكن كنت أصرفهم عند الدكاترة» وإذا لقي فلوسًا انبسـطت ملامحـه أيضًا وقال لنفسـه: «رزق وجالي». فدائـمًا أوداجه منتفخة وخـدوده مكلبظـة وكرشـه الصغـيرة تمتـد بالخطـوة الأولى قبـل أن يبدأ هو بالمسـير. تركيبته الجسـدية تشـبه لاعـب مصارعـة محليًّا، قصير بغـير تقزيم، ومنتفـخ بغير ترهل، عيونـه مخضرَّة وشـعره مكتكت، غبـي بعض الشيء، تدخل المعلومة لمخه بصعوبة، وتخرج كذلك، يمنحه غباؤه مسـحة من طيبة، غـير هيَّـاب للمواقف، في الغالـب لا تتغـير قناعاته، ولو حـدث فبعد عشر سـنوات، أو يزيد، فيطيل السوالف بعد أن تنتهي موضتها، وعندما يفيق من غفوته ويقصرها تكون الموضة قد عادت للطول. يهاود جميع المهندسين حتى ولو بأشياء تافهة، يضحك على نكتهم ولو كانت ماسخة، ويؤازرهم الدهشة لو كانوا على شيء بديهي يعجبون.

عندما شد حيله وبلغ العشرين فاتح أباه:

- **عاوز أتجوز.**

فرد أبوه:

- **وماله يا حبيبي.**

اختـارت لـه أمـه بنـت الجـيران ووافق عليهـا، تـزوج معهم في شـقتهم الصغـيرة بالزاوية الحمـراء، حطوا لوح أبلكاش وقفلـوا الصالة، فأصبحت غرفـة نوم لرجب وعروسـه، باعـت أمه طقـم الأنتريه القديم الـذي بدأت

أحشاؤه تعرض نفسها في الآونة الأخيرة على الزائرين، اشترت غيره جديدًا بالتقسيط، وكذلك غرفة نوم رخيصة من المناصرة. وبذلك أصبحت شقة رجب أبوالسعود جاهزة من «جماميعه»، (على حد تعبيره).

وشوشت أم رجب أباه المكشَّر، فيما كانت هي تضحك بخلاعة:

- **عايزة الواد يتدفى في سريره مع عروسته يا راجل. يوه.**

اعتمد رجب في المسألة برمتها على ست الحبايب، وكانت مئونته في هذا الأمر رغبة أمه الملحة في سرعة زواجه، نهم غريزي يوقظ في نفوس النساء حب الزغاريد والرقص في حلقات توزيع الشربات. وبرغم مظاهر الفرح الطافح على ملامحهن؛ يكون الرجال في مثل هذه الظروف محتاسين وملبوخين ويتجلى على ملامحهم البؤس وشيل الهم.

بعد أقل من عام أنجب رجب الذكر، قطعة لحم حمراء مكلبظة بلا عظم، ملامح موزعة على كل من في البيت كي لا يغضب أحد، وتستدعي رؤيته ملامح الراحلين أيضًا لكي ينعموا في نومتهم الأبدية. لم يجهد رجب دماغه في مسألة التسمية فسماه على اسم أبيه «أبوالسعود» ووافقت أمه وفقعت الزغاريد الممطوطة وهي تدق الهون النحاسي بلا هوادة. لم ينشغل رجب بأشياء كثيرة أخرى، فمثلاً أصبحت زوجته الشابة الصغيرة تنادى بأم «أبوالسعود»، وأصبح هو الذي لم يدخل الجيش بعد أبو «أبوالسعود»، برغم أن الطفل المنمنم لم يكن يليق على ملامحه المسمسمة قطُّ أن يكون أبا أحد.

ضيق المعايش أظهره بمظهر البخيل وما هو كذلك، تلف له أمه

ساندويتشات البطاطس المقلية، أو تضع له أم أبو السعود الصغير كبشة مسقعة حراقة في علبة حلاوة طحينية فارغة، في قيظ الأيام تحمض المسقعة من سخونة البلاستيك فيشربها بلا غموس، وفي قعر الشنطة لا مانع من وجود حبة طماطم أو جزرة أو قلب خساية أو خيارة أو قرن فلفل. ليس ذلك فقط ما جعل زملاءه يدَّعون بخله، فأغلب عمال الصيانة يفعلون أشياء شبيهة بذلك، ولكن رجب كان حريصًا على الذهاب للبيت بالفوارغ كاملة، علبة الحلاوة والشنطة البلاستيك السوداء، وورقة الجورنال التي كانت تكفيه لأسبوعين، لا يعتقها إلا عندما تتوه معالمها، يسيح حبرها وتتداخل كلماتها من كثرة اللف والفض. وبعد أن يتم عليه الله نعمته بالشبع، يسيِّح الخلطة بكوباية شاي تقيلة يعملها في سخان من اختراعه[1]، وأحيانًا يخبط مج من عند بدير، كوباية واحدة ليس لها ثانٍ، من الصعب أن ينساها في الصباح، ومن المستحيل أن يضاعفها طوال اليوم، ولو الفلوس قصرت يؤيد المشاريب على النوتة ويدفع لبدير في يوم القبض بالتمام.

لا يخرج عمل رجب في الشركة عن شيل وحط، رص ونقل، أو نأنأة في تشوين لفائف سلك أو كابل مرن. يلفع كمرة حديد تقارب وزنه ويمشي بها في عز الصهد حتى يصبح لها متكأ فوق كتفه المربعة العريضة، أو يسافر

(1) كانت هناك طريقة طريفة لعمل الشاي لا تكلف العامل مليمًا، ولكنها قاتلة لما فيها من تلوث، وهي تتم بجدل فردتي سلك فائض من أعمال الصيانة، ثم توصيل كل فردة بعمود الكربون الموجود في حجر القلم؛ والذي يحضرونه من مخلفات القمامة، ثم يعقف طرف السلك كخطَّاف لتسهيل ثباته في بريزة توصيل التيار، ثم يخلع إطار مصباح كهربائي محروق يأتون به من المخلفات أيضًا ويسمونه بطيخة، يملأونه بالماء بعد غسله من أثر الهباب ويضعون فيه عمودي الكربون ويوصلون التيار فيغلي الماء، وبعد ذلك يلقِّمون البطيخة بالشاي والسكر المطلوب.

مع فرقة الأسطى الذي يعمل معه إلى رأس سدر، أو الفيوم، أو حتى أسوان، ومـا المانع؟ فأمه تأخذ بالها من زوجته، وهي اللي مربياها، وكانت في الأصل جارتهم وبنت جارتهم التي كانت دائمًا تشـحت منهم الخلاط، وأبوه يصرف عـلى الجميع ويراعي حفيده وأحيانًا يسـخن له الرضعة، فأبو السـعود يأخذ باله من أبو السعود، عادي.

تسـاعده أسـفاره الكثيرة على تلفيـق حكايات لم تحدث من الأسـاس، فيـوم أن سـافر للفيوم رأى السـواقي السـبع الشـهيرة وهو ذاهـب للحام كمرة حديد، لكنها لم تكن سـبعًا، ولم تكن تهدر الماء على جنباتها كما سـمع عنهـا في الحكايـات، اختلـف مشـهدها كثيرًا عن المشـهد الذي رسـمه في خياله. كانت بركة ماؤها عطن، وفوق سطحها ترقص طبقة خضراء ومن تحتها ماء راكد وآسـن، وسـاقيتان مهترئتان لهما لحاء مقشر وقابب، دلاءتها معوجة على جانب واحد كلسـان ذبيحة، والمنظـر بالكامل تحوطه كافيتريا متسـخة وكل زجاجها مكسـور، وصبي نازل بربوره يلف بشبشب زنوبة عـلى الزبائن، وسرب من المتسـولين يطوفون حول كرنفـال القذارة حفاة، تصـدر من أجوائهم جلبـة لا تنقطع وضوضاء، وبعض الباعة والنشـالين يحومون حول المكان. شرب رجب الشاي وانصرف، ولما عاد لم يحك لأبيه وأمه وزوجته ما رآه، لكنه حكى لهم ما كان مرسـومًا مسبقًا في خياله من خـضرة وماء وجمال اسـتوحاه من كوكتيل المناظـر الطبيعية الرخيصة التي يلطعها على حيطان شقته.

لم يتمارض قطُّ، لم يوضع اسمه على أورنيك عيادة طيلة كل تلك السنوات،

بل هو أصلاً لا يعرف شكل الطبيب ولا كيف يذهبون إليه، فالصداع يروح بإسبيرينة وكوباية شاي، والبرد يروح فين من الليمون!

تراه يمرق بما يحمل على كتفه في صمت، يمر مخترقًا غاغة العمال ولا ينشغل بثرثراتهم، يراهن زملاءه أحيانًا على فدغ العملة بأصابعه، أو فرتكة نسيرة من الحبل الكتان من شدة واحدة، أو يفتت ثلاثة قوالب طوب من ضربة سيف يد فتَّاكة، غالبًا لا يتوقف عند ما يفعله، فلا غرابة في فعل ذلك، بل أكثر من ذلك، قفز مرة من الدور الثالث، لقفته كومة رمال تنتظر دورها في الخلط بالأسمنت لتصبح مونة، نط من بلكونة عمارة تحت الإنشاء، ولما نجح وقام ينفض هدومه ويدب الأرض صفق له زملاؤه، وطلبوا له الشايات والحاجات الساقعة والبسكوت، ولما تكررت قفزاته قالوا إنه مخاوي، والقوى التي تشع منه تدعمها بركات وبواطن ليس لردها من قِبل البشر سلطان، وكذّبهم وقال إنه ليس قويًا ولكنهم هم ناعمون و«خيخة»، وأخذ يحدثهم عن جده الذي خلع النخلة في المساء وشالها على كتفه وهي طارحة وتتدلى نهودها بسبائط البلح الأحمر، وزرعها قبل بزوغ الصبح في أرضه، وبلَّغ عنه المسروق، وقال له المأمور:

- **رَوّح يا راجل يا مجنون. عايز تفهمني إن فيه بني آدم شال النخلة دي وهي طارحة؟**

وروَّح الرجل مهزومًا.

يحكي رجب لزملائه وهو يسحب من خرطوم الجوزة الغابش، يزنهر




الحجر، يلعلع طربوشه الأحمر فوق حجر المعسل، ينفث رجب الدخان من منخريه ويقول:

- **واللي مش مصدقني ممكن أروح أوريله النخلة.**

ويشيح بالخرطوم في اتجاه بلدته:

- **ما هي لسه بتطرح بلح لغاية دلوقتي.**

تُميز رجب من بعيد بطحة قوية في رأسه، جانب من ناصيته مضغوط قليلاً للداخل، يشقه خط غرز معوج يشبه ثعبانًا صغيرًا، ترقطه بقع كالنمش في حجم حب العدس، كوحمة عنقود عنب بشاير، يهرش فيها بشكل دائم، يراها بدون مرآة؛ ولأن شعره خفيف فتبان العاهة بدون تدقيق، ولإصابته حكاية كانت ستجعله من أهل القبور، لولا ستر ربنا.

في ميدان العتبة، وخلف الجراج الذي كان في يوم ما أوبرا، كان رجب يحمل شنطة هيلتي في يده وحبل كتان كبيرًا على كتفه، مر من أمام سرّيح يبيع الموز بجنيه، عندهم في الزاوية الموز بجنيهين، سيأخذ اثنين كيلو أو ثلاثة لأبو السعود الصغير وأمه الصغيرة وسينوب أمه وأبو السعود الكبير من الحب جانب، أنزل حمولته وهو عرقان وحالته بالبلَى، انتظر حتى يخف الزحام من أمام الرجل، ولكنه بعد أن وقف قليلاً لاحظ شيئًا؛ فتلة مربوطة في كفة الميزان تتدلى حتى تنتهي عند رجل البائع المتسخة والمدسوسة في شبشب زنوبة بالغ القذارة وليس له لون تقريبًا، يضع البائع ثلاثة أو أربعة أصابع موز في كفة الميزان، وفي الكفة الأخرى مكيال واحد كيلو، وبينما الزبون المطحون يتابع يد البائع في عملية الفرز والتنقية يكون الرجل - وبحرفية شديدة- قد جذب

الفتلة المشبوكة في زنوبته أثناء نزول إصبع الموز في الكفة بالتمام، وبذلك تكون الكفة قد طبت وما فيها لا يزيد بأي حال على نصف كيلو، يضعه بعد ذلك في قرطاس من ورق جرائد أجنبية ويشوف زبون غيره. لم يلحظ أحد الخدعة، يكتفي الزبائن بأن يتفحصوا القرطاس وهم سائرون في تعجب، منهم من يقشر أصابع الموز كقرد ويلهف الإصبع في مرة واحدة، ثم يطوح بالقشر بعيدًا كرامي الجُلة في حركة لا تعبر عن شيء، ومنهم من يحضن القرطاس ويسير لحاله. وعندما جاء دور رجب وسأله الرجل:

- كم كيلو؟

رد رجب وعينه معلقة على الفتلة الممتدة بين كفة الميزان ورِجل الرجل وقال:

- انت حرامي.

لطمت الكلمة البائع، أصغى كمن لا يصدق أن أحدًا فتش سره، وضع كفه على أذنه ومال رأسه الذي يضع عليه قطعة قماش قذرة ناحية رجب حتى أصبحت تقترب من صدره وقال:

- **انت قلت إيه؟**

فردد رجب ما قاله بصوت أعلى حتى تجمع الناس، ثم أنزل الحبل الكتان من على كتفه وركن شنطة الهيلتي من يده. وقبل أن يهجم عليه سبقه البائع، رفع المكيال الخمسة كيلو من قنطرته ولطع به رجب لطعة واحدة على جبهته بكل ما أوتي من عزم، خبطه بغيظ مكتوم وغِل، كأنه ينتظرها منذ سنوات، كان الرجل مدججًا بألفاظ قبيحة لا تُحصى، وقحة وعارية، ألقاها جميعها

في حضرة أمم من الناس، ساح رجب في دمه، لم ير إلا خطوطًا حمراء تنزل كشمسية كبيرة من السماء، وأناس يجرون تلفهم دوامات دخانية، شيء أشبه بخوذة حديد كبس على رأسه، ثم هاجمه بغتة دوار وهبوط وارتطام، أصاب جسده القوي خلل، انسدلت أمامه شبورة تجمّع فيها كل ما يعرفه من ألوان، ثم لا شيء. وأول ما أفاق في مستشفى صيدناوي قال:

- بس برضه حرامي.

والأسطى صادق، أو كما يناديه رجب دائمًا «سادِئ» هو الأسطى الموكل له تشغيل رجب أبوالسعود، والأسطى في أعمال الميكانيكا أيضًا كان يختلف كثيرًا عن الأسطى في أعمال الكهربة، فأغلب أسطوات الميكانيكا بصمجية، لا يعرفون عن الورقة والقلم سوى الرسم الهندسي للتركيبات، أو كما يسمونه «الرسمة» وفهم الرسم لا يحتاج لعبقرية، فأغلبه متشابه لحد التطابق، لا يختلف فيه سوى الأرقام ومقاسات المصعد وحجم الباب، فالمسمار الذي يربط فيه الواحد منهم ميزان الخيط هو نفسه الذي ينزل بنفس الميل حتى النهاية، ثم يثبت الأبواب الصاج «بفارمة» حديدية على كل الأدوار كإكليشيه. والأسطى صادق وفرقته نفذوا عمليات تركيب كثيرة، آخرها مبنى تابع لوزارة الداخلية أنشئ في ميدان العباسية؛ هو مبنى إدارة مكافحة المخدرات، وكانت طبيعة العمل عبارة عن إحلال وتجديد، فقد زاد المبنى خمسة أدوار دفعة واحدة.

«حسن الألفي» وزير الداخلية بنفسه سيحضر مراسم تسليم المبنى، على قدم وساق كانوا يعملون، يسهرون في بعض الأيام حتى صباح اليوم التالي،

كان رجب يشاهد المسجونين الحقيقيين وهم مسلسلون كالقرود في درابزين السلم، رأى أناسًا لم يكن يحلم قطُّ برؤيتهم، فنانين ولعيبة كرة مقبوضًا عليهم بشيلهم من لفائف وطُرب، وكان يحكي لأبو السعود الكبير، فتحثه تلك الحكايات على أن يحمد الله على الفقر الذي لم يجعلهم يركبون المرسيدس أو يتنططون على مخاليق ربنا، وتؤكد أم رجب على كلام أبيه، وتعمل زوجته الشاي بعد أن ترضّع أبو السعود، ويتكرر اليوم بما يشبه الأمس حتى ينقضي الشهران، ويأتي ميعاد تسليم المصعد، ويحتار مهندس التركيبات؛ من هو ذلك العامل الجسور الذي سيرضى بأن يقف في غرفة المواتير أثناء صعود وزير الداخلية، خصوصًا أنه ليس أي وزير داخلية؛ إنه حسن الألفي! ويرفض الأسطى صادق تلك المهمة ويقول:

- العمر مش بعزقة.

ويتملص المهندس الجديد الذي لم يدخل دنيا بعد، ويقول لرئيس القطاع:

- لو حترفد من الشركة مش رايح.

ويُجرون مفاوضات مع رجب أبو السعود فيوافق بنفس هادئة وقلب مطمئن.

ويبدو أن رجب لم يكن يدرك الأمر على حقيقته، أو بمعنى آخر كان يدرك جزءًا بسيطًا منه فقط، فكان يرسم سيناريو به الكثير من البراءة، سيشرب شايًا في البوفيه ويحرق حجر جوزة على ما يطلع معالي الوزير ويلف له لفتين ويتفقد المكان، فطوال شهرين هما فترة التركيب وهو يشرب الشاي ويدخن الجوزة في غرفة المواتير. المهمة شارفت على الانتهاء، والمصعد جرّبه طالع نازل زي الفل، فما إذن المشكلة؟

تبددت أوهام رجب في أول الصباح. وقبل زيارة الوزير بساعتين، سلمه المهندس لحرس الوزير على أنه هو الفني المسئول عن المصعد أثناء الزيارة، فصعد أمامه رجل لا تتضح ملامحه من النظارة الشمسية الكبيرة والسماعات الدقيقة التي يعلقها في أذنيه والوصلات السلكية السوداء المجدولة التي يلفها حول عنقه:

• حصلني أوام.

قالها ولم يزد، فمشى رجب خلفه وتبعه اثنان آخران لهما نفس البنيان الهيّاب والزي الفخيم ونبرة الصوت الآمرة، صحباه حتى السطح، في الدور الأخير نظر بجنب عينه على البوفيه فوجده مغلقًا، صعد في صمت وهو لا ينظر خلفه، وقف رجب متخشبًا عندما رأى رجلاً يمسك في يده سلسلة تنتهي في عنق كلب، لم يجد لضخامته مثيلاً، ولا حتى في الأفلام الأجنبية، شمشم الكائن الخرافي غرفة المصاعد، لفَّ بشكل دائري مركزه الرجل الممسك بالسلسلة، لسان الكلب يتدلى شبرين ويصدر صوتًا غريبًا، مزيجًا من النباح واللهاث والزئير، أطرق رجب ينتظر الأوامر، فرأى تحت قدميه جوزته مرمية، البرطمان مكسور والخرطوم مفعوص والحجر مكسور ميت حتة، ونثار الفحم مدهوك في بلاط السطح الموزايكو.

على كرسي خيزران أجلسه أحدهم قائلاً له: «لو اتحركت من هنا بدون إذن...» لم يكمل ولكنه أخرج مسدسه الميري وصوبه في غرز ناصيته الغائرة، فنظر رجب للكنترول ولزم الصمت:



- **لا شاي ولا جوزة وكمان حتكتموا على نفسنا.**

قال رجب في سره ثم سرح مع الهواء المنبعث من التكييف المعلق فوق الموتور أمامه وهو يناجي نفسه:

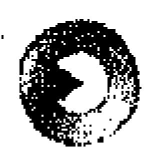
- **تكييف للحديد يا اخواتي.. والبني آدمين يسيحوا بره كده!**

أخرج رجب من جيب البنطلون جزرة وبدأ في التهامها، بين قضمة وأخرى ينظر من سلخة الباب الموارب، بالخارج يقف شخصان، يمسك كل منهما بندقية آلية، فوهتا البندقيتين موجهتان داخل غرفة المصاعد التي لا يوجد فيها إلا الموتور والكنترول ورجب.

نقرت ريش الكونتاكت ريليهات الكنترول إيذانًا بطلوع المصعد. اقترب معالي الوزير من الدور الأخير، ورجب ينتظر مرور ذلك الوقت الممل حتى يشرب كوباية شاي ويشد كرسي معسل، يخرج دخانه من خياشيمه فيتسلطن، أو على الأقل يعفر سيجارة. ولكن المصعد الذي جربوه ليل نهار في الأيام الأخيرة طلوعًا ونزولاً آخر حلاوة استندل مع رجب، توقف بالوزير في ثلث المشوار الأخير، أبى أن يتحرك حتى أقرب باب فيمكن لمعالي الوزير أن يخرج سالمًا، نشطت البنادق الآلية وتحرك رجل يلبس بدلة كاملة وحذاء فاقع السواد تجاه الغرفة، جذب رجب من كوعه وسحبه تجاه الكنترول وقال له بلهجة تاهت فيها مخارج الألفاظ الصحيحة:

- **اسحب الأسانسير لفوق بسرعة.**

هذه هي الفنية الوحيدة التي يعرفها رجب جيدًا، يرشق يد حديدة في



مفرق الفرملة، بالضبط بين فلقتي الموتور، ويجذبها فتتحرك الكابينة يدويًّا حتى أقرب دور بفضل الجاذبية الأرضية، ولكن رجب اقترب أولاً من سكينة الكهرباء، وبدون أن يأمره أحد، وبدون أن يدرك أنه يغامر، رفعها فعاد التيار وأكمل المصعد بمعالي الوزير الصعود مرة أخرى. إلى هنا ورجب يعتقد أن الحكاية قد انتهت. وربما كان يظن أنهم سيصرفون له مكافأة.

صعد الوزير ومن حوله كوكبة متأنقة من الناس، يبتسم وأمامه يتحرك بشر في اتجاهات مختلفة، برغم انبدار السطح بالحرس والأسلحة، فإن الوزير لم يتخل عن ابتسامته، بل ازدادت اتساعًا، يوزعها بين كاميرات كثيرة من حوله لها تكات قوية وفلاشات كالبرق، صعد فوق السطح ليشاهد المنظر المطل على ميدان العباسية، ويرى من أعلى السيارات المقبوض عليها وملقاة في جراج صغير بجوار المبنى، يبدو الوزير بشوشًا، على غير ما يراه رجب في نشرات الأخبار أو في صور الجرائد، يضحك للناس البسطاء ويوزع كثيرًا من وده وقليلاً من أوامره، يمشي بتواضع ويقف بتأمل، ويبدو كأنه يرصد ويحلل ويفكر. حتى عامل البناء الذي كان لا يزال يعجن المونة ويرفعها فوق «الطالوش» لينهي تمحير سور السطح، ذهب الوزير ناحيته واستقرت يده على كتفه، داعب العامل في أبوة ومازحه وسأله أسئلة هادئة:

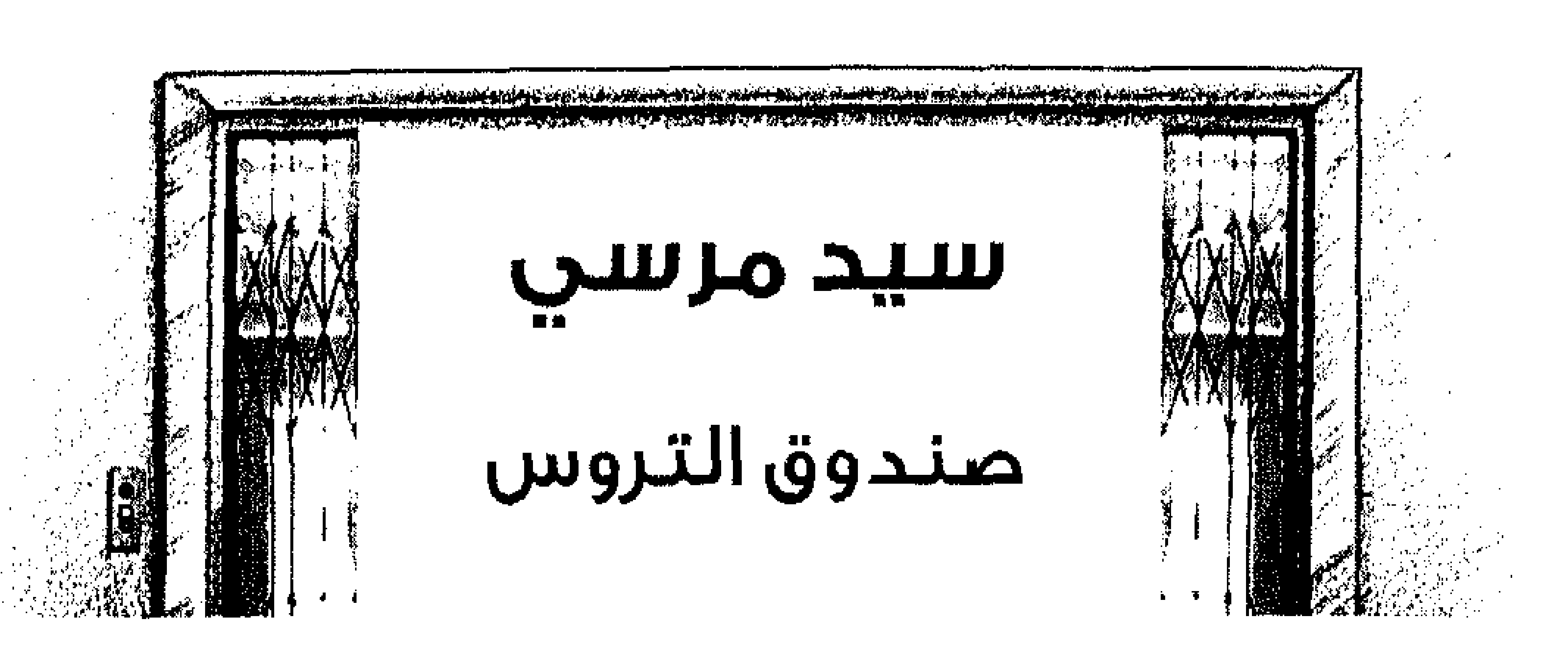
- **اسمك إيه؟ عندك كم عيل؟ أساميهم إيه؟ ربنا يقويك.**

والرجل يقف منكس الرأس وينظر لحذائه، كان محدودب الظهر ومنظره يصعب على الكافر. مد الوزير يده للمسطرين وحمل به لحسة مونة رمزية

ووضعها فوق الطالوش وابتسم، فابتسم العامل في بلاهة - تصدرت هذه الصورة بالذات صفحات الجرائد الحكومية في اليوم التالي- تركه الوزير وانصرف لغيره، رجل تدور في يده عجلة «رولّة» يساوي بها القار المنثور فوق الخيش المقطرن، أمسك منه العجلة الدوارة وسحلها مرتين بعد فعصها في السائل الأسود اللزج، الحراس يبتسمون ثم لا يلبثون أن يتجهموا. من داخل الغرفة كان رجب يتابع تصرفات الوزير وهو معجب بها، ولكنه لا يستطيع التعبير عن ذلك الإعجاب؛ فالبنادق لا تميز وحاملو البنادق ميعرفوش أبوهم.

انتهت الزيارة وانبسط الوزير - أو يبدو كذلك- ورجب أبوالسعود يفكر في فكهاني محترم يشتري منه برقوقًا، فيبدو أن الأوان قد حان لأن تجيب له زوجته أخًا أو أختًا لأبوالسعود بعد طول انتظار، ولكنه قبل أن يرسى على فكهاني بعينه يشتري منه الفاكهة، كانت يد قوية تستقر على كتفه وتربت في بطء، نظر رجب لصاحب اليد، رجل غاية في الشياكة وفي كل أذن من أذنيه سماعة صغيرة سوداء، وفي جنبه مسدس وفي يده لاسلكي وعلى عينه نظارة غامقة. قال الرجل لرجب في ثقة:

- **عايزينك تشرفنا شوية. مش حنأخرك. هما خمس دقايق وحتمشي على طول.**



لسبب مبهم كان كل خفراء الشركة وحارسو مخازنها نازحين من محافظة البحيرة، فلاحون يسعون نحو التمدن عن طريق وظيفة ميري، يلبسون الجلاليب الريفية والطواقي الطويلة المغزولة من صوف النعاج. بمرتب مائة وأربعين جنيهًا يقبلون أن يحرسوا معدات بملايين الجنيهات، ثم بعد ذلك يسعون لأي أعمال هامشية، ينتعون عزالاً ويطلعون به خمسة أدوار أو أكثر، فينفحهم صاحبه ما فيه النصيب، أو يشذبون حديقة ويلفحون الشجر المقروط لأقرب خرابة، أو يساعدون في طلوع مواد بناء أو نفخ عجلة سيارة لأحد السكان، وأحيانًا زقها لغاية الميكانيكي؛ لذا كان لا بد لهم أن يحمدوا الله على الرزق القليل والصحة البغّالي التي يمكنها جر قطار.

وماذا يفعل الخفراء في شركة شندلر؟ دائمًا، لا شيء واضحٌ يفعلونه. بالنهار يلقِّطون الأرزاق بعافيتهم، وبالليل يشعلون راكية فحم، ينفخون فيها حتى تزنهر وتضيء وجوههم بأقنعة ذهبية، يرصون الحجارة ويشربون الجوزة، ثم يدفسون كنكة صدئة ومهببة بين الجمرات المتوهجة في القصعة، ويصبون لبعضهم البعض بق شاي تقيل حبر في قعر الكوباية، ثم يصغون لبعضهم البعض ويستسلمون للثرثرة، تتشابه أمامهم الأيام والليالي، يفقدون

القدرة على الانفعال، يستسلمون لجلسات النميمة ويسلمون أنفسهم برضا لحوارات مملة، ثم يقص كل منهم قصة من حياته، يقدمها محسَّنة ومنقحة، يغلفها ببعض مواقف تضفي عليه مسحة من كرم أو حركة شجاعة، فيلين ما تبقى من الليل ويصبح تحمُّله مقبولاً، ولأن جميعهم قادمون من زمام قريب جدًّا من بعضه؛ فقد كانوا أحيانًا يقصون على بعضهم حكايات مكررة، فعلها نفس الشخص وبالطريقة ذاتها، وكأن الكائن الذي يحكي قد انقسم لشطرين، نصف يروي ونصف يستمع. لكنها في كل الأحوال كانت حكايات طريفة. تستمر القعدات على هذه الحال طوال الليل، وبذلك يصبح من الطبيعي جدًّا أن يناموا أغلب ساعات النهار.

الوحيد من بين الخفراء الذي لم يكن من البحيرة، ولم يكن يرتدي جلبابًا ريفيًّا أو بُلغة أو طاقية طويلة أكثر مما يجب هو «سيد مرسي».

لم يصدق سيد أنه في طريقه لاستلام مهام وظيفته الجديدة، بعد كل هذا الكم من الشقاء والمرمطة لم يكن معهد الأورام غريبًا عليه، كانت زوجته عاملة نظافة بنفس المبنى، وكان يتردد عليها أحيانًا لو أن هناك ما يبرر ذهابه، خاصة أن ابنة زوجته كانت مملة وكثيرة الطلبات.

ستقوم الشركة بتوريد وتركيب مصاعد المعهد بالكامل، وسيصبح سيد حارسًا على بضاعة قيمتها تتعدى المليون جنيه:

- **يا نهار أبوك اسود. دانت كنت بتدعي ربنا يسترها لو اتجمدت معاك خمسين جنيه على بعضها.**

يقول سيد لنفسه بينما مهندس الموقع لا يزال يؤكد عليه ويحذره:

- المكان حساس، والبضاعة اللي فيه غالية، وأي سهو كده ولا كده حتروح ف أبو نكلة.

فرحة سيد بالوظيفة لم تمنحه الشعور بالأمان الكامل، لأول مرة يكون أمام مسئولية حقيقية، لم يعتد مثل هذه التعقيدات، وما الذي سيتغير في حياته بعد أن بلغ الخامسة والثلاثين؟ عمل في مهن كثيرة، لدرجة أنه هو نفسه لا يمكنه عدَّها، مساعد مبلط، صبي نجار، تاجر ساعات مستعملة، لكنه كان فخورًا دائمًا بأنه في يوم ما عمل صبيًّا لدجال. وكانت هذه المهنة بالذات تستحوذ على نصيب الأسد في قعدات الليل.

منذ سنوات ست، عرّفه أحد أقاربه على رجل بدين وبركة، يلبس جلبابًا مزخرفًا مرسومًا عليه قصور سلاطين وحدائق، ورقبته معلق فيها خليط من الخرز مختلف الأحجام والألوان ومعلق في دوبار غليظ. غاب الرجل يومًا عن زبائنه وأعطى سيد إجازة، لكن سيد لم يعط لنفسه إجازة، فقد كانت المفاتيح دائمًا معه، ذهب ليجرب حظه في ذلك اليوم، فعلها على سبيل الشقاوة والمزاح ليس أكثر، دخل في عدة الشغل، القفطان اللامع الكبير، والعمامة التي غطت صلعته الخفيفة وأدفأت رأسه حتى نزَّ العرق، علق في رقبته العقد الطويل ذا الحبات الكثيرة، شعر بمهابة المكانة عندما نظر لهيئته في المرآة وهو ذاهب ليجلس على عرشه الجديد. طرقت بابه في ذلك اليوم سيدة بدينة في حدود الأربعين، كانت تشتكي من حالة غريبة، لا تأتيها إلا عندما يحاول زوجها الاقتراب منها، تأتيها نوبة مفاجئة تشبه الصرع، جلس سيد مكان أستاذه، سحب من الأدراج عدة الشغل، رسم لها بقلم أحمر خربشات وخطوطًا عرضية متقاطعة على ورقة بيضاء سميكة، طبّقها وربطها بأستك ودس يده

في قروانة صغيرة بجواره بها ماء ورد، ثم نثر يده على الورقة فصارت حجابًا، وبرغم أنه كان يكسب في الساعة المستعملة أم عقارب خمسة جنيهات على أكثر تقدير، فإنه طلب من السيدة خمسين جنيهًا حتة واحدة، أخرجت من عبها لفافة تحتوى على كثير من العشرينيات، سحبت منها ورقتين:

- **دول أربعين جنيه. وهدِّيك ستين لما ربنا يشفيني يا شيخ رزق.**

همَّ سيد بمصارحتها، فهو ليس الشيخ رزق، وحاول تذكيرها أيضًا بأنه طلب خمسين جنيهًا فقط وليس مائة، ولكن سطوة الفلوس وحلاوة منظرها ألجمت لسانه، أخذ منها الأربعين جنيهًا ودسها في جيبه. بعد أيام قليلة ترك العمل عند الشيخ رزق، تطَّلع لأن يصبح تاجرًا، كان يشتري الساعات الصيني الرقمية بالكيلو، تقف الساعة بحسابات الجملة بستين قرشًا، يبيعها للواقفين في الأسواق والميادين بجنيه، والذين كانوا بدورهم يبيعونها للزبائن بجنيهين ونصف. وفيما كان سيد يحاسب أحد السريحة في سوق الجمعة، لمحته السيدة التي كانت تشتكي من حالة الصرع، تعرفت عليه، ولما اقتربت منه أنهى حواره بسرعة مع السرِّيح، انطلق والسيدة من خلفه تعدو، داس على أقدام كثيرة وهو «ملخوم» ومتعثر الخطى، نظر خلفه بشكل خاطف، بدأ يهدئ من خطواته عندما اطمأن أنها تاهت في زحام البائعين والناس، وبعد أن وقف يستريح ويمسح عرقه فوجئ بيد تطبطب على ظهره، التفت فوجد السيدة تضحك في وجهه ضحكة بطيئة زادت من رعبه وارتباكه:

- **انت مش فاكرني يا شيخ رزق؟**

مر أحد النشالين في لحظة نطقها بالاسم فرفع حاجبيه ونظر لسيد قائلًا:

- **إنت سميت نفسك الشيخ رزق يا بن العبيطة؟**



كظم سيد غيظه وكز على أسنانه محاولًا أن يشرح لها وهو يتابع النشال بطرف عينه:

- **لأ. حضرتك الظاهر بتشبهي عليَّه.**

شبت السيدة تتأمله أكثر، سرحت في ملامحه حتى كاد أنفها يلمس طرف ذقنه:

- **لأ. إنت الشيخ رزق.**
- **والنعمة ما رزق. حلي عني بقى.**

واربت السيدة عينها وكرمشت ملامحها وقالت بإصرار وهي تضرب يدها في عبها:

- **على العموم الندر دين. وأنا عليه ندر ليك. الستين جنيه. من ساعة ما خدت حجابك المبروك وأنا زي الفل يا شيخ. قطعت نفسي وانا بجري وراك. لففتني السوق كله. أنا عارفة زهد المشايخ. وعلى العموم لو مش عايزهم ابقى حطهم في جامع.**

تركته السيدة وانصرفت، وقف سيد وفي يده الستون جنيهًا مندهشًا، تائهًا وحائرًا كشخص تسلمه الممرضة أول مولود له.

تعرَّف سيد منذ سنتين على زوجته «محبات» وهي تشتري ساعة لابنتها «سلوى» عندما نجحت في الصف الثاني الابتدائي، يعرف سيد أنها مطلقة، كان ينسجم في الحديث معها وينفلت الوقت بدون حساب، حتى أصبحت تذهب إليه مع كل من يريد شراء ساعات من أقاربها، تطورت العلاقة حتى أصبحت تشبه العادة، يتحدثان في كل الأمور، الدنيا، الغلاء، المواصلات، حتى أصبحت المسافة بينهما تسمح بأن تقول كلمات تلمح ولا تصرح:

- **هيَّ الواحدة حتحتاج إيه من الدنيا غير راجلٍ تتدارى في ضله بالحلال. المشاكل كلها دلوقتي في الشقق يا خويا. بس الحمد لله شقتي عندي.**

شقة محبات في منشية ناصر رغم صغرها، إلا أنها «متوضبة»، الحيطان مدهونة بالزيت، والأرض يزيِّنها الموزايكو، أما المطبخ والحمام فمبلطان للسقف بسيراميك درجة ثانية من الغالي، ومزودان بخلاطات السخن والبارد، والسجاد مبروم ومركون تحت السرير ينتظر دوره، حتى النجفة التي اشترتها من درب البرابرة لا تزال بالمشمع.

كل هذه الإغراءات لم يستطع أحد في ظروف سيد أن تمر عليه دون أن يسيل لعابه أمامها، وماله، زوجها مات، غرق وهو يسلك بالوعة في مدينة نصر. محبات ليست فاقدة للجمال، ولم تكن أيضًا صارخة الجمال، كانت تقف في تلك المنطقة الواقعة بين الاثنين بالتقريب، تنتمي لذلك النوع الذي يسمونه مقبولًا، بدينة بغير بروزات مقززة أو لافتة، كانت من ذلك الصنف المدكوك الشقيان، أسنانها كبيرة ومتفرقة، لكن يجب ألا ننسى أن الكامل هو الله، فلا يمكن تغافل أن محبات «جدعة» قامت بتربية ابنتها سلوى، وهي الآن في الصف الرابع الابتدائي، ليست مشكلة أنها تكبر سيد بسنتين وعدة أشهر، وماله، فالنبي عليه أفضل الصلاة والسلام تزوج من السيدة خديجة وهي تكبره بخمسة عشر عامًا، أقنع سيد نفسه ثم توكل على الله وتزوج من محبات، تركت سلوى عند أمها ثلاث ليالٍ ابتداء من ليلة الدخلة.

لم يكن سيد يصلي غير صلاة الجمعة، ومع ذلك كان يستشهد بآيات وأحاديث وأقوال مشهورة لتريحه، أو قولوا التنفذ رغبته بدون أي تأنيب،

بعد مرور شهرين على الزواج، بدأت محبات تتحدث عن رغباتها الجديدة، فهي لا تقبل أن «يتنطط» زوجها في الأسواق مثل فرقع لوز:

- **الصحة والعمر مش مضمونين يا خويا، لازم تشوفلك شغلانة حكومة، برضه مهما كان مرتبها ضعيف بس بتعمل للواحد كرامة.**

لم تخل ليلة واحدة دون أن تفاتحه في هذا الموضوع، بعد أن ينقض سيد عليها (كانت تفضل عنصر المباغتة في السرير) وتمتعه بغنجها وفنونها المكبوتة، تعوِّض معه سنوات الانتظار، وتتفوق على نفسها عندما تدرك أنها ليست جميلة بشكل كافٍ، تثبت له معرفتها بألوان البدع والدلع، وأنها ليست أقل من إلهام شاهين أو نادية الجندي، حفلات بالحلال لا تكلفه سوى نصف كيلو كفتة أو أربعة أرغفة حواوشي، وأحيانًا تتبرع محبات بعمل صينية لحمة راس بالبطاطس إنما إيه؟ كانت ماتشات العيال وهم يلعبون الكرة تحت شباكهم تشوِّش على صوتهم الفاضح. بعد أن يفرغ سيد فيها أشواقه وهمومه، وبعد أن يستقر جسده ساكنًا يشعل سيجارة، فتنام محبات على صدره وتفاتحه في نفس الموضوع وهي تمرر أصابعها ببطء وحنو على شعر صدره:

- **كان عندنا في معهد الأورام واحد بيعمل عملية، عرفت إنه مهندس كبير في البلدية، كلمته في الموضوع، قاللي إنهم طالبين كناسين، قلت له لأ يا باشمهندس، بقى عاوز سيد جوزي يكنس الشوارع؟! بقول لسعادتك عايزة وظيفة محترمة.**

كانت تختبر رد فعله دون أن تحرجه، مرت فترة صمت قصيرة سحب سيد خلالها نفسًا عميقًا دون أن يرد، فتوغلت محبات في فتح السيرة على مصراعيها.

• **مانت بس لو كان معاك الإعدادية يا عرب، كانت فرقت معاك كتير.**

ظلت تحاول بحماسة لا تهدأ حتى توسطت له، وفاز بأن يعمل خفيرًا على معدات المصاعد بشركة شندلر، لم يكن مثبتًا لكنه كان عاملاً باليومية:

• **اللي باليومية النهارده بكرة يتثبت يا خويا.**

شدت محبات من أزره وأشعلت عزيمته، فقد كانت في يوم ما عاملة نظافة باليومية، أما الآن وبعد ثماني سنوات من العمل بمعهد الأورام تم تثبيتها ورفع أجرها، فضلاً عن كفاحاتها المتعددة التي كانت تساعدها في المصاريف، كرسم نقوش الحناء للأجانب في المزارات السياحية الصغيرة كالأسبلة وقهوة الفيشاوي وبازارات خان الخليلي، نقوش تختارها السائحات من كتالوج صغير كان دائمًا في شنطة يدها، سنابل وورق شجر ونجوم ترسمها محبات بصبر وابتسامة لا تفارق ملامحها الكبيرة، تخرج بعد أقل من ساعتي شغل بمكسب عشرين جنيهًا، فضلاً عن أعمال أخرى غير مستقرة ولا دائمة تقوم بها حسب قرارات حكومية مفاجئة. فعندما فتحت وزارة التموين الباب لإصدارات البطاقات الجديدة، كانت محبات أول من يقف على باب بوستة منشية ناصر تبيع استمارات البطاقات وطوابع البريد اللازمة، تصور ألف نسخة في ميدان العباسية، الورقة بأربعة قروش وتبيع الواحدة بجنيه، بالإضافة لملء الاستمارة بخط منكوش على قد إعداديتها بجنيه آخر، وبعد يوم عمل متعب لم يكلفها سوى إجازة عارضة وبعض مجهود عوَّدتها عليه الأيام. تكسب مائتين أو ثلاثمائة جنيه على الأقل. أما عندما رفعت إدارة المرور غرامة عدم وجود حزام الأمان في السيارة لخمسمائة جنيه؛ كانت محبات هي

أول من اشترت مكنة خياطة «جوكي» نصف عمر، واشترت "بكر سيور" يباع بالكيلو في شارع الموسكي - كان مصنَّعا "مخصوص" لحمالات الشنط المدرسية- وتنجز منها خمسين حزامًا يوميًّا، مكسب الواحد خمسة جنيهات، في بوستة منشية ناصر تشيل اللي ربنا يرزق به، وكالذي يضع في بناية كل يوم قالب طوب، فلما انتهى وجد أمامه بيتًا كاملاً، بالضبط كان حال محبات، خمسة وثلاثين ألف جنيه (ما زالت تخفي بعضها عن عين سيد حتى الآن).

سرحت محبات وهي تفك اشتباك خصلات شعرها بتأنٍّ:

- **بكرة الصغير يكبر في شغلانة الحكومة. وبعدين شغل السوق من غير تأمين أو معاش مش مضمون ومالوش أمان. حتى لو حتكسب من بيع الساعات ميت جنيه في اليوم.**

أتم سيد الأسبوع الثاني لاستلامه العمل، سيكون للماهية مذاق حلو، مائة وأربعون جنيهًا أول كل شهر، ومحبات تتقاضى مائتين وثلاثين جنيهًا غير الحوافز، ستصبح الحياة أفضل والقشية معدن، وخاصة بعد تعرُّف سيد على أم فاتن الطبَّاخة في معهد الأورام، كانت امرأة بدينة لدرجة أنها لا تقوى على القيام من مكانها، لا تتحرك إلا للضرورات القصوى، كأن يستدعيها أحد الأطباء لأمر عاجل، أحيانًا «يراضيها» لأنها أتقنت صنع الطعام، وأحيانًا يوبخها لأن الأكل كان ماسخًا أو تأخر عن ميعاده. وأم فاتن هي مسئولة الطهي لأطباء الامتياز، شباب في عشرينيات العمر، يضمهم «ميس» عبارة عن منضدة طويلة أكبر قليلاً من ترابيزة السفرة المنزلية، ينتشرون حولها واقفين في الغالب، ولأنهم يبيتون أحيانًا في معهد الأورام فقد كانت

أم فاتن تطبخ ثلاث وجبات في اليوم، وبالطبع كانت تحتاج لمن يشتري لها الخضراوات ويغسل الصحون، وكان أفضل من يقوم بتلك المهمة هو سيد.

ولأن ترتيبه كان التاسع بين إخوته، ولأن أباه كان شيخًا كسولاً يتقاضى معاشًا وهو لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد؛ كان قد أصيب بخرق في الأذن الوسطى أخرجه باستمارة طبية من خدمة القوات المسلحة عام 1965 فأصبحت خلفة العيال هي الوظيفة التي بدَّلها أبوه بالخدمة في القوات المسلحة، أما أمه فقد أنهكتها كثرة الولادات، ولذلك، أصبح كل فرد في الأسرة يخدم نفسه بنفسه، بدءًا من غسيل ملابسه مرورًا بالطبيخ وترتيب السرير وانتهاء برمي الزبالة.

كان سيد مهيئًا تمامًا لأن يشتغل مع أم فاتن، يشتري لها الخضراوات، يُقلم معها البامية أو يقشر البطاطس أو ينقي الأرز، كانت تنفحه خمسة جنيهات يوميًا بالإضافة لغداء متين فيه من الزفر أكثر ما فيه من أرز وخضار، كان يترك محركات الشركة ومعداتها ويذهب نشيطًا لأداء الشغلانة الجديدة، وعندما تراوده الهواجس يقول لنفسه:

«هيه يعني العفاريت حتاكل المواتير؟ دا حتى الحرامي لو عبيط مايقدرش يمد إيده عليها. وبعدين حيخرج بيهم منين وازاي؟».

مرة بعد مرة أصبح مقر سيد الأساسي مع أم فاتن، وتواجده بجوار معدات شركة شندلر هو الاستثناء. يجلس بجوارها، يحكي لها وهو يقضم باذنجانة رومي، يستحلاها فيأتي عليها كلها ويكمل حكاياته وقد اسودت أسنانه. تطورت مهامه حتى أصبح يشتري السجائر للأطباء، وبالطبع لا يأخذ الطبيب الباقي ويقول لسيد «خلاص بقى. خلي الباقي علشانك»،

أضف لذلك مهمة أخرى كان سيد يقوم بها في معهد الأورام دون أن تعرف أم فاتن أو حتى محبات عنها شيئًا.

صاحب سلسلة مطاعم «أبوظريفة» الشهيرة في وسط البلد، كان رجلاً خيِّرًا، معروفًا عنه مساعدة المحتاجين ببعض المعونات، أطلق بعض الخبثاء إشاعة تقول إنه يعمل دعاية لسلسلة محلاته، لكن الظاهر أنها مجرد إشاعة، فالرجل تبدو عليه قسمات التقوى وهو يتقدم موكبًا صغيرًا، في الصدارة يحمل اثنان من رجاله لافتة من القماش تشبه لافتات الانتخابات مكتوبًا عليها «قافلة أبوظريفة لرسم ابتسامة صغيرة» يحمل مندوب عنه شنطة سمراء كبيرة، في منتصف يناير من كل عام يأتي، يعرف كل العاملين بالمعهد محتويات الشنطة، أظرف كبيرة على مقاس ورقة النقود بالتمام، أظرف كثيرة بلا عدد، ومن خلفه يسير موكب يضم خمسة عمال، يحملون على أكتافهم بطاطين ملونة بأكياسها، وكراتين مغلقة مرسومًا عليها خلاط، أو تلفزيون صغير، أو طقم أكواب صيني، كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها سيد موكبًا كهذا، عمال المعهد بالكامل يهرولون خلف الرجل الذي يسير بثقة لا تخلو من تواضع، يتقدم وهو يحمل شنطة ويلبس نظارة شمسية كبيرة، كان من بين السائرين خلفه «كامل» عامل الأمن الطويل النحيف، سحب سيد الذي كان يقف قريبًا منه من يده:

«تعال يا واد، تعال بس».

قبض كامل على يد سيد وقال:

«رزقك يا عبيط، النهارده عيد، اللي في المعهد كلهم بيستنوه من السنة للسنة».

في غرفة خالية أشبه بمخزن كان جميع أفراد الأمن تقريبًا نائمين، وكأنهم يعانون من حمى جماعية، معهم بعض الطباخين وعمال النظافة، يفترشون الأرض بأجسادهم ويتوجعون، استلقى كامل على أحد الأسرَّة وسحب على نصفه الأسفل بطانية بالية ومليئة بالثقوب:

«نام يا بن الصرمة هنا، نام واتغطى، وكل اللي عليك إنك لما يدخلوا تفضل تقول آه للصبح».

قال كامل لسيد وهو يشير له على السرير الذي سينام عليه، استلقى سيد، فعل كما فعل كامل بالضبط، بعدما انتهى صاحب قافلة الخير من المرور على كل الغرف والعنابر ساقه رجل الأمن للغرفة التي يتمرغ فيها المرضى «المنظر» دخل الرجل وهو يحمل شنطة سوداء منتفخة ومقببة، وبإشارة من إصبعه يعرفها جيدًا السائر من خلفه. يضع بجوار الشخص النائم مظروفًا أو بطانية جديدة أو طاقم أطباق صينيًا، كان نصيب سيد ظرفًا به مائة جنيه وبطانية لها شنطة بسوستة، تأمل البطانية جيدًا، كانت ألوانها فاقعة ومبهجة، ومرسومًا عليها فتاة صغيرة تجلس في بستان، تخيل ملمس فرائها الناعم ونسى أن يقول آه، رفع كامل من صوته لكي ينبه الزبون المستجد، فأخذ سيد يصرخ بصوت عال وكأنه محتضر في النزع الأخير.

بعد خروج القافلة جذب كامل البطانية التي كان مبرومًا فيها ورماها على الأرض، ثم اتجه ناحية سيد قائلاً:

«قوم يا بن العبيطة، مشيو خلاص، انت صدقت انك عيان».

قال كامل وهو يفتح مظروفه ويكبش ما بداخله من فلوس.

بعد حوالي سنة، انضم سيد لقافلة الصيانة بالشركة، خرجت دفعة من العمال بنظام المعاش المبكر، وبالرغم من أن لوائح الشركة هي التي أخرجت العمال. فإنها هي أيضًا التي أعلنت عن احتياجها لعمال جدد! هل يمكن لسيد بعد حياة عشوائية حافلة أن يكون مسئولاً عن حياة البشر داخل المصاعد؟

هذا بالضبط هو ما حدث، سيد الآن عامل في مركز الصيانة.

كان كرشه قد برز قليلاً نظرًا لظروف الزواج، وكذلك أيضًا بطن محبات:

«أهو نجيب أخ للبت يا خويا. ماحدش ضامن غدر الزمن. واديك ح تبقى عامل مش غفير. وربنا يعلي مراتبك وتبقى فني قادر يا كريم».

كرب الأسرة الريفية عند بلوغه الخمسين، يهيئ سيد نفسه لئلا يعمل على الإطلاق، كانت هناك بالشركة وظيفة تقترب جدًّا من هذا المعنى «رئيس الفرقة» وهذه الفرقة لا تتعدى أربعة عمال، أما رئيسهم فكانت وظيفته المدونة في الأوراق هي المتابعة والمحاسبة والتطوير المستمر، وأما ما كان واقعًا بالفعل فهو عدم المتابعة وعدم المحاسبة والركون الذي يسميه استقرارًا. ولأن سيد ابن سوق فقد فهم اللعبة منذ اليوم الأول، كان رئيس الفرقة التي يتبع لها رجلاً صعيديًّا اسمه «رأفت»، كان بدينًا جدًّا وكسولاً، طويلاً ويشبه لاعبي المصارعة، يجلس على قهوة «بدير» لساعات طويلة، يتكاسل في هش أسراب الذباب بعيدًا عن وجهه، يشرب الشاي والشيشة على حساب العمال، مقابل أن يتركهم يمرحون، يجلس سيد مع رأفت على القهوة حتى العاشرة، يحاسب على المشاريب له وللأسطى رأفت، ثم يترك شنطته السوداء بالزيت والجاز والشحم والأسطبة عند بدير على سبيل الأمانة حتى الغد، يتكرر نفس المشهد

طوال أيام الأسبوع، ما عدا يوم الخميس، يحمل سيد الشنط الخمس ويضعها في شنطة واحدة كبيرة، يتجول بين العمارات؛ فكلها في منطقة إمبابة، وهكذا يضغط الأسبوع كله في عدة ساعات.

أما «سعيد توفيق؟» مسئول التوقيعات الرزل، فقد عرف سيد مفاتيح شفرته هو الآخر، فمثلما يحاسب سيد على شايات وشيشات رأفت رئيسه في العمل، كان يفعل ما هو أقوى لسعيد، محبات تأخذ بالها جيدًا من «دسوقى» خال سعيد. والذي يرقد في معهد الأورام منتظرًا فرج ربنا، كانت محبات تتابع صرف جرعات الكيماوي لدسوقي، لم ينس سيد أبدًا ولو لمرة في الأسبوع أن يذكر سعيد بذلك:

«والله أم العيال زعلانة أوي عشان خالك. كل يوم بسألها عليه. بس بعون الله ربنا حياخد بيده».

وماذا يفعل سيد في الأيام الخمسة من السبت حتى الأربعاء؟

يستقل أتوبيس 730 على أنه ذاهب لإمبابة، ولكن نفس الأتوبيس يمر على معهد الأورام، يقضي يومه تمامًا كما كان يقضيه قبل الانتقال للعمل بالصيانة، أو قولوا إن أوراقه الرسمية ذهبت وحدها بدونه لمركز الصيانة بجواد حسني، فأم فاتن ما زالت تنتظره ليشتري لها الخضراوات، وزوجته تطلب له شايًا من البوفيه، يجلس مع بدلائه من الخفراء الريفيين؛ الذين هم بالطبع من محافظة البحيرة، يتحدثون عن الفرق بين الساعات الياباني ومثيلاتها الصيني، يتندر أمامهم على أيام ما كان يلبس الساعة الرادو والنظارة الإيطالي الأصلية ماركة ريبان، والبنص الأبيض اللميع ماركة زلط، يحنُّون

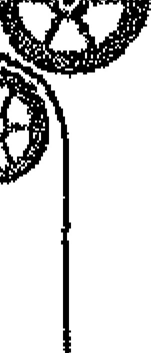
لأن يسمح لهم الزمان باستخدام هذه الأشياء مثله، فهم لا يعرفون عنها إلا أسماءها، أما هبات الرجل صاحب سلسلة المحلات الشهيرة فلم تعد وحدها مصدر النفحات، فقد اكتشف سيد أنه لا يمر شهر بدون مساعدات من الناس «المبسوطين»، لكن الشاطر اللي يعرف، فكان مرة يختبئ تحت بطانية، ومرة يعرج في الردهات، لكن أصعب المشاهد التي أصبح سيد يتقنها، أن يجلس بجوار كامل الذي يخلع عنه ملابس الأمن الزرقاء ويلبس جلابية بيضاء، يسحب سيد فوقه أغطية كثيرة، ينخرط كامل في بكاء تمثيلي، سيد يمسك في يده طرف شوال أبيض وبداخله قطعة خشب كجذع شجرة، يدلق على مؤخرة الشوال بواقي أكواب كركديه يوصِّي عليها عامل البوفيه، يجر الشنطة أمام الرجل حامل الشنطة الدافئة بالأظرف أم ميات قائلاً وهو يوجه كلامه لكامل:

«قدر ربنا بقه، قطعوهالك يا خويا، معلهش، إن الله مع الصابرين».

يحرص سيد على أن يسمع الرجل المبسوط، أو المندوب عن المبسوطين كل حرف من كلماته، ينظر الرجل بأسى، وربما باشمئزاز للقدم المعبأة في الشوال، يخرج ثلاثة أو أربعة مظاريف، يضعها على طرف السرير، ثم ينفح سيد مظروفًا هو الآخر، يدعو كامل للرجل بدعوات تليق أكثر بالنساء:

«ربنا ينجح مقاصدك، ربنا يسترها معاك دنيا وآخرة».

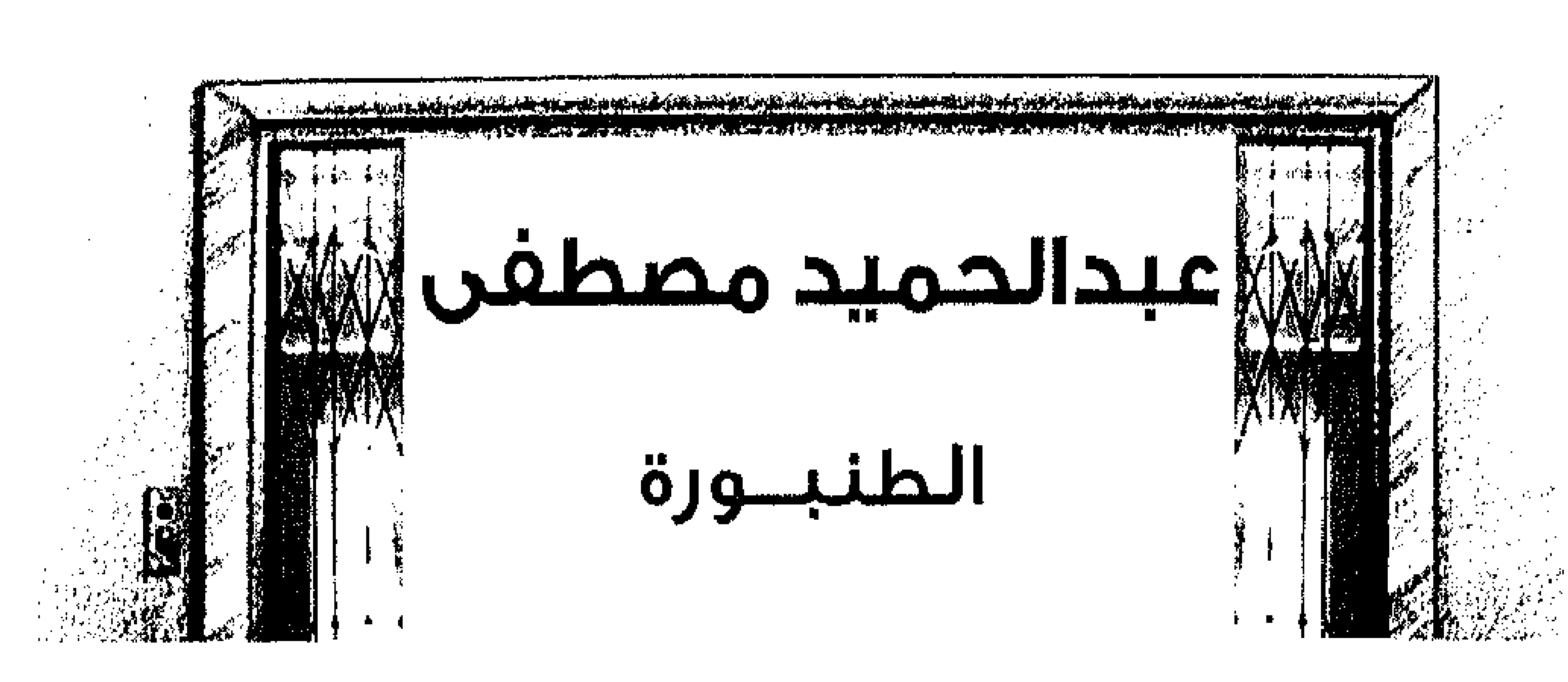
بعدما ينتهي المولد يقفز كامل من السرير، يتقاسم محتويات الأظرف هو وسيد الذي أدمن اللعبة.



لم يعد سيد يفكر في تجارة الساعات، ولم يعد حتى يخطر بباله أن يذهب ولو متفرجًا إلى سوق الجمعة، ففي بنك مصر فرع المنيرة ادَّخر خمسة آلاف جنيه وكسور، لم يدخر مبلغًا كهذا طيلة حياته، يبدو أن زوجته محبات كانت محقة:

«مَهْما كان قرش الحكومة فيه بركة برضه يا خويا».

أما عن مرتبه في الشركة فقد نسي أن يتقاضى أجره عن أحد الشهور، وأما عن خال سعيد توفيق فقد توفي بشكل متوقع، لم يكن موته يشكل معضلة بالطبع، لكن المشكلة الحقيقية، هي اختراع عِلة جديدة لتغيبه بكروت الصيانة وعدم ممارسته لعمله لمدة خمسة أيام في الأسبوع.



عبدالحميد مصطفى

الطنبـورة

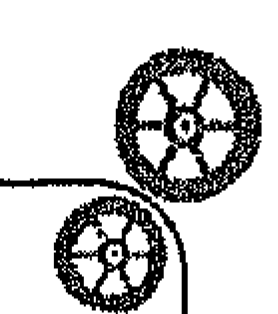
في سـنوات العمـل بالشركـة، قـضى الكثير من العـمال أثنـاء خدمتهم في قطـاع المصاعـد، فأحدهم سـقط في المنْور وهـو يلملم كابل «بلـدوس» من فوق سـطح عمارة التأمين بشـارع 26 يوليـو، فلف وتعقد عـلى قدمه، أربكه لجزء من ثانية، فهوَى لأسـفل بعد أن ترك في الأعلى شـنيور بغير بنطة ومفك تيسـت وأمـل لم يتحقق بتثبيت قواعد الكنـترول، ومنهم من كان يبحث عن «زرادية» في ليلة مظلمة فوق سـطح عمارة استراند، فترنح قليلاً قبل أن يثقل رأسـه ساحبًا معها باقي جسده للفراغ، فرشـق بطنه في أسياخ تبقت من بناء «فارمة» خرسـانية تسـتقر عليها المصدات الحديدية الضخمة في بئر المصعد، ومنهم من زلقت قدمه من فوق سلم الخدم فركب الهواء سابحًا في الملكوت، يـرى بالمقلوب أدوار عمارة الإيموبيليا تتناقص حتى انتهت، وانتهى، بعد أن نـزل زرع بصل وقدماه تتضرعان للسماء كمحاولة أخيرة للحاق بأي شيء، فتكوم بجوار ركام أو زبالة حتى تنبه البواب لصراخه الواهن، أو مر بجواره صدفـة أحد العابرين. ومنهم من جمدته الرهبة وهـو ينظر من على «الطبلية» أثناء تركيب الكابينة، ولما رأى قاع البئر من على ارتفاع ثلاثين دورًا في حجم علبة كبريت؛ سقط كلوح «لطزانة» واستقر نَفَسُهُ الأخير فوق صبة خرسانة،

فنفضت جسده لأعلى قبل أن تخرج منه بعض قطرات دافئة حمراء استقر بعدها للأبد، ومنهم من حُشر بين الكابينة والحائط كفأر زُنق تحت عقب باب، فتطبق وجهه وانطحنت عظامه، ومنهم من تشعبط على الثقل الموازي للكابينة بمتوسط رِكابِها، فتسلق الحبال الصلبة لدور أو دورين، ولما سخَّنت الحبال يده وجلطت القشرة الجلدية كفه، وسحلت ما تحت الجلد من لحم حي وأوردة وشرايين حساسة، سابت يده مرغمة فسقط عشرين دورًا يترنح ويتخبط في القضبان والحيطان قبل أن يستقر نهائيًا كخرقة بالية تحت أعتاب المصعد، هدأ بعد صرخة طويلة يعلم يقينًا أنها الأخيرة، فيزيد منها ويجعل لها ذيلاً ممدودًا بامتداد قدرات أحباله الصوتية، يتردد صداها في بئر المصعد قبل أن يتكور جسده على طنبورة تلفه وتأخذه في معجنة كالطاحونة، تهرسه الحبال الصلبة المتداخلة مع بعضها البعض، فيصعب فض اشتباك جسده العالق إلا بأعجوبة.

ومن العمال من كان حظه أوفر وفاز بفتاء أو زحزحة الفقرات القطنية من عمودها المكين، ومنهم من أعطاه نصيبه «فقط» عاهة مستديمة، ومثل هؤلاء العمال كانوا يحمدون الله دائمًا على أنه أخذ منهم اليد وترك الرجل، أو أخذ الكف وترك الكوع، أو أخذ كف وكوع الذراع اليمنى وترك اليسرى كاملة. كانت مثل هذه العاهات واضحة لا تحتاج لبيان، فتظهر في عرج يسير صاحبه متمايلاً كهودج، أو إصابة تُذكِّر صاحبها بها في كل خطوة، وفي كل درجة سلم صعودًا أو هبوطًا، ومنهم من كان يُسلم على الناس بشماله لأن يمينه عاجزة عن السلام. ومن هؤلاء كان عبدالحميد مصطفى، فكف يده اليمنى بلا أصابع، عدا الإبهام، كف بتراء وإصبع وحيد يتحسس باستمرار

مكان الأرض التي اجْتُثَّ زرعها، كفه دائمًا في وضع القبضة، تعوَّد مع مرور السنوات على الشكل الجديد، لكنه لم ينس أصابعه التي تساقطت واحدًا تلو الآخر، جزء من جسده، لحم مشرشر مخضب بالدم تركه ووقع تحت قدميه، يوم مر عليه ربع قرن.

كان عبدالحميد ضمن فريق عمال الصيانة، وهو لم يتم بعد عامه الخامس والعشرين، وكأغلب العمال الذين يسرحون ويتخيلون أثناء العمل - وما أكثر الأشياء التي يمكن لشاب في هذه السن أن يسرح فيها- أسند يده سهوًا تحت أربعة أحبال صلبة توازن بين الكابينة و«الثقل»، بلل قطعة أسطبة بالجاز، شرَّبها قليلاً من الزيت، بدأ تلميع جسم الموتور في غرفة المَكنْ، كانت يده اليمنى تعمل بهمة ونشاط، فيما يده اليسرى ما زالت ساندة على الطنبورة الكبيرة وحِمل جسمه كله متكئًا عليها، تحرك المصعد من الدور الذي بلغه للدور الذي يليه، لفَّت الطنبورة فهرست تحتها أربعة أصابع من كف اليد اليمنى، داست الحبال الصلبة بثقل يتعدى نصف طن على منبت أصابع عبدالحميد، تفرطت كحبات عقد أسفل الموتور، رجت صرخاته غرفة المواتير وانطلقت تشق سكون الأسطح المجاورة، سحب ما تبقى من يده ليجدها تسيح في دمها وتشخب، رفعها وكأنها ذُبحت، وكأن ناحرها أخذه على خوانة، فحرمه منها في لمح البصر، وقبل أن يغشى عليه رأى أربع قطع من جسده تسقط أمام عينيه بطريقة يصعب معها الوصف أو التذكر. البوابون لهم سيئات لا تحصى في معاملة العمال، ولكن أيضًا لهم حسنات كثيرة، كانت على رأسها أنهم أول من يسعفون العامل في مثل هذه الحالات ويقفون إلى جواره. في مستشفى حكومي بائس أفاق عبدالحميد على كفه



غائبة في لفائف مكورة كرأس، تحاصر كفه غلالة مقببة من الشاش والقطن المُشرب بالبيتادين، يطل على استحياء طرف إبهامه وحيدًا، بائسًا.

عند تقاضي مرتب الشهر التالي، وقف أحد زملائه وهو يمسك بكيس بلاستيك شفاف، يمد به يده لكل من يخرج من طابور الصراف، عمالاً وموظفين ومهندسين، لم تخرج جملته المتكررة عن:

- **ساعدوا أخوكم عبدالحميد مصطفى.**

منهم من كان يضع في الكيس خمسة جنيهات، ومنهم من يدس عشرة، ومنهم من يرمي بجنيه، ومنهم من يدعُو له بأن يقوم بالسلامة لبيته وأمه الست الكبيرة، وهذا أضعف الإيمان. في نهاية يوم القبض لمّ زميله مئة وسبعة وأربعين جنيهًا، فأتمها مائة وخمسين ثم أغلق الكيس وذهب مع اثنين آخرين يزورونه، كوّر الكيس ووضعه تحت الوسادة التي تحمل رأس عبدالحميد وهو يقول:

- **الزملا بقى. معلهش حاجة بسيطة. هما اللي صمموا والله. عقبال ما تقوم إن شاء الله بالسلامة.**

وقبل أن تعمل أمه الذي هو وحيدها لزملائه شيئًا يشربونه، كانوا يهمون بالانصراف بعد تدبير كلمات يختمون بها الزيارة.

بعث إليه رئيس مجلس الإدارة بجواب شكر - وهو لا يعرف على ماذا- ومرفق معه شهادة تقدير، ورقة مزخرفة ومختومة بأختام الشركة الحمراء ومذيلة بختم النسر الأزرق، ما فهمه عبدالحميد بعد قراءة الخطاب وبعد طول

إجهاد أن الشركة نقلته من أعمال الصيانة للأعمال الإدارية، قرار ظاهره الرحمة، ولكن يبدو أن باطنه هو عين العذاب، فعبدالحميد لا يجيد القراءة والكتابة، ولا يعرف الكلمات إلا بالشبه، كيف إذن ستوكل إليه أعمال إدارية؟. فضلاً عن أن حركته بهذه الوظيفة الجديدة ستنخفض للنصف، وبدلاته أيضًا.

والآن، يجلس عبدالحميد بعد مرور حوالي ربع قرن في نفس المكان الذي تم نقله إليه، حجرة بها عدة تليفون أثرية يتلقى عن طريقها «أوردرات» الأعطال، لم يغيروها منذ أن جلس على المكتب الإيديال والكرسي الخيزران الذي يشبه تلك التي تستخدم في أعمال الفراشة، خلْف عبدالحميد مركون دولاب إيديال، نصفه الأسفل متآكل وضُلفه مائلة على جانب واحد، أدراجه كلها مباحة تعلوها طبقة من الأتربة ونسيج من خيوط عنكبوت قديمة، ودفاتر تشبه أغلفتها ألواح أبلكاش سوداء، مُطوقة بجيوش من الغبار وملفوفة في شيكارة بلاستيك بيضاء، أما ضلفة الدولاب الوحيدة السليمة فمرصوص فيها عدة الشاي.

غيرت القعدة في الغرفة المحدودة كثيرًا من شخصية عبدالحميد، فتعوُّدُهُ على تسجيل طلبات الأعطال أعطاه فرصة كبيرة لتعلم القراءة والكتابة بشكل جيد، في البداية كان يسجل الاسم وبجواره رقم التليفون، ثم تطورت مهاراته في الكتابة فأصبح يضيف سبب العطل، ليرفعه بدوره في خطاب لمسئولى الأعطال، وكان فخورًا أنه يكلم الفنانين، فمرة اتصلت به الفنانة «ماجدة» شخصيًا من مكتبها في عمارة الإيموبيليا بشارع شريف، ومرة شخط فيه فؤاد المهندس في التليفون، ويسرا ترجوه سرعة الإبلاغ عن

تعطل مصعد عمارتها. في البداية لم يكن أحد يستطيع قراءة خطه سواه، ولكن مع مرور الوقت تحسن كثيرًا، لم يتوقف الأمر فقط عند هذا الحد، ولكنه أصبح يقضي على الوقت الممل بالقراءة. فوق رف صغير ظل كتاب واحد مركونا لأعوام طويلة، كان مرسومًا على غلافه رجل يلبس جلبابًا أبيض ويرفع يده متضرعًا للسماء، ومعنونًا بـ «مذكرات لص تائب» ظل يحكي لكل من يجلس معه حكاية اللص التائب وكأنه من بقية أهله، ولأنه كتاب وحيد فقد حفظه عن ظهر قلب، بترتيب الجُمل والأحداث. تطور الأمر بعد ذلك فأصبح يشتري كتبًا من سور الأزبكية، لم يكن الغرض للمعرفة بقدر ما كان للتسلية، تعرف على بعض أشعار صلاح جاهين وفؤاد حداد وبعض قصص ليوسف إدريس، رأى الدنيا كبيرة جدًّا، وأكبر من رؤيته المتواضعة أيام عمله بالصيانة. كانت الكتب تسلمه لبعضها البعض، فكوَّن مجموعة متميزة كان يرصها مُرتبة بتواريخ شرائها ويسهر في قراءتها ليقضي على الليل الممل، وخاصة ليل الشتاء الذي يبدأ من أول الصحيان من النوم. كانت تحت يده مباشرة بشكل دائم رزمة ورق، وقلم مربوط من أعلاه بدوبارة، يستقر طرفه الآخر في مقبض درج المكتب الإيديال، كل من كان يرى القلم والأوراق يظن أنهما لتسجيل بيانات الشكاوى والأعطال فقط. ولكن عبدالحميد كانت له فيهما مآرب أخرى، فقد كان يؤلف الشعر الغنائي في وقت فراغه الذي يفيض دائمًا عن حاجته، فتعلم كتابة الأغاني، ساعده على ذلك صفاء فترة الليل التي اختارها توقيتًا لعمله طوال خمسة وعشرين عامًا، ولم يعترض المسئولون المتعاقبون على إدارة الشركة، وكان يشجعه أيضًا وجود الراديو الترانزستور الذي يعلقه بأستك على الحيطة فوق رأسه، استمع لكل عصور



الغناء، من سيد درويش وصالح عبدالحي وحتى إيهاب توفيق وهشام عباس. يدندن مع الراديو في أول الليل، وفي آخره يرص أوراقه أمامه، يخط فوقها أغاني من تأليفه، يضع مسوداته أمام ضيوفه، يحفزهم على الفضول ويحرضهم على السؤال:

- **حاجة جديدة دي يا عُبد ولا إيه؟**
- **لا أبدًا. دي حاجة كده كنت بفكر أقطعها عشان مش عجباني.**

لم يكن يمزقها قطُّ، لكنها مبررات ليقرأها على العميل أو الزميل، وكانت أكثر أغانيه شهرة بين زملائه هي أغنية «حلو وجاني» .. كثير من زملائه كانوا يحفظون مطلعها:

«ياللي جمالك حلو وجاني

قلبي بيزرع وانت الجاني

ذنبي في حبك إني بحبك

قلبي ضحية وقلبك جاني»

يخرج الورقة من الصديري الأبيض الذي يلبسه تحت قميصه بشكل دائم، يفردها ويلبس نظارة مخصصة لإلقاء الشعر على رءوس ضيوفه، كان زجاجها أغبش ولون قشرة البصل، سميكة إطارًا وعدسات، يرفع حاجبين بارزين ومشعثين يركبان فوق إطار النظارة، تنبسط الآفاق الممتدة في خياله، تصل في بعض الأوقات لأطوار خرافية لها أجنحة، يمسك الورقة بيده اليسرى ويقف، يشيح باليمنى ببطء، وكأنها ستُقلع من أجوائه بعد قليل، ثم

تستوي حركتها ويملس بها على الهواء، إصبع وحيدة تتحرك مع كفه، يجاهد إبهامه ليكون عوضًا عن إخوته المفقودين. يلقي الأغنية وهو يمط الكلمات لتناسب ملء فراغ ما في نفسه، وإذا ما أعجبت المستمع انتشى عبدالحميد وعمل له كوباية شاي مضبوطة ومعتبرة، يشرب مع ضيفه الشاي بتلذذ، يشرح له كيف أن هذا المعنى أو ذاك المجاز قد استغرق منه ليالي طويلة لكي يستطيع القبض عليه ويطوعه بهذا الشكل، فيهز المستمع رأسه وهو في الغالب لا يفهم من كلمات عبدالحميد إلا النزر اليسير. أما لو لم تعجبه فلا يعافر عبدالحميد ويدافع عن وجهة نظره، لكنه سرعان ما ينضم لرأي المستمع ويقول والأسى يبدو مرسومًا على قسماته «مانا برضه بقول كده».

يرصِّع عبدالحميد أغانيه بثلاث نجوم فاصلة بين الشطر والآخر، فضلا عن عصافير صغيرة يرسمها على أطراف الصفحة بقلم ملون، وكائنات غريبة يخترعها من خياله، ينقشها بقلم رصاص وهيئتها حائرة بين حصان وفراشة، يجعلها خلفية لكلماته فوق السطور. أرسل أغنية «حلو وجاني» لأول مرة في خطاب أنيق للمطرب هاني شاكر فلم يرد عليه، نسيها عدة سنوات ثم أعاد إرسالها بعد تعديل شطر منها في توقيت واحد لعماد عبدالحليم وعمر فتحي، وبعد أن رحل الاثنان لم يكن أمامه نجم صاعد إلا عمرو دياب، أرسلها له أكثر من عشرين مرة، في كل مرة يغيِّر الصياغة وبداية السطر الأول، فمرة يبدؤه بعزيزي، ومرة بصديقي، ثم أخي في الفن وأخيرًا مطرب الشباب.

ولا مرة واحدة رد أحدهم، لكن ذلك لم يؤثر على التدفق الشعري عند عبدالحميد مصطفى، كان يتحدث بشبه يقين عن أن الخير جاي جاي، وشقة

مدينة نصر المائتي متر آتية لا محالة، والسيارة بسائقها ليست عن ناظره ببعيد، لكن عليه فقط ألا يفقد الأمل، ولو أخفق فيكفيه شرف الحلم والمحاولة، يقول لنفسه في حماسة، مرسي جميل عزيز كان إيه؟ وحسين السيد، وعادل عمر؟.. كلهم بدءُوا من الصفر. يركن الورق المزخرف في الدرج ويكتب غيره، حتى كتب أغنية رأى أنها تناسب عمرو دياب تمامًا، متفصلة على مقاسه، وخاصة بعد أن وقف يلقيها على مسامع «رضا» بواب العمارة التي تقع الشركة في دورين منها؛ ورضا كان يهرب من زن زوجته بالليل، ويطلع ليشرب الشاي مع عبدالحميد أثناء ورديته. يمكننا القول بأن رضا كان يمثل وحده نصف جمهور عبدالحميد مصطفى، ينسفان ربع كيلو لب سوبر أو نص سوداني محمص مع فنجانين قهوة، أو بقسماط مع شاي بحليب، يقضيان الليل كله في الحديث عن الأغنية، وما الذي يمكن أن تمثله في تاريخ الغناء لو قام بغنائها مطرب مشهور، يقف عبدالحميد، لابد أن يقف وهو يفرد الورقة التي وضع عليها المولود الجديد:

«ممكن أقول حدوتة

لما زمان لعبنا

سوا تحت التوتة

كنت أنا صغير

وكانت هي سفروتة

الحب بينا اتكتب

وحروفه مشبوتة

والقرب بينا اترسم
وملامحه منحوتة
اللقمة نقسمها بينا
فتفوتة فتفوتة
وعنيها تقول حكاوي
حلوة مش ملتوتة
لكن عدَّى الزمان
وغيَّر الحدوتة
والتوتة دبلت خلاص
مبقيتش هيَّ التوتة
عدى عليها الخريف
وقعها توتة توتة
مبقيتش أملك خلاص
غير غنوة في حدوتة
عن واد كان صغير
وبت كانت سفروتة»

ألقاها بحماسته التي تعودها رضا جيدًا، وبعد أن انتهى من الإلقاء هلل رضا وهو يرزع كوباية الشاي على المكتب الإيديال، دوى صوت احتكاك الزجاج بالصاج في المكان الصامت، أخرج رضا قشرة لب من بين أسنانه، وزَّع نظراته بين عبدالحميد والورقة الممسك بها وقال:

• **والله زي العسل. دا أقل واحد يقولها هوَّ عمرو دياب. دي كان المفروض يغنيها سمير الإسكندراني أو فهد بلان.**

يشجعه المديح على التسلطن في مط الكلمات وجعلها رنانة، كان يكتب بين سطور الأغنية كلمات مبهمة مثل.. تيرالان... تاليالليلنا.. ترلان لان لان...

غرفة عبدالحميد لها نافذة تطل على الشارع الرئيسي والذي يقع فيه مبنى مباحث أمن الدولة. كثيرًا ما رأى سيارات الأمن المركزي الزرقاء وهي تحمل شبابًا يرتدون جلاليب بيضاء وبالكاد نبتت لحاهم، يصله صوتهم الهادر من أحشاء الصناديق المصفحة، يشق صمت غرفة السويتش الصغيرة بعبارات حفظها من كثرة التكرار، كانت لا تخرج عن تنديد بالحكومة أو إعلاء من شأن قدرة الله على فعل كل شيء، أو ترديد لآية أو حديث شريف يرجُّون به المصفحات الحديدية. كانت الفرجة من أمتع هواياته وخاصة قبيل الفجر بقليل، تقف أمامه سيارات نقل المسجونين المتراصة خلف بعضها كعربات قطار، وبداخلها أشخاص يحملقون في المارة من شباك صغير يربطهم بالحياة، شباك لا يتعدى شبرًا مربعًا، أصوات كالرعد تنطق بالشهادتين، ترتعش السيارة بهم وتلفت أصواتهم انتباه المارين بالصدفة في ذلك التوقيت، الصوت يلف المكان بأصداء بعيدة وكأنها نازلة من السماوات متسلقة عن طريق أوتار لا نهاية لها، وكأن الصوت خارج من قوى أخرى غير حناجرهم، ونظرات المحبوسين يطل منها مزيج من القوة والتحدي والاستهانة بكل أنواع العقاب، ونظرات المتفرجين تحمل مزيجًا من التطفل والخوف، يتأمل المارة المعاصم «المكلبشة» في الحديد ثم يعبرون طريقهم مسرعين.

في الغرفة أيضًا يوجد سخان من الفخار، متلولب بداخله سلك ينتهي بفيشة، وبجواره ثلاثة أكواب، وكنكة ألومنيوم لها يد معدلة وراثيًا من الخشب،

ومربوطة بسلك واحد مللي عارٍ ومجدول حول جسم الكنكة كمجرم عتيد يُخشى فراره، أما عن التسلية فالراديو الترانزستور الأسود وحده قادرٌ عليها، كان يستمد منه أخبار العالم، في الصيف تئز مروحة سقف فوق رأسه بموتور ضخم وثلاث ريش قصيرة ومتسخة دائمًا، أما في الشتاء فتزنهر شمعتان مائلتان في مدفأة اشتراها مستعملة من سوق الجمعة لتعينه على الليالي القارسة التي تكاد تُجمد الهواء. يبدأ عمله من العاشرة مساء وحتى الثامنة من صباح اليوم التالي، أما في الشتاء فيدفس نفسه في زنط زيتي ميري بفرو ثقيل ويلف رأسه وذقنه بفوطة وكأنه ميت متلتم، يضع نفسه بعد كل ذلك في بطانية ميري رمادية فراؤها كالشوك اشتراها ذات ليلة شتوية قاسية من شارع كلوت بك.

منذ أن وقعت الحادثة وعبدالحميد كائن ليلي، لا يحب المشي بالنهار أبدًا. نسي كل زملائه يوم أن وصمته العاهة، حتى من عاصروا أوج ألمه وكفه مربوطة بلفائف من الشاش تكفي رأسًا، أصبحت ماضيًا لكل الناس، إلا هو، إلا عبدالحميد، كان يتذكرها وكأنها حدثت منذ ساعة، بكل الأوجاع وتجليات الألم، بالدم الذي يشخب، بجرحها، بخزيها وتداعياته، بخيالات ما بعد الفقد. ظل ينظر ليده كعيب يجب دفسه، يدفنها من الكسوف فتلبد في كفه الأخرى، أو يدسُّها في جيبه ولا يخرجها إلا للشديد القوي.

والآن، اقترب من الخمسين ولا يزال يقيم مع أمه، قدَّم أوراقه في شقق مبارك ومن بعدها شقق سوزان في مدينة العبور، الأوراق الأولى رفضوها لأنه لم يكن متزوجًا ولا يمتلك قسيمة زواج، وفي المرَّة الثانية اشترى قسيمة بألفي جنيه من شخص كاتب كتابه ولا يحتاج لشقة، لكن الأوراق أيضًا رفضت لأنه كان قد تخطى الحد الأقصى للسن المطلوبة.

ذات صباح وأثناء موت خاله في عيد الفطر، سافرت أمه لبلدتها شبين القناطر، جرَّب مغامرة لا تتناسب أبدًا مع شخص مات خاله منذ ساعات، لم يستمع عبدالحميد لصوت هاجسه المحافظ، ومضى في الطريق الذي دلته رغباته عليه. عمارة تعرَّف على أنشطة بعض شققها من عمال الصيانة في الشركة، عن طريق التليفون الذي ترك أثرًا في خده وأصبحت سماعته هي العضو غير الشقيق لباقي أعضاء جسده، ينقصها فقط تدفق الدماء في أسلاكها لتصبح كذلك. تعرف على امرأة قالوا له عنها إنها «صاروخ» فتخيل عبدالحميد «كوكتيل» بين هند رستم ومريم فخر الدين وحنان شوقي وامرأة خمرية وجهها مرقط بالنمش كان يشتري منها العيش على ناصية شارع الشيخ ريحان - كان نمشها يثيره ويتخيل دائمًا أنه محفز على تأجيج شهوتها- دعَّم تصوراته بنتيجة العام الجديد التي كانت معلقة أمامه، كل شهر بوجه جديد من المطربات: طروب، عتاب، سميرة سعيد، وميادة الحناوي. كان تصوره لامرأته الجديدة الليلة القادمة قد اكتمل، اختمرت الملامح حتى نتج عنها كائن خليط من عجن كل الوجوه المبروزة أمامه.

الصاروخ نحيف عند الخصر ومشدود من أعلى ومن أسفل، أخذ يتخيل المنظر كما يرسمه خياله، وككل الأحلام الهائمة التي تنزل على «فاشوش» رأى عبدالحميد المرأة التي من المفترض أنه سينام في حضنها ليلة واحدة ويدفع فيها أربعين جنيهًا غير العشاء والذي منه، ولما كان عبدالحميد قد ربط الكلام بعربون عشرين جنيهًا، فكر قبل أن يقول رأيه بصراحة، حاول أن يقنع نفسه بأنها «مش بطالة» لكنه عدل عن رأيه عندما رأى اللحم الزائد على الحد يهتز من تحت عباءة سوداء محبوكة عند الصدر ومحكومة عند الخصر ورأى أيضًا المؤخرة العريضة وتخيل ملاصقته لها وانغرازه بين ثنياتها، بشرة المرأة سمراء

مائلة للسـواد، ملامحها ليسـت فاقدة للجمال، لكنه رآها وكأنها أمٌّ منذ عشرين عامًـا على الأقـل، صدرها متـدلٍّ قرب صرتهـا، ملامحها مهدلـة وتحمل طبقة سـميكة من الألـوان.. «العربون حيضيـع لو الحتة معجبتكـش» هكذا قال له «منصـور» عند الاتفاق على «الحتة» وشرط على عبدالحميد أيضًا أنها لا تفضل إلا الطريق الطبيعي ولا تحب مغامرات المراهقين، وتموت في كبار السـن فوق الخمسين، لأنهم لا يرهقونها بالإعادة والتجويد في حركة معينة، ولأنهم - أي كبار السن - غالبًا ما يكون عندهم مخزون من الحكايات والفضفضة ويحتاجون فقط لمن ينصت، وهنا يكون الاهتمام بالأذن وليس بأي عضو آخر.

تأمل عبدالحميد جسدها وهي تجلس أمامه على سريره السفري الصغير. لمعت أمامه العشرون جنيهًا بلونها الأخضر، أصبحت مسـاوية تمامًا لما تبقى، فضلاً عن أنه في حالة رفضه للصفقة ستفشل الليلة ولن يصبح للكفتة السيخ أي طعـم. قَبِل عبدالحميـد الصفقة وانتهت الليلة بعدما أفرغ من جسـده ما أجبره على كل ذلك التخطيط.

تمطع في الصباح وهو يبحث عن كحكة من بواقي العيد في رابع أيامه فلم يجد، فـرك عينيه وفتحهما أكثر وأخذ يتلفت بسرعـة كالمخبول. التليفزيون لم يكن فوق رفه، والفيديو لم يكن فوقه، ليس ذلك فحسب، الراديو، المسجل، الدفاية، جزمة جديدة في كرتونتها فوق الدولاب، حتى الكحك لم يسلم من يدهـا. في صمت مرت الأحـداث عبر شريط سريع ومتتابـع أمامه، رضيت بالعشرين جنيهًا ولم تفتح سيرة عن العربون، وأيضًا لم تذكر اسم منصور.

مشـهدان شـغلا عبدالحميد وأبيا أن يتركا خياله بعد استيقاظه من النوم، المشـهد الأول ماذا سـيقول لأمه عندما تعود من جنازة خاله؟ سيقول لها إنه

باعهم ليشـتري غيرهـم جديدًا، كلام غير مقنع، سيخبرها بنصف الحقيقة، سيقول لها إنـه سُرق، نط عليه حرامية وهددوه بسـكاكين ومطاو وقشَّـطوا الشـقة تحـت تهديد السـلاح، صعوبة الكـذب أنه لم يمـر على الحيـاة أصلاً، ولم تلحـظ العـين من رواياتـه المحبوكة شيئًا حتى يتم اسـتدعاؤها وسردها بتمكُّـن. أمـا المشـهد الثاني والـذي يعتبر الأهـم، فهو نظـرة المرأة السـمراء لكفـه الفاقـدة للأصابع في بداية الأمر، أبعدت رأسـها مـرة واحدة للخلف وكأنهـا رأت عفريتًـا، ثـم اسـتجمعت شـجاعتها وهـي تنظر ليـده اليسرى فرأتهـا تحتفظ بأصابعها كاملـة. هذه النظرة هي التي يخشـاها عبدالحميد من النسـاء طوال ربع قرن، هـذه امرأة عابرة، لن تمكث نظراتهـا في خياله كثيرًا، ولكنهـا لو كانت زوجته فستُشـبث النظرة طويلاً لتؤكد له أن هناك شـيئًا ما ينقصـه عن بقية الرجال، وربما تمتد النظـرة وتتكاثر عندما تنتقل من الزوجة للأبنـاء، ولكن ما ذنبي في ذلـك كله؟! فهناك رجـال متزوجـون وفاقدون لأرجلهـم بالكامـل، أو للذراعـين معًا، عضو وحيد هـو المرتبط بالزواج، والحمـد لله موجـود ويعمل بقـدرة لا بأس بها، بدليل ليلة أمـس برغم أنوثة المرأة المتواضعة، فلماذا لا أتزوج إذن؟ تسـعة وأربعون عامًا ليسـت بالكثير، سـن لا تـزال تصلح للزواج والخلفة، يحدث عبدالحميد نفسـه، استغرق في مناجاة هائمة حتى نسي الأجهزة الكهربية التي سُرقت منه.

كلما حكـى لأحد زملائه الحكايـة يتظاهر بتصديقه، يرفـع حاجبًا وينزل آخر ويرد ردًّا لا علاقة له بالموضوع.. «ربنا ياخد الحريم كلهم دفعة واحدة.. ولا يهمـك يا عُبـد خيرها في غيرها» كانـت الحكاية مهترئة وغير متماسكة، وكان عبدالحميـد يحلـف بـكل الأيمانات أن ذلك هو ما حـدث بالتمـام، ولو لم يصدقوه فليسـألوا «منصور»، ولم يسـأل أحد «منصـور»، فالأمر مهم

فقط بالنسبة لعبدالحميد، ولكنه لا يشغل بال أحد منهم، ولا حتى رضا البواب، صديق عبدالحميد ونصف جمهوره.

وهناك بالطبع - كما في كل الحكايات- حقائق لم تذكر بعد عن عبدالحميد، فهو لم يتزوج حتى الآن ليس لكل ما سلف من أسباب، ولكنه عندما يختلي بنفسه ويسألها لا يجد جوابًا، فأحيانًا يحلم بالنساء ككل الرجال، بل يتطرف معه الأمر ويتمنى أن يتعرى أثناء سيره في الشارع، يريد أن يترك ملابسه على أقرب رصيف ويمشي، ولكنه لا يفعل، بداخله أمواج متلاطمة من العيب، هل يستطيع السير وراء موجة واحدة؟ يركبها ويتحرر من كل ما اعتاده. يتراجع وهو يرى أمه تصلي أكثر من نصف وقتها، المسبحة لا تفارق يدها وتقرأ القرآن كثيرًا، يتمنى وقتها أن يندفس في دثار ولا يَبين منه شيء، يختفي تمامًا وللأبد، ويتحول ما يراه لحلم طويل تتضاءل بين ألوانه مسألة اللبس والخلع، ولا يسأله أحد عما كان فيه يفكر.

ساقت عليه أمه طوب الأرض ليقنعوه بالزواج. كل هذه السنين مرت، كيف مرت، وكيف يمكن أن يفاجئه ذلك؟ هل انفلات العمر صفعة مباغتة أو حجر تعثر فيه؟ إنها سنوات مرت بلياليها خلف المكتب الإيديال، ونهاراتها التي راحت في النوم، وانفرطت السنوات كحبات عقد، تسعة وأربعون عامًا لا يتذكر منها إلا بعض مواقف قليلة، تحولت الحياة الطويلة العريضة لحفنة صغيرة من الأحداث، كميت أحرقوه وصروه في منديل، وعبدالحميد لا يمسك في قبضته شيئًا، فهل سيلحق بأيٍّ مما تبقى؟ وما جدوى ذلك؟ ماذا سيحدث لو انقضى ما بقيَ مثل غيره الذي ولى وفات؟ هل لا بد أن أنجب كائنات صغيرة تملأ البيت بالتنطيط والصراخ؟ وأول ما ينطقون يقولون لي يا بابا ويقولون لأمي

يا ستي، وتتركهم ستهم وأنشغل بهم وأرسم لهم ما أراه مناسبًا، ثم يكبرون وأستجدي عطفهم، أو أحبسهم معي بدعوى صلة الرحم كما فعلت أمي؟ ظلت أفكار عبدالحميد تعلو وتهبط وتضرب في نافوخه الدم حتى نام.

استيقظ في الصباح، تمطع بكسل وراح يغير ملابسه، وأثناء ذهابه للعمل، وبالتحديد وهو متشعبط في الأتوبيس وأصابع يده اليسرى تكلبش في الحديدة الطولية الممتدة من الكمساري وحتى آخر كرسي، كان السائق يستمع لأغنية «محمد منير» بلح أبريمي، في نفس التوقيت ركب رجل يبدو من هيئته أنه فلاح أو تاجر قطّاعي، يحمل فوق رأسه كالحريم قفص جريد ملآن بالعنب ومغطى بورق جرائد مبقور من عند الوش، وفيها الكمساري يسب للرجل الذي يحمل القفص ويطلب من الأفندية أن يدخلوا لأن المكان فاضٍ. كان عبدالحميد منشغلاً بالعنب، سابت يده الحديدة وأخرج ورقته وقلمه اللذين لا يتركان أبدًا جيبه. أخذ يدوِّن الفكرة وهو يتطوح ويتمايل ويتحنجل، تماسك حتى يكتب ما خطر في باله قبل أن يتبخر.

عند ذهابه لغرفته كان الليل قد غطى المكان منذ ساعات، اسودت السماء إلا من نجوم بارقة وبعيدة، بدت الأجواء هادئة. سحب عبدالحميد ورقة من درج مكتبه ولم يلتفت لجرس التليفون الذي كان يرن عند دخوله، كل ما يشغله هو كتابة الخاطرة التي وردت لخياله وقت التحام الأجساد في طرقة الأتوبيس، فكتب بخط متلهوج ينقصه الهدوء والتروي:

عنب بناتي يا بناتي

البنات منك غايرين

عنب بناتي يا بناتي
بتزوق خدك لمين
غنيلي زي ما بتغني الحبيبة
وافرش وريد القلب تكعيبة

■■■

العنقود أحمر طارح
وتكعيبتك عاملة مطارح
عجوز مهكع بعصاية
يشوفوك يقولوا ابن امبارح

لم يصبر عبدالحميد حتى يبيضها في ورقة جديدة ومزخرفة كعادته؛ ولكنه دلدل رأسه من المنور وأخذ ينادي على «رضا» البواب، حضر وكأنه ينتظر بالخارج، دخل وهو يحمل في يده السخان الكهربي ويسحب في يده الأخرى طفلاً صغيرًا، يحمل في يده كراسة ويضع في فمه قلمًا رصاصًا يعضعضه ويلفه بيده الأخرى. أجلسه على كرسي أمام عبدالحميد، خلَّص القلم من أسنانه ودفسه بين أصابعه وقال له:

- **اكتب الواجب كويس عابال ما خلص كلامي مع عمك عبده.**

التفت رضا لعبدالحميد، وضع أمامه السخان الكهربي وقال:

- **صلحتلك السخان يا حاج عبده. غيرت السلك خالص، رحت اشتريته مخصوص من شارع الجمهورية.**

تناول عبدالحميد السخان ووضعه في الدولاب الإيديال بلا اهتمام وقال:

سخان إيه يا جدع وبتاع إيه؟ أنا عاوز آخد رأيك في حاجة.

- **أغنية.. صح؟**

قال رضا وهو يسحب السخان مرة أخرى، وضع فيشته وانتظر أن يرد عليه عبدالحميد، لم يرد، ولكنه أمسك بالورقة من على المكتب ورفعها في الهواء، وأخذ يلقي شِعره بطريقته التي اعتادها، كان رضا منشغلاً في تلقيم كوبايتين شاي، بعد أن انتهى عبدالحميد من الإلقاء هلل رضا بشكل مبالغ فيه، قال وهو يهش ذبابة انتهكت أذنه:

- **الله يفتح عليك. والله حاجة زي العسل.**

أعاد عبدالحميد الورقة لسيرتها الأولى على سطح المكتب، ثم سحب ورقة مزخرفة من الدرج وبيّض فيها شِعره بخط واضح ومفسر، استغل رضا انشغاله ووضع الكنكة التي تعرف طريقها جيدًا فوق السخان، بدأت الحرارة تسري بين أخاديده. فور انتهاء عبدالحميد من عملية النقل طوى الورقة القديمة ورماها في الدرج ثم سأل رضا:

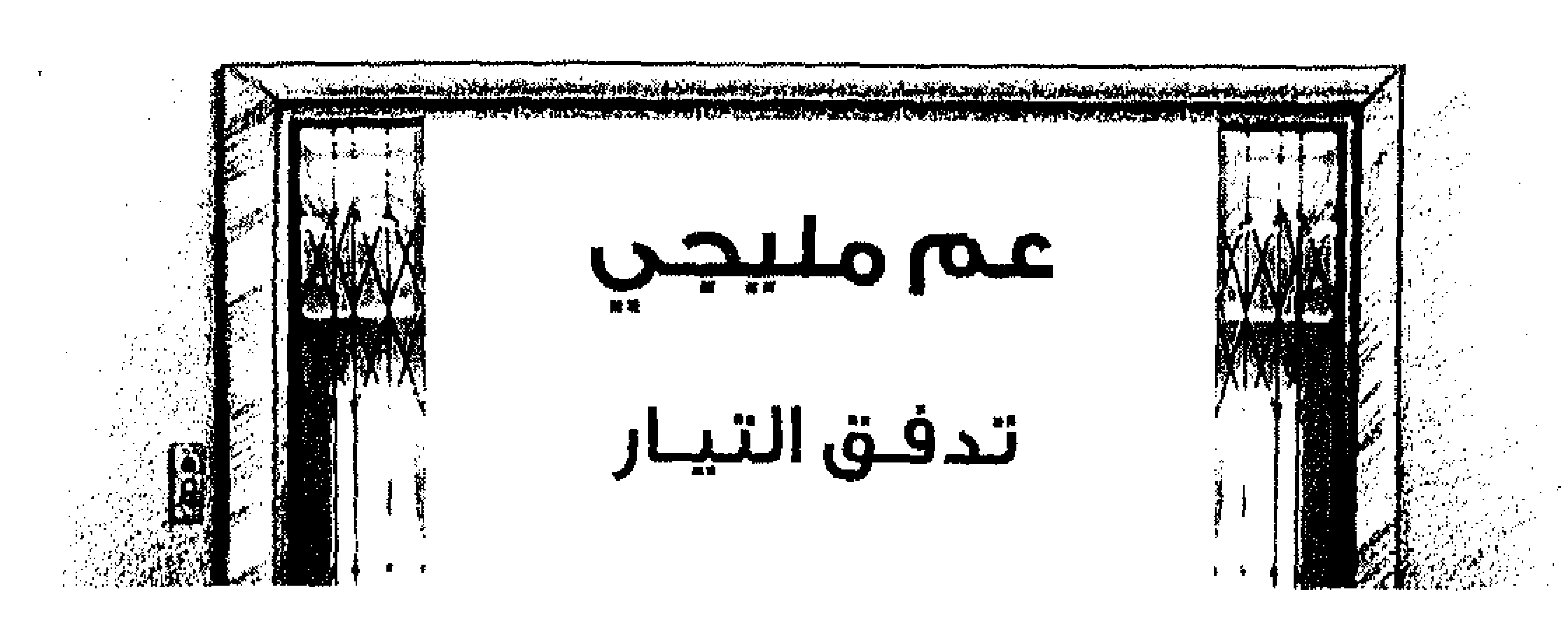
- **تفتكر الأغنية دي تنفع لمين يغنيها؟**

هرش رضا في شعره الهائش، وطرف عينه يتابع ابنه وهو يعمل الواجب، ثم قال وهو يشير على عبدالحميد بسبابة منتصبة:

- **محمد منير. دا أكتر واحد ممكن يقولها.**

فابتسم عبدالحميد ابتسامة الانتصار وطوى الورقة المزخرفة ووضعها في جيب صدريته تحت القميص، سحب كوباية الشاي التي قلّبها رضا في التو ورشف رشفة طويلة وهو يغمض عينًا ويفتح أخرى ويقول:

- **أنا بقول كده برضه.**



عم مليجي

تدفق التيار

لا تستطيع وأنت تنظر لهذا الصرح الكبير المسمى بشندلر إلا التعجب، فهذه الشركة العتيقة كانت قِبلة لكل أصحاب العمارات الشاهقة، كان اسم شندلر مرادفًا ذهنيًا لكلمة صعود. وما المانع في ذلك؟ فالخواجات الطليان يعرفون مقادير الخلطة التي تنتج موتورًا لا يكلُّ من الدوران لمائة عام قادمة، بدءًا من الخامات التي تصنَّع الأجزاء الحيوية منها في ألمانيا، والكماليات التي تأتي رخيصة من بلاد الهند، مرورًا بالأسلاك الصلب السويسرية، والإستنلس استيل التركي. ودواليب صاج كبيرة تحفظ قطع الغيار الأصلية، كانت مرصوصة بأرقام وتواريخ تحدد الصلاحية والموديل.

ولكن بعد عقود طويلة من التميز، تغيرت الدنيا وانقلب حالها، أصبحت العدة ملقاة على الأرض باستهتار، بعضها معلق فوق الحيطان كأشباح، يتحدد حيزها الباهت من كثرة الرقاد، المهم أنهم مُدوَّنون في الإيصال الأخضر، وبعد مدة لا يعلمها إلا الله يتغير مكانهم بتغير لون الإيصال للأحمر، يُحالون لمخزن الخردة بدون استعمال، تتستَّف قطع الغيار المختلفة فوق بعضها البعض، كوالين متهالكة المقابض صدئة الآكس وفاقدة لبعض المسامير، طبليات كبائن مبقورة من المنتصف، أسياخ براشوت مدببة الأسنَّة منحنية وتضرب تعظيم

سلام لأحبال صلبة مدورة وسوداء توحي بالكآبة والركود. مخزن يقف على بابه شخص بدين، ينتظر أن يعزمه هذا على كوباية شاي، وذاك يحييه وينفحه سيجارة، يمسك في يده هراوة بشكل شبه دائم، يطبل بها على بطن يده عمال على بطال في حركة لا إرادية. عريض القفا والمنكبين، كرشه صغير ويوحي بالشبع الدائم، عندما يضحك تظهر أسنان مهشمة على وشك أن تتفتت، وفوق شفته شنب رخو وكأنه سيتنحى عن وجهه في أقرب فرصة.

في المخزن لا تخرج البضاعة إلا بإيصال أخضر، مُوقَّع ومختوم بخاتم الشركة في عدة أماكن، يُدوَّن في دفتر كبير تقترب طول دفته من المتر. ولكن سوء تخزين البضاعة يهلك أغلبها ويحولها تلقائيًّا لخردة ربما قبل أن تلمسها يد، والقانون لا يعاقب أبدًا على سوء التخزين، فهناك في الشركة عقد غير مكتوب يؤمن إيمانًا فضفاضًا بالقضاء والقدر في أشياء يمكن ألا تكون كذلك. فأكثر من نصف المحتويات تدخل مخزن قطع الغيار وتخرج منه إلى مخزن التكهين بسبب سوء التخزين، ولا أحد يكلف نفسه ويسأل عن سبب تضخم مخزن الخردة ونقص مخزن قطع الغيار، فالورقة الخضراء سليمة البيانات، والرد على الورقة الخضراء بأخرى ليست من نفس اللون وإن الله يحب المحسنين. وماسورة المياه الموصلة للبوفيه تمر على المخزن، تنشع فوق جدرانه وتأكل حديده المسلح منذ سنوات، وهناك عدد حديدية تتحول من لونها الفضي إلى البني فور أن تمسَّها تسريبات المياه أو تنشيع الجدران. وهناك أيضًا موكيت ينتظر دوره الذي لا يأتي أبدًا في فرش الأرضيات، وكذلك الإستنلس استيل لتجليد جسم الكابينة، أنواع كثيرة ومستوردة، إستنلس سادة مط ومجلفن، أو منقوش حسب الطلب، فرعوني برسوم هيروغليفية، أو قبطي برسوم

مسالمة وملامح مصقولة، أو إسلامي بنقوش مُلوَّنة ومبهرة، أو مناظر طبيعية تصور حدائق وبساتين. أما الكشافات الكهربية بمستلزماتها من ترنسات ودوايات ومفاتيح إنارة، فالرطوبة تقوس الحديد وتعقف الخوص وتملح الأسلاك. مثل هذه البضاعة تتأثر بشدة من التستيف الذي لا يستند على أي مقاييس. فإذا ما نظرنا للقوانين فسنجد أن أمين المخزن والمهندس المسئول يمشيان على الصراط، ينفذان اللوائح بحذافيرها. وإذا ما نظرنا للواقع فسنجد الخسائر بآلاف الجنيهات في اليوم الواحد، وبقياس ذلك على جميع أقسام الشركة سنجد أن الالتزام كان بها يخص الأوراق، فقط الأوراق، أما ما يخص الأرض فالناس فيها تأكل عيش ببركة ربنا ودعاء الوالدين.

في مواجهة باب المخزن، وفوق الجدران المتشبعة بالرطوبة معلق جنازير سحب الأبواب وسيور مواتير الكامة ودوبار ميزان الخيط، بعضه دخل في حالة حميمية مع خيوط عناكب وكأنهم على وفاق منذ ألف عام، والبعض ملفوف باستكانة ورخاوة على أطواق كاوتشوك صغيرة، تعمل كمصدات لامتصاص هبوط المصعد على الفارمة الخرسانية في البدروم، أما الأرض فمنثور في أركانها كل ما يمكن تخيله من مستلزمات المصاعد، مواتير، أجزاء من مواتير، باب مصعد يقف وحيدًا وبعيدًا عن حلقه، الحلق مفتوح يحتضن لفة سلك وبعض خوص كنترول، ومروحة ملقاة سلكها نائم وملتوٍ على الأرض، ينتهي بفيشة مفشوخة الإصبعين كثعبان صغير يتثاءب، وسقف زينة بقطع زجاج ملونة ومتسخة وتشبه ممسحة الأقدام. من كثرة الهرجلة يظهر المخزن بمحتوياته كلوحة كبيرة تسجل لحظة الانفجار العظيم!

وكان من مفاخر الشركة أيضًا الأسطوات الكبار المتبقون من أيام زمان، كان يميزهم زي موحد غالبًا ما يكون أزرق، لا يلبسه إلا من تعلم الصنعة بجد، وشنطة حديدية تستوعب العدة، وصبيان صغار تتم تربيتهم في المهنة حتى يشربوها من العمال القدامى المتودكين، وعم مليجي هو الوحيد الذي عاش تلك الأيام ولا يزال على قيد الحياة. علَّم الرجل أجيالاً، ولكنه الآن لم يعد قادرًا حتى على أن يذكِّر نفسه بما حدث بالأمس.

أسمر وحاوي الوردتين البيض

حبي تخلق في ليالي العيد

نَدْرن عليَّ وان أتاني غزالي

لَاعْمِل عمايل معملهاش عنتر

المرة الأولى التي بكى فيها عم مليجي كان فوق السطح، ضبط إيقاع أغنيته على فخذه وبدأ عزفه المنفرد. لِمَ الحزن والكآبة ما دام لم يحدث شيء جديد؟. نفس الترتيب النمطي الذي يبدأ به يوم عمله. شخصان يتوكأ عليهما حتى أقرب قعود، ركبتاه ترتعشان ولا تستطيعان حمل الجسد الذي خف وزنه ولكنه أصبح عبئًا. خطواته البطيئة تدل على أنها لرجل مشى كثيرًا فوق الأرض، فزهد المشي وزهد الأرض، جرجر قدميه وهو يزحِّف في طريقه الحصى ويفركه.

في غرفة المكن كرسي محجوز له على الدوام، غالبًا من خيزران، ومعصوب بسلك كهربة، وأحيانًا يجلس على إطار كاوتش لا يدرى مَن أتى به إلى غرفة

المكن. وعند قيامه يسند علي جسم موتور أو خوصة كنترول. ينظر للعطل ويخمن قليلاً، يهرش في حاجبه أو يسحب كفه على قفاه مرتين فيُحل اللغز في دقائق، وقبل أن يبرد الشاي يكون لمّ عدته وانصرف ومن حوله عكازاه البشريان، يسند عليهما كدرابزين بشكل دائم.

مع مرور الوقت ماعت سيرة غزوات عم مليجي وتراخت حدّتها من كثرة تكرار الحكى عنها. نظرات من يتحلّقون حوله كانت هي الحامض الذي يساعد على تآكل ماضيه والشك في أمجاده، فبعض حكاياته كان يكملها له الشباب من حوله، فيسلبونه بدون قصد مفاخِرَهُ، ينسلت عنه ببطء الثوب الأسطوري، ويدخل في ثوب من يقولون ما لا يفعلون، الخرفانين أو المعاتيه، أو من هم في طريقهم لذلك.

مئونته من الحكايات لا تنضب، لم تكن المشكلة في أنها صادقة أو مجرد «فشخرة»، العدة كان لها شنطة حديدية محترمة، علبة للزيت وعلبة للجاز وبرطمان «ألامونيا» للشحم، والعدة كانت أصلية. ولكن تعليقات مَن حوله على ما يقول كانت لاذعة، والصمت أسوأ من السخرية أحيانًا، أو لامبالاة من المساعدين تتحول لصدأ يفتت كل صروحه. وحياته التي كان يرسم لها نهاية مفرقعة وصاخبة تنسحب الآن هادئة ومسالمة، قطفت السنون رحيقه، وسلبت الأيام بريقه، وتركته كبقايا تفل في قعر كوب شاي. ينقب بصبر عن الشاب المليء بالحيوية الذي كانه يبحث بيقين وهو متأكد أنه سيعثر عليه، وكأنه بعد خطوة واحدة سيلمسه، سيمد يده ليتحسس ملامحه المشدودة. ولكن كل محاولاته كانت تبوء بالفشل، فهو يبحث عن أشياء مطمورة، بينما حالته أقرب لمن يسير أثناء النوم.

في الآونة الأخيرة، أصبح يفكر كثيرًا قبل أن يترك خياله يتوغل في الحكي عن كنوزه، قبل أن يعيد ويزيد في كلام محفوظ بحذافيره. ربما أدرك أن حكاياته لم تعد تصلح كنوزًا بعد، وأنه بالفعل أفلس. فعمره الطويل لم يعد محسوبًا بالساعات أو الدقائق. ولا حتى بالشهور والسنين. ولكنه استحال إلى جزئيات معروفة ومواضيع محددة، مجموعة من المواقف والحوادث، فعام كذا اختصره في حدثين أو ثلاثة. وعام آخر لم يعد يبقى منه إلا موقفان معدودان وجزء من حوار يراه مُهِمًا. وحفنة سنوات مرت وذهبت لحالها؛ للمجرى الذي تنزلق إليه السنون مهرولة بما لها أو عليها، بلا جملة واحدة تُذكر، ولا موضوع مفرح أو مؤلم. وكأن هذا العمر لم يأت من الأصل ولم يملأه الضجيج والحكايات.

مع مرور الزمن فقد عم مليجي الرابط الذي يضبط عمليات التقديم والتأخير، فالآلة المسئولة عن الاستدعاء لا منظم لها ولا ضابط. يحكي أحيانًا عن سنوات بعيدة في مجاهل لا يدركها غيره، يقول كلامًا لا يفهمونه. «يستمخ» وهو يحدثهم عن تياترو الكورسال! لم يعد هناك أي كورسال إلا في خياله. بل إن كلمة «تياترو» نفسها تحولت لكلمة مضحكة تستدعي فور سماعها أوبريتات فريد الأطرش وسامية جمال. لا يدري عم مليجي أنه لم يعد وجود لماركة ساعات اسمها «دوبليه» ولا سجائر اسمها «سالم» ولا قهوة اسمها «لونابارك» ولا بونبون اسمه «عين العفريت» وهو لا يزال يتحدث عن يوم دخلته ويقول بفخر إن زوجته أم العيال الله يرحمها زفوها في «التختروان» وجاب في ليلة فرحه الأسطى «برعي» وغنى في تلك الليلة أشهر أدواره: «حن الحديد لحالي وانت لم حنيت».

المستمعون لحكايات عم مليجي عن النسوان لا يحتاجون أن يبذلوا مجهودًا ليكتشفوا أنها مجرد شطحات جنسية خيالية وغير محسوبة لرجل يتفتت عقله ببطء. ولكنهم برغم ذلك كانوا يستمعون إليه حتى ينتهي. وابل من الذكريات المختلطة كطبخة «يخني» يأكلونها مكرهين، ويسمعون عن ماركات لأشياء بها يجهلون. حذاء «المارون دورية» وطلبات «المارون جلاسيه» مطعم «سلستينو» بالتوفيقية:

- **كنت أنجعص وآكل لغاية اما بطني تطبّل وادفع نص جنيه بالبقشيش.**

حتى الأمثال الشعبية كانت تخضع هي الأخرى لتصاريف الزمن، من تحوير وتعديل وتغيير مضامين:

- **يا بخت من جمع راسين على مخدة.**
- **إن رخصت اللحمة رخصت الكروش.**
- **جاى تعرج قدَّام مكسَّح.**

تكتسي ملامحه بوداعة لا مثيل لها إلا في عالم الطفولة البريء، شهيقه لا يسعفه أو ينعم عليه بنفس طويل، وزفيره يخرج دفقة واحدة وكأنه يزيح حجرًا عن صدره. لا ينسى ولو مرة أن يشيد بزمنه المثالي، فالناس فيه أقرب للملائكة ولا ينقصهم إلا أجنحة يرفرفون بها في عالم خيالي جميل. وأبواب الشقق لا يغلقها أحد؛ لأن اللصوص كلها تابت وراحت تطوف حول بيت الله الحرام. والتربية كانت محافظة ومحترمة، ولو قذف الأب ابنه بالحذاء لما «فلفص» الولد المؤدب، بل كان يناول الأب نفس فردة الحذاء ليقذفه بها مرة أخرى.




في الغالب لا يخيب ظن عم مليجي، فيفوز بمصمصة شفاه هنا. أو ترحُّم على أيام زمان هناك. يفرد بعد ذلك بساط حواديته ويحاول التجديد فيها وضخ شخصيات لم يأت ذكرها من قبل. ولا ينسى فوق البيعة أن يعلي من قدر زمنه البريمو، الدنيا كانت هادئة وكل الحاجات حلوة، والناس تخاف على بعضها، الشوارع فيها شجر، والصبيان الذين تغير اسمهم وأصبح "مساعدين" كانوا لا يكلّون من الشغل إلا بالنوم، يرضون بقليلهم وعلى ماهياتهم لا يتبغددون، أما الآن فلا شغل إلا بالمحايلة والطبطبة، وناقص نجيب لهم شاي بحليب وحجرين معسل عشان يشتغلوا.

نظرته للأشياء مقترنة بقدر لا بأس به من الذكاء. كان يقف بالساعات أمام الكنترول يتأمله ليحل ألغاز الأعطال المراوغة، فأصبح ذهنه بحكم العادة يعمل بأقصى طاقته عندما يتأمل العطل، ولكنه مع انزلاق التركيز وانفلات التدقيق أصبح يميل أكثر لضخ صور الذكاء القديمة وإعادة تدويرها. تنفلت السنوات لمجاهلها ويسقط الشريط المتحد الذي يمكن تقسيمه لشهور وساعات وفيمتو ثانية؛ فيتوه الرجل الذي سُلب منه الأصل والفصل ولم يبق منه إلا النخالة ومعمعة الذكريات. وعيه أصبح كالجليد الذي سلطوا عليه اللهب. تختلط الرأس بالذنب والجسم بالروح والليل بالنهار ويسقط في متاهة لا أول لها ولا آخر.

يا دمع عيني على الخدين من حلك

قال لي بزيدك شوق على بعاد خلك

ارحم متيم يا جميل مشغول بك

تعمى عيون اللي ما يحبك يا اسمر

المساعدان يرمقان عم مليجي، تكسو ملامحهما علامات التعجب، لا يعرفان على وجه الدقة أي أسمر يبحث عنه الأسطى العتيق؟ في كل أغانيه لابد من كائن أسمر ضائع لا يعثر عليه أبدًا. يُخرج من محفظته صورة مبرومة الحواف ويُريها بيد مرتعشة لمساعديه، يتفرجان عليها وهما يحاولان استدعاء علامات دهشة مصطنعة، فالصورة شاهداها عشرات المرات، شاب يقف على شاطئ بحر، لا يستر جسمه إلا مايوه أسود قصير ومحبوك، ويتأبط ذراع فتاة حلوة تلبس هي الأخرى لباس البحر:

- **أهو اللي واقف دا أنا.. والبت الحلوة دي تبقى كريمة.. كنت حخطبها بس النصيب بقى.. الله يصبحها بالخير لو كانت عايشة، والله يرحمها بقى لو كانت اتكلت على الله.**

كممثلين يتقنان الدور يتفرج المساعدان على الصورة، ولا يتوقف عم مليجي عن الكلام في أي شيء:

- **أيام ما كنت في شبرا كان فيه مصوراتي إنما إيه.. فنان بصحيح.. كبرت الصورة دي عنده عشان أغيظ بها أم العيال. الله يرحمهم كلهم بقى.**

لا يرد عليه أحد، فيبعد الصورة عن وجهه ثم يقربها بشكل مبالغ فيه ويضيف:

- **المصوراتي دا كان اسمه استيفان.**

يهزان رأسيهما هزات تلقائية وعقلاهما شاردان في أشياء أهمّ تخصهما، فيغيِّر عم مليجي الموضوع برمته:



- **أما البت مديحة بقى كانت قمع عسل وعليها خرطة وسط إنما إيه...**

ثم يتنهد ويصمت، ينظر أمامه مباشرة، يتابع تقافز كائناته التي رسم ملامحها على الهواء، يستعيد ما كمن في ركن خياله مرة أخرى:

- **بس كانت بت برضك مش كويسة.. الله يقطعها ويقطع أيامها.**

وعندما يلحظ عم مليجي ضعف الاستجابة تنطلق منه ضحكة عالية بشكل مفاجئ، تخرج بدايتها ضحكة مكتومة منهنهة، ثم تتحول لحشرجة، ثم تنتهي بسعلة، ثم يتتابع ذيلها ممطوطًا حتى يقطعه أزيز واهن.

وعم مليجي ككل من خضع لأحكام الزمن، وجه شاحب وممصوص، شربت السنون عصيره، شعره مُلبَّد كقطع قطن فاضت من مرتبة ممزقة، مرة يصبغه بسواد تسيطر عليه الحُمرة. ويرى أن ذلك أفضل من أن يتركه مكتكت ومجعد كأمواج تيبست في لوحة. وأحيانًا يظهر شعره الأبيض من بعيد مشوَّش وكأنه طبق كشرى مدلوق فوق رأسه. وشنبه يملس عليه ويبرمه، نحيف الأطراف كَسِنِّ دبوس، تحفل ملامحه بالبثور والأحراش، وكأن حفارًا دقيقًا كان ينقب عن شيء ما في وجهه، لا تنسى أصابعه التمليس عليه بين الحين والآخر. يلبس كاسكتة كانت من علامات الرقي والأبهة. ولكنها الآن أصبحت مضحكة، وربما قبيحة. وحول رقبته القصيرة المدكوكة كوفية ملمومة حاسرة من جانب وطويلة ممطوطة من جانب آخر.

من يصدق أن عم مليجي كانت له قُصَّة مسبسبة، طويلة ومدهونة بالكريم، وعندما يغضب ينترها من فوق رأسه كأنور وجدي، وكان يلبس «جاكيت» وقميصًا أبيض و«ببيون» فشر عماد حمدي، وبناطيله كانت متفصلة

في محلات «ريبو» الأرستقراطية بشارع شريف، وأنه كان دائمًا «مقلفط» وباين عليه النغنغة والعز، وفي «بعترة» الفلوس لم يخلق مثله في البلاد.

لم يرض عم مليجي أن يسقط من قعر القفة، فضّل أن يظل متمسكًا بأذنيها في العلالي حتى آخر نفس. لم يكن أبدًا هو هذه الكومة التي خلّفتها سنوات طويلة مما تعدُّون. ولا هو هذا التردد في طاعة الجسد لما يمليه عليه العقل، فقد كان نابغًا في أصول الفرفشة، وفي أصول الترويح عن النفس له باع وأتباع. لم يكن ذلك في هذه الأيام السوداء - من وجهة نظره- "ولكن أيام ما كانوا المهندسين كلهم خواجات"، ينطقون اللغة العربية وكأنهم يتغرغرون بها، فلا تطاوعهم ولا تتحول لكلمات يمكن التعويل عليها، في هذه الأثناء عاش عم مليجي عيشتهم، خواجة من ظهر خواجة، بل فاقهم أحيانًا في أمور الفرفشة، ساعة لقلبك وساعة لربك، ولكنه أطال الساعة المخصصة لقلبه فجعلها نصف يوم، كان يشرب بنصف راتبه، والشرب في الأربعينيات للقاهريين كان شبه عادي، لم يكن الفرق واضحًا أو محددًا بين كأس الويسكي وفنجان القهوة. الاثنان يطلبهما من جرسون واحد، وفي مكان واحد، ولذلك كان اسمه شُربًا وليس سُكرًا.

ولكن بعد نزوح الخواجات من مصر بعد انقلاب الجيش على الملك. ثم اكتمال التهجير في نهاية عهد جمال عبدالناصر، شعر عم مليجي بأنه يحيا وحيدًا في عالم خيالي، وعلى حد قوله: «الشركة لمّت»، فمن كل أصناف البشر أصبح العمال، ومن أماكن فقيرة بائسة خرج المهندسون الجدد. وبعد أن كانوا يركبون السيارات الفورد والشيفروليه؛ أصبحوا يشترون «لادا» بالتقسيط،

وأحيانًا سيات 133 مستعملة. ومنهم البؤساء الذين لا يستطيعون شراء أي صندوق بأربع عجلات، فيستسلمون لطوابير أبونيهات الأتوبيسات فئة خمسة جنيهات وأربعين قرشًا المنتشرة في ميدان عبدالمنعم رياض.

انفرطت الأعوام حتى خرج عم مليجي «معاش» يوم مقتل الرئيس السادات، خرج السادات من خدمة رئاسة الجمهورية ومن الدنيا كلها، ولم يخرج عم مليجي من خدمة العمل بالمصاعد، جدد السنة تلو الأخرى حتى بلغت الآن ستة عشر عامًا، في البداية سارت الأحوال مكررة ومملة حتى بلغ السبعين، أما السنوات الست الأخيرة فقد كانت أشبه بحلم سخيف لا يملك إمكانية الاستيقاظ منه.

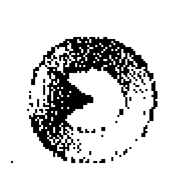
حاول الرجل العجوز كثيرًا إثبات عدم صحة المثل القائل «يا مكبركويا مصغركو»، ولكن المثل كان رغمًا عنه يطل ليثبت أنه يتحول بالفعل لطفل، ولكنه ليس طفلاً كالأطفال. لا شعر أصفر يغطي رأسه، ولا مشّاية ملونة تحتوي جسمًا أبيض وناعمًا، ليس له نغزة في ذقنه، ولا حسنة في خده، فالطفل قطقوط «ونُغة» لا يحملونه مكرهين، ولكنهم يأخذون بيده ويلاعبونه بالكوَر والدباديب لأنهم يريدون ذلك، أما عم مليجي فهم يأخذون بيده ليحصدوا الحسنات، ويتحملون خدمته للإفلات من هاجس تأنيب الضمير.

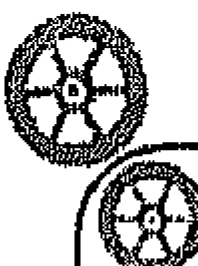
لم يكن يدخر جهدًا في تصليح الأعطال وحل ألغاز الكهربة العجيبة. ولكن مع مرور الوقت أصبح تجاوبه مع الأحداث بطيئًا، يتأخر انتباهه لبرهة، كعازف تأخر عن مواكبة فرقته، وكأنه مشغول بفكرة مركزية لا يراها غيره.

لا تأتي الدنيا على لسانه إلا وهي مصحوبة بالسباب واللعنات. أما ردوده فمقتضبة وغير مطابقة للأسئلة، كان مقطبًا في عزلته، شاردًا في وحدته، أما في معمعة العلاقات الاجتماعية فإنه على أي شيء تافه يضحك، وربما بالغ في الضحك، فالمقصود ليس الفرفشة، ولكنها محاولة محدودة للاندماج مجددًا مع الناس، والعودة مرة أخرى للنسيج العام؛ ولذلك لا تعجب لو رأيت عم مليجي يضحك عَمَّال على بطال، أو يتفوه ببعض ألفاظ قاسية في بذاءتها، فهو لا يقصد تجريحًا، ولكنه يقصد تفجير بعض الذكريات، ولا تعتقد في قرارة نفسك أنه «مزقطط» ولكن إرادته الواهنة أصبحت هي التي تُركع رغباته وليس العكس.

الشمس حمراء ومزنهرة على السطح، والمساعدان اللذان يسندان عم مليجي يرتديان القمصان على اللحم، وبرغم ذلك فإنه يلبس بالطو ومن تحته بلوفر، ومن تحت البلوفر «كلسون» ويشد الشراب الصوف قرب ركبتيه ويربطه بأستك ربما فاض عن مقاس لباس، وكوفية سميكة تقصر رقبته (القصيرة أصلاً) ولا يَبين منه إلا كفان يرتعدان وجلدهما مكرمش ومترهل كالبلح الأبريمي، على ظهرهما طبقة خفيفة من «القشف»، يحملق في كل من يمر، يدقق طويلاً حتى في ملامح مَن يعملون معه.

صعد من الدور الأخير وحتى غرفة المكنْ في ربع ساعة، يسنده من اليمين رجل ومن الشمال آخر، يغطي نصف رأسه الأصلع بكاسكتة كارو، أجلسوه على كرسي مثله شائخ وملخلخ، أخذ يهتز به حتى استقر، أدخل وجهه في نظارته الكبيرة الغابشة، ظل يفرك لثوانٍ ثم قال:





- **وصل الكهربة يا واد عشان نشوف العطل.**

نبهه أحد مساعديه بهزة خفيفة في كتفه وقال:

- **يا عم مليجي العطل أساسًا إن الكهربة مش واصلة.**

رفع عم مليجي رأسه ببطء، برَّق للمساعد تبريقة طويلة لا تناسب استيعاب جملة، ثم وضع كفه على فمه وأخذ يلعب في شنبه بأصابعه، كانت له برغم الوهن نظرة خبير، ستة عشر عامًا من التجديد في الخدمة بعد سن الستين، كان من الطبيعي أن يتساقط رفاقه واحدًا بعد آخر لمصيرهم المعروف سلفًا، فمنهم من ذهب يستمتع بآخر أيامه في مسقط رأسه، ومنهم من لم تعطه الحياة مثل هذه الفرصة وسبق تصريح دفنه نموذج إخلاء الطرف.

هبت نسمة هواء خفيفة فحصدت في طريقها الكاسكتة من فوق رأس عم مليجي، لم يشعر بسقوطها، انحنى مساعده ووضعها مرتجلة فوق رأسه مرة أخرى، سترت أطراف شعره الحمراء كشراشيب سجادة، ولم تستوعب جذوره البيضاء كالقطن، لم يعد مطلوبًا من عم مليجي إلا أن يضبطها فوق رأسه وينفض عن قفاه ذرات التراب التي علقت به، حسس على الكاسكتة ببطء وهو يسأل نفسه: هل وقعت ثم استردها أم هُيِّئ له ذلك؟

إحساسه الدائم بالرطوبة صيفًا وشتاء كان نابعًا من داخله وليس من عوامل الجو، وإصراره على مداومة العمل حتى سن السابعة والسبعين كان مقاومة بشكل ما.

- **عايزيني أقعد في البيت أستنى المـوت؟ والا ابرش قدام التلفزيون زي الولايا؟ عايزين يحطوني في الفاترينة، لكن دا بعدهم.**

خرق رئيس القطاع اللوائح لست سنوات متصلة من أجل عم مليجي؛ فقد التحق المهندس الكبير بالعمل في الشركة يوم تولي أنور السادات مقاليد الحكم في البلاد، وأول من استقبله وهو مهندس صغير وخام كان عم مليجي، علَّمه أسرار التعامل مع المهندسين الكبار، علَّمه خباياهم، قدم له النصائح التي كانت أهم من تعلُّم فنيات الشغل نفسها، فأصبح له مكانة عند رئيس القطاع لا يظفر بها سواه، وطوال التدرُّج الوظيفي للمهندس محمد زكريا وهو يميِّز عم مليجي، إن لم يكن بتمكينه من العمل في الأماكن المرتاحة كالفنادق والقرى السياحية، فهو في بند الحوافز التي كان يحددها له بنفسه، أو في اختيار مكانة لائقة له بين العمال والفنيين.

ولكن المهندس محمد زكريا فكر بشكل مختلف في الآونة الأخيرة، فلم يكن فقط تخطي عم مليجي للسن القانونية هو المشكلة؛ ولكنه لم يعد في استطاعته الذهاب لأي عمارة من دون مساعد، أو بالأدق «سنِّيد» وأحيانًا اثنين، فالعطل الذي يحتاج لفرد واحد يذهب إليه ثلاثة، أضف لذلك خطورة الأسطح لو مشى عليها وحده، أو خطورة الكهربة لو لم ير من السلك الجزء المقشر، ناهيك عن بعض أخطاء عم مليجي الفادحة التي تكررت في الفترة الأخيرة، وتعتبر من بديهيات إصلاح المصاعد، كفصل التيار قبل البدء في التجربة، أو صنفرة ريشة الكونتاكت النحاسية لو كان العطل له علاقة بعدم استجابة زر الطلب، أو قياس سلامة السلك الكهربي الموصل للتيار

عن طريق جهاز الآفوميتر البسيط، كل هذه الهنات تُخصم من رصيد عم مليجي الذي طالما تغنى به طوال عهده في الأيام الخوالي، ولكن الأمجاد مع مرور الوقت أصبحت كالنكتة البايخة، أو كالأكل الذي سبق طهوه. تفتت الرجل في قبضة الزمن، وأصبحت كلمة حطام النائمة في القواميس هي أكثر ما يعبر عن حاله، تراكمت الأيام طبقة فوق طبقة، فخلّفت بديلاً عنه شخصًا آخر، يشبه ذلك الذي كان شخصًا يتخيل أنه يملك الكون ويعرف أسراره، وأنه «أسطى» كبير وفي صيانة وإصلاح المصاعد له مكان وكيان لا يمكن أن يُنسى، وفي الحقيقة لم يكن كل ذلك موجودًا إلا في ركن ضئيل لا يراه أحد، ركن وهنت حدته وتراخت أوتاره في الذاكرة، أحيانًا يتصور عم مليجي أنه يستطيع بمفرده أن يقوم بتركيب مصعد من الألف للياء، ولكن لسان حاله يقول شيئًا آخر، فبالكاد يمكنه صعود أو هبوط خمس درجات سلم بمفرده.

ومن يعرف عم مليجي منذ عشر سنوات فقط لا يمكنه أن يصرِّح بنفس مطمئنة أنه هو ذاته هذه الكومة من الركام، وجهه لا تتشكل فيه الملامح كما كان؛ بل تبزغ كبيرة وساكنة، طرطوفة أنفه كحبة بن كبيرة محمصة، وأذناه تدلتا وانصاعتا للجاذبية الأرضية، وشفته تضخمت وأسنانه وقعت في نفس توقيت تنازل معظم شعره عن حراسة رأسه، كبر حجم ملامحه وخابت وظائفها، مذعورة حينًا ومسالمة مطمئنة حينًا، أنفه مليء بالثقوب وفتحتاه تضاعف اتساعهما، وقفاه كله ثنيات ومنحنيات وتجاعيد كصفحة ماء أُلقي فيها بحجر، ولُغْده السمين يهتز مع أبسط لفتة أو كلمة. تهتز يده بالسيجارة الكليوباترا، ويرفع يده المرتعشة بالولاعة، لا يوفق في إشعالها، ترقص يده وترقص بين شفتيه السيجارة، لا يتم اللقاء إلا بعد محاولات كثيرة فاشلة،

وبعد أن ينجح في مهمة الإشعال تقع السيجارة من بين أصابعه، يناولها له أقرب مساعديه، وأحيانًا لا يراها فيرشقونها بين الوسطى والسبابة، مرات كثيرة ثقبت طفيتها قمصان وجواكت، يسحب النفس طَوَّالي وتتكفل فتحتا أنفه بخروج الدخان الذي لا يتحمَّل المكوث في صدره كثيرًا.

وعندما يتحداه العطل يستخرج من جرابه سلاحه الوحيد، حكايات لا تنضب، أقربها جاوز الربع قرن ويقول إنه حدث بالأمس، وأول ما يستهل كلامه يضحك المحيطون، يعجبون ويضربون كفًّا بكف، وهو وحده يرى في عجبهم سخافة، فما حدث كان بالأمس، بالأمس فعلاً وليس مجازًا. لم يقبل بأن يصبح «إكسسوار» بعد أن كان الأصل والفصل، لا يزال يفخر بأمجاده ويراها رَأْي العين، كفأر يرقب أسطوانة جبنة رومي فيما هو يلعق بقايا لقمة جافة. وعندما يستبد به الشوق لأيام زمان يرتجل أغنية تنقله عبر ممرات الزمن حتى يصل للمحطة التي يريد:

طول الليالي لم ينقطع نوحي

على غزال شارد واخد روحي

نَذْرِنِ عليَّ لو جاني الاسمر

لاَ عْمل عمايل معملهاش عنتر

أجواء الشغل من حوله يراها كما هي، كل ما هنالك أن وسيطًا زجاجيًا أضيف لعينه المجردة حتى يرى بوضوح أكثر، غرفة المكن مليئة بأحبال تسير فوق طنابير لا تهمد عن الدوران في سماء الغرفة، والأرض مدهوكة بزيوت

وشـحوم دكَّتها الأقدام، تنتج في الصيف رائحة عطنة، وفي كل الأركان قطع غيار متكومة من كل شكل ولون، تعلن عن عقود طويلة أصبح فيها المصعد آخـر غيره مـن كثرة التبديـل والتغيير، تخفـي غرفة المكن بـين أركانها جهود أجيال قديمة ولى زمانها، وعندما يفيق عم مليجي من سـيرة استدعاء الماضي الذي لا يعود، يطلق العنان لبساط أحلامه فينفرد على مدد الشوف.

عندمـا تتغـير النظـرة تجاريها الأشـياء، تتلـون بألوانهـا وتفقد جـزءًا من حقيقتهـا، وتتحـول الرؤية كلها لحالة؛ وسـطٍ بـين الحلم واليقظـة. فالجبال يراهـا عم مليجـي الآن كألعاب الأكروبات، والطنابـير كأطباق في يد حاوٍ، وقطـع الغيـار الملقاة من حولـه كنثار قواقع، وهو سـابح في بحر لا يعرف له أولاً مـن آخر، والأيادي تسـنده وتبعد عنه أخطار السـباحة بعيـدًا، وأحيانًا يتملكه الخـوف ويرى الأحبال الصلبة تنتظر قدمـه لتلهفها، والموتور عندما يدور سـيلتقط كاسـكتته الكارو، ويأكل أُذنه ويحصد شـعره. فنفسه من كل شيء تخشى، يهاب الطلوع بسبب النهجان، ويمقت النزول خشية الانزلاق، ولاَ يفضِّـل عبـور الطريق بمفرده مخافـة زلة قدم أو سـهو مِفصل، وأعصابه تعاني من زلزال دائم، وقلبه في رجفة مستمرة.

حاول القيام من فوق كرسيه فلم يستطع، مط جسده لأعلى وقال بشخط وصوت لا يُقدَّر مدى ارتفاعه:

- **يا واد قلت لك وصَّل الكهربة.**

ونبهه نفس المساعد الذي قام بتنبيهه من قبل:

- **يا عم مليجي العطل أساسًا في توصيل الكهربة.**

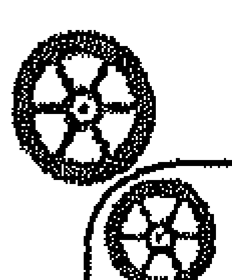
ويعود لسيرته الأولى مرة أخرى ويناوله المساعد الآخر كوباية شاي عملها أحد ساكني السطح، كان نصف البُق فقط يصل لشفتيه والباقي يندلق في الطريق على ملابسه، وأثناء شرب الشاي تقدم رجل آخر من ساكني السطح، سلم على عم مليجي بحرارة، بدت يده وردية عندما وضعها في اليد السوداء المكرمشة، هز عم مليجي يد الرجل هزًّا عنيفًا لا يتناسب مع علاقة عابرة. عزم الرجل على الموجودين بطبق فتة كبير كان يحمله في يده، وقبل أن يهمَّ المساعدان ويشكراه على ذوقه وكرمه كما هما متعودان؛ هجم عم مليجي على الطبق في ذهول من الجميع، ثم قرفص أمام غرفة المكن، ووضع الطبق على حجره، أخذ يدس كتل الفتة في فمه الواسع البطيء. لم ينتظر ملعقة ولم يترك في الطبق منابًا لمن حوله، نفض أحد مساعديه عن ملابسه بقايا الفتة، وقطع بمنديل ورقي طريق خط ريالة نازل في حِجره:

- **قوم يا عم مليجي. قوم بقى كفاية كده.**

أعطى المساعد سيجارة لصاحب الطبق، ومثلها لعم مليجي، فركها ثم وضعها بشكل مائل بين شفتيه في انتظار من سيشعلها، مد أحد المساعدين يده بولاعة وأشعلها، سحب عم مليجي نفسًا عميقًا مشبَّعًا بالتأمل. خرجت فلة السيجارة من بين شفتيه مبلولة ومعجنة. أخذ يلعق بفرة الفلة ويساويها بلسانه وهو ينظر لحبة أرز عالقة فوق طرف السيجارة، حاول نزعها بظفره، اهتزت يده فلم يستطع متابعتها بدقة، سرح في ملكوت بعيد ثم قال:

- **حاسس برعشة جامدة أوي يا ولاد.**

- **أجيب لك كوباية ميه؟**



• لأ.

• نروَّحك؟

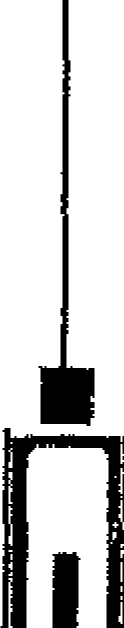
• خرجوني في الشمس.

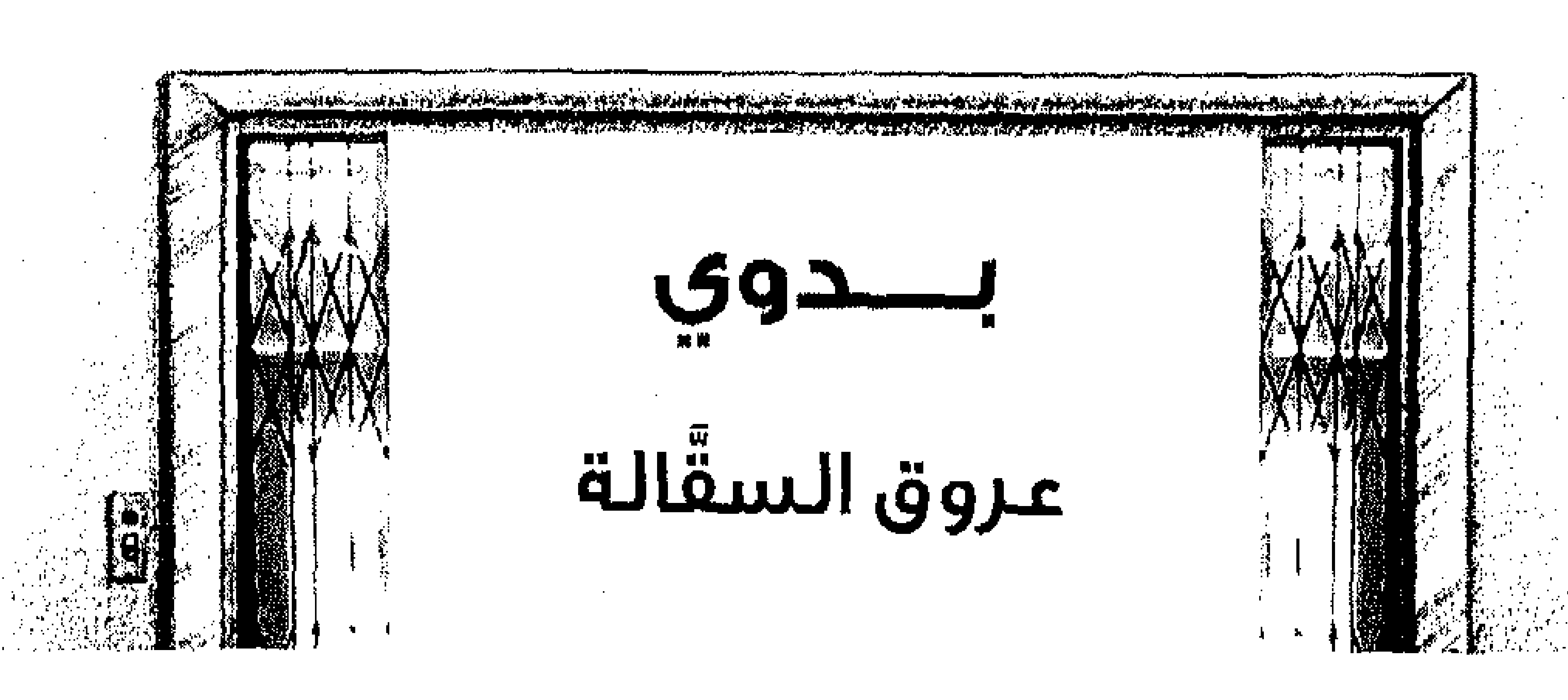
تعكـز عـلى يد المسـاعد وهـو يحـاول إيقافـه، أخـرج وجهه مـن ذراعي النظارة:

• مش قادر يا ولاد. دايخ. دايخ حبتين.

بكى عم مليجي بصوت مسـموع ونهنهـة متقطعة، رفع ثلاثتهم الكرسي وحطـوه في براح السـطح، تنفس عم مليجـي بارتياح، أخذ ينظـر لمن حوله بثقـة، ربما نـسي أنـه كان يبكي، وضع عـلى وجهه النظـارة الكبـيرة والتفت للخلف وشخط بهمة داهمته فجأة:

• يا ولاد الكلب وصلوا الكهربة خلونا نشتغل بقى. النهار قرب يروح.





بـــدوي

عروق السقّالة

مـن المظاهـر المميزة للشركة انتشـار المصاطب الأسـمنتية عنـد مداخلها الثلاثة، الباب الرئيسي، والطريق المؤدي إلى المخزن، وبدروم شاسع المساحة ولكن مدخله لا يسـتوعب سـوى شـخصين، البـدروم يجلس فيـه الخواجة «أنطونيو» طوال اليوم، يُجمع فيه وحدات التحكم «الكنترول».

لو أن للمؤخرات بصمات، لكانت المصاطب قد احتفظت بفيش وتشبيه لكل من مر اسمه على سجلات الشركة من عمال وموظفين، وربما من العملاء أيضًا، وحتى المهندسـين ورؤساء الأقسام أحيانًا، وقد جلس على المصطبة ذات صباح رئيس مجلس الإدارة شـخصيًّا، بشـحمه ولحمه، المهندس محمد زكريا، وسـبب جلسـته على المصطبة كانت الهيصة والهلولة التي تسـبب فيها بدوي، فاض كيل المهندس الكبير وطفح، مل من ذلك الشخص غريب الأطوار والأحوال.

بدوي - أو السـيد البـدوي كما هو مكتوب في بطاقتـه- الموظف الوحيد الذي يذهب للشركة وهـو يلبس جلابية وطاقية وبلغة، ينقصه فقط جحش يركبه وفرع شـجرة يمسكه ليصبح كمن سـيؤدي مهمة في غيط ما. اعترض المهندسون على هيئته تلك، فأقسام الشركة لا تخلو من عملاء محترمين طوال

الوقت، ماذا سيقولون عندما يرون منظرًا كهذا؟ هل سيقولون فتحنا ملحقًا لشركة المصاعد زريبة لحلب البهائم؟ ولأن التعود يجعل المستحيل ممكنًا فقد تعـودوا منظره مع مرور الوقت، حتى أصبحت هيئتـه بالقميص والبنطلون هـي الغريبـة وليـس العكس. ناهيـك عـن الأجيال الجديـدة مـن العاملين بالشركة، فهم لا يعرفون سوى الشكل الفلكلوري الذي يظهر به بدوي كل صباح، ويزيد من فلكلوريته تنطيطه في كل الأماكن، بدءًا من البوفيه وانتهاء بالبدروم، ومرورًا بالمخزن والمكاتب والساحة الكبيرة، والمسجد الذي كتب على جداره القصير بالبريْمر الأحمر «مسجد السيد البدوي».

وبدوي عندما يمشي تأخذه الجلالة، وعندما يهرول يتوه في سرحان يشبه التولـة. يـراه البعض «تقـي بتاع ربنا» ويـراه البعض الآخر «مسـتعبط وبتاع نفسـه» يتحدث أحيانًا بتأتـأة، وأحيانًا ينطلق كالصاروخ، من فرط حملقته في الناس جحظت عيناه وبهتت. أحيانًا يربع ذراعيه وهو جالس كطفل في فصل ابتدائـى، وأحيانًا يكافح بذات الذراعين أثناء السـير أو عبور الطريق، وكأنه يقاوم الغرق، وأحيانًا بدون وعي كامل يسـتخدمهما في التلطيش والخربشـة وقت المشاجرات (والتي كانت غير قليلة).

يحمل دائمًا فوق كتفه شنطة تشبه «الخُرج» يعلق حمالتها على كتفه الشمال، بينما الشنطة نفسها تستقر على جانبه الأيمن، ملحوسة ومتسخة ببقع من كثرة أكله في الشـوارع على عربات الفـول أو في الأفراح والمآتم والموالد. في جيب صغـير وظاهر يضع كارنيهًا قديـمًا يعود تاريخه ليوم تعيينه في الشركة، صورة أبيـض وأسـود غابت عنهـا الملامح فتحولـت لثـلاث نقط، العينان وإشـارة

خفيفة للأنف كحرف هاء صغير، أما الإطار فكان سوادًا يشبه صورة لمذنب فضائي أو سديم كوني محيط بالملامح المفترضة، كان بالشنطة دوسيه مليء بالأوراق من كل شكل ولون، عرضحال، شكاوى، نماذج لطلب تركيب تليفون، وأخرى للتقدم بطلب شقة إسكان شعبي من المحافظة، وطلب للحصول على رخصة، وآخر للنقل من مدرسة، حشد من الأوراق يضخم شنطته التي تشبه صهريجًا صغيرًا، ودائمًا محفظته وارمة، تنفخها رصة كبيرة من الكارنيهات، عضويات لأحزاب، ونوادٍ، وجمعيات أهلية، وخيرية، وتصاريح بالسفر والإقامة، وأخرى للمرور، والتأمين الصحي. كما يدسُّ في قعر الخُرج تصاريح للدفن وتصاريح من وزارة الكهرباء لإقامة فرح أو مأتم، كل ذلك وأكثر تراه في حوزته، وفي جيب صغير كان يحتفظ بتمغات من كل الفئات، حتى طابع الشرطة فئة واحد جنيه.

«البلد دي بلد ورق».

يقول ذلك دائمًا للمستفسرين عن محتويات شنطته، فيعطي لزميله طلب نقل من مدرسة لابنه داخ الرجل للحصول عليه ولم يجده، مختومًا وجاهزًا وربما موقّعًا بتأشيرة، أو يفاجئ زملاءه بأنه قدم طلبًا باسمه في نصف محافظات البلد للحصول على شقة من وزارة الإسكان، فأثمر ذلك عن حصوله على كشك إيواء في الدويقة، أجّره لشخص ثماني سنوات، ولما حان موعد استلام الشقة في مدينة 15 مايو، لابط الجدع الذي يسكن الكشك، وطمع في عقد الشقة لنفسه، فرفع بدوي قضية وكسبها؛ ولأنه له خمس بطاقات عائلية أصدرها كبدل فاقد دون أن يفقد منها شيئًا؛ ولأنه كان يقدم بكل بطاقة

طلب استحقاق شقة فقد فاز بثلاث، وهذا ليس حرامًا، فالحرام أن يتسول من الناس حقه، والحرام ألا يصلى أو يغضب ربنا، والحرام أن ينسى نصيبه من الدنيا، فهو يعيش الآن مع زوجته وبناته في شقة منها ويؤجر الشقتين مع المرتب، فتعينانه على المعايش، ومرتب الشركة بائس ولا يواكب التسارع في الأسعار المجنونة «ميتين تلتميت جنيه مع ميتين تلتمية من الشقتين والعملية تمشي» يُصبِّر بدوي نفسه على ما ربنا يحلها، فسبحانه دائمًا له في قضائه الحِكم والعِبر.

بدوي لا يتكلم كثيرًا، لكنه إذا تكلم قال كلامًا غريبًا، ومرة شتم مهندسًا لمجرد أنه شخط فيه، وبعد أن تصافيا وتبرع ثلة من الموظفين وقليل من المهندسين بكلمات التطييب والمصالحة «.. دا زي أبوك.. زلة لسان.. دا راجل بتاع ربنا..» إلى آخر تلك الكلمات التي قالوها بدافع فعل الخير فقط ليس إلا، وبعد أن شربوا الشاي في البوفيه وكل واحد راح لحاله، في اليوم التالي فوجئ كل الموجودين في الشركة بأن السيد البدوي أقام دعوى قضائية عند محام قريبه ضد المهندس ظريف، اتهمه فيها بالسب والقذف، ولما عرف المهندس بما فعله هاج كثور فتحوا له البوابات بعد طول حبسه، بحث عن بدوي في كل مكان فلم يجده، جلس في البوفيه ينفخ الزفير فتطير أوراق الجرائد المشرشرة المفروشة فوق الأرفف على شكل سبعات وثمنيات تحت الأكواب والبراريد والكنك وبواكي البسكويت، الجميع يبحث عن بدوي، إما ليدل المهندس ظريف على مكانه، وإما لينبهه إلى وقوع كارثة وشيكة، وإما ليتفرج ويسلي نفسه.

ولكن بدوي الآن في مكان آخر، كان يشرب الشاي في البدروم مع الخواجة «أنطونيو» لم يهتم الخواجة بوجود بدوي، ولكنه دفس رأسه بين خوص الكنترول، حملق فيه بنظرة خبير، وقبل أن يطلب كرسيًّا للجلوس كان بدوي يضبطه تمامًا تحت مؤخرته، أخرج الخواجة من شنطة يده الرشيقة مفك تيست مضيئًا وأدخل ذراعي النظارة في وجهه، رشق المفك في إحدى الرِّيَش الدقيقة المعلقة بجوار مثيلاتها في صف كطابور عساكر يقف بانتظام، تابع خط سير ضفيرة أسلاك مطلية بالورنيش، ظل يدقق فيها حتى وصل لنقطة الارتكاز، ضم الأسلاك في قبضته وفتلها برفق. ثم علَّق موصِّل التيار فوق خوص مدرفلة مخصصة لذلك الغرض. خلع الخواجة النظارة بسرعة واقترب من الكنترول حتى التصق وجهه به، أخرج من الشنطة قطعة سلك حوالي ربع متر، عرَّاها من العازل البلاستيك، ثم حكها في جسم الكنترول فأخرجت شرزًا ضعيفًا، أجرى بعض التوصيلات السريعة وهو يمسك بقشارة صغيرة في يده.

هذه المساحة مخصصة لبدوي، ولكن هناك معلومات مهمة لم تذكر عن الخواجة أنطونيو، وبما أن الرجل أصبح هو الخواجة الوحيد في الشركة، فلن نخصص له فصلاً منفردًا، ولكن سنذكر عنه بعض الحقائق، ستكون المساحة المخصصة له عالة على الفصل الخاص ببدوي، لا يهم ذلك كثيرًا، فبدوي أصلاً عالة على الشركة كلها.

(في البدء كانت العقول المدبِّرة للشركة كلها خواجات، هم من ينفذون التصميمات ويجرون الاتفاقيات ويقومون بتحديد طرق التشغيل،

السـويسريون والطليان والألمان، لبد معظمهم على مر العقود في مصر، حتى أصبحوا مصريين بالمعايشة، لهم نفس الطبائع والسمات، وكان غريبًا أن ترى شخصًا أحمر الوجه "أصفر الشعر" ويحب الكشري بالشطة، أو يسمع الشيخ عبدالباسط، أو يدندن أهل الهوى مع الست.

والخواجـات هم من صمموا المخزن والبـدروم وحتى دهاليز الشركة في بدايـات عهدها، مخزن الخـردة المسـقف بالقرميد، البوفيه، السـلم الحديدي المصنوع من الصاج البقلاوة الـ 5 ملي.

بيضة الديك، أو آخر السلالة، يمكن قول ذلك عن الخواجة أنطونيو. فهو العقل المدبر الحقيقي للشركة في عهدها الحديث، وصانع وحدات الكنترول وحافـظ أسرارهـا بـلا منازع، برغـم وجود مسـاعدين لـه وصبيـان. يُجمِّع بنفسـه الخوص الأفقية، والزوايا والقوائم التي تحمل التوصيلات والتحكم في الطلبـات مـن وإلى الأدوار، واسـمه لم يكن يُنطق كثـيرًا، يكفي أن يقولوا «الخواجـة»، ليكون المقصود هو الخواجة أنطونيـو، آخر من تبقى بعد هجرة الخواجات على مرات متتابعة وشبه منتظمة. سافر أبوه بعد انتهاء حرب 56، ولكنهـم أثنـاء الحربين المتتاليتين 67 ثم 73 طفشـوا من مـصر بالتدريج، فقد كان أغلـب الخواجات من اليهود الذيـن انفصلوا وأصبحوا كنقط زيت على سطح الماء بعد حرب 1948 واحتلال فلسطين، تسرسبوا واحدًا وراء الآخر، وأحيانًـا كانوا يفرون في جماعات بشـكل منتظم، يطلـع الواحد منهم بعد أن يحجـز لذويـه رحلات لأوروبا ولا يعـود بعد ذلك أبـدًا. والخواجة أنطونيو ظـل مـع أمه المصريـة في قلعة الكبش، لم يجد لنفسـه عملًا منـذ أن وعى على الدنيا سوى تجميع وحدات الكنترول في بدروم الشركة).

الخواجة كان مندمجًا في قصف بعض أسلاك وربطها بين «الريليه» و«الكونتاكت» يوصل السلك الرفيع الذي يشبه شعر الرأس بريش دقيقة تحتاج لمفك صغير جدًّا في حجم عقرب الثواني في ساعة حائط، ينحني الخواجة فترة طويلة فتظهر صلعة مكرمشة تشبه صفحة ماء بعد أن يُرمى فيها حجر، يتأمل بدوي ما يصنع الخواجة وهو يضع في كوب شايه خمس ملاعق سكر إضافية، يقلب الشاي وعقله سارح مع يد الخواجة، شفط شفطة بصوت مسموع ثم اقترب أكثر من الخواجة ودفس رأسه بين الأسلاك داخل الكنترول وقال:

- **يا سبحان الله، بقى حتة السلكة دي هي اللي بتوقف الأسانسير بحاله؟**

رد الخواجة وهو لا يزال ينجز عمله داخل الكنترول، وكأن السؤال لم يُثر شيئًا بداخله:

- **البني آدم يا بدوي هوَّا اللي فكر في إنه يحط السِّلكة عشان توقف الأسانسير، المفروض تستغرب لو السلكة اتحطت لوحدها.**

كانت عين السيد البدوي لا تركز في شيء، بياضها مختلط بسوادها، الجفون حمراء كالطماطم، والنني كحبة زبيب مجففة ومفعصة، شفتاه الغليظتان جافتان، تغيم عينه وهو يُسبِّح بشكل تلقائي ويزدرد شيئًا وهميًّا، يكز على أسنانه بقوة كمن يمضغ زلطة، تكشر ملامحه من فرط الضغط على نواجذه. حك ذقنه وكحتها كأن شيئًا لبد فيها، ثم أخذ يساوي شعيراتها بشكل آلي. شلح جلابيته وأخذ يهف على فخذيه وقال:

- **ومـين بقـى يا خواجــة اللي خلى البنـي آدم يفكر إنه يحط السِّـلكة؟ ما هو ربنا سبحانه وتعالى. أومال الجبال مرضيتش تشيل الأمانــة ليــه؟ عشان الإنسان كان ظلومًا جهولاً.**

وقبـل أن يرهـق الخواجـة أنطونيـو ذهنه في تفسـير مـا يقوله بـدوي كان المهنـدس ظريف يهـرول في اتجاههما بطوله المبالغ فيه وعرضه الذي يناسـب طوله، يندفع وكأن رأسه وأطرافه تخاصم جسده، كلٌّ منهم يعمل منفردًا على هـواه، اليد اليمنى تتحرك بسرعة وهو يمروح بهـا الهواء، ويده اليسرى أبطأ كثـيرًا، أمـا قدمه اليسرى فمتضامنـة مع يده اليمنى، وقدمـه اليسرى تتحرك بصعوبة لا تتناســب مع انقضاضه، فلا تنثني عند الركبة إلا قليلاً، أما رأسـه فكان مائلاً على جانب وكأنه يعبر نفقًا أقصر منه. هجم عليه المهندس ظريف مثـل قدر، أمسـكه وتملكت قبضتاه من قبـة جلابيته، اهتزت كوباية الشـاي في يـد بدوي فوضعها بجواره وحاول الدفاع عن نفسـه بيده المرقطة بالثفل. حـاول الخواجـة أنطونيو التدخـل، ولكنه فـور رؤيتهما يتمرغـان في التراب ابتعـد، ركـب المهندس ظريف فوق بـدوي وأخذ يكيل لـه ضربات هوجاء وخربشات في كل ما تهبشه أظافره، والسيد البدوي يرفس من تحته كجحش نائـم على ظهـره يتمطع، أو كصرصار اقترب من هـلاك، يرفع يديه في الهواء ويبدِّل بقدميه حتى تشلحت الجلابية وبان كلسونه من تحتها وانخلعت فردة البلغـة وطـارت في وجـوه الـمُخَلصين، تَدخَّـل اثنان من العـمال وانفضت المشاجرة بعد أن تلحوس وجه المهندس ظريف بالثفل، وتخربش وجه بدوي بخطوط رفيعة حمراء وانشـق جلبابـه البني فبان الصديـري الأبيض بزرايره الكثيرة الصغيرة.

- **ودين النبي مانا سايبه.**



قالها السيد البدوي وهو يسير ككتلة مطاطية طلع لها رأس وأطراف، توقف فجأة ثم استدار للخلف، نظر في اتجاه المهندس ظريف، المهندس لا يزال يلتقط أنفاسه وشعره منكوش، ونصف لسانه خارج فمه. صرخ بدوي صرخة كالتي يطلقها الأخرس عند استفزازه، ثم خلع جلابيته المقطوعة ورماها على الأرض، اتجه صوب الشارع الرئيسي بالصديري ومن تحته فانلة قطن بنية بكُم، ونصفه التحتاني يستره كلسون من نفس اللون، لازق على إليته، بالونتان تهتزان عند أبسط حركة، يشبط في قدم واحدة فردة بلغة، جرى وهو يتحنجل، تشعبط في أول أتوبيس دون أن ينظر لأرقام، لم يقطع تذكرة، وبعد محطة انسلت من بابه الخلفي وهو يثب وثبات بطيئة حينًا ومتسربعة حينًا، جذعه يسبقه للأمام وتعطله مؤخرته العريضة وفخذاه السمينتان، رجله الحافية تُميله قليلاً على جانبها، تحت إبطه جرابه الأزلي؛ الذي أصبح من تكرار حمله كجزء من جسده، أو كعضو لصيق لا يمكن لبدوي الخروج من البيت بدونه. توقف في الطريق، أخرج ورقة من خُرجه، كتب فيها كلامًا ووضعها مرة أخرى، ثم أكمل هرولته، يداه تتطوحان عاليًا وكأنه سيلقي بهما بعيدًا، ثم تنزلان بعنف فيما قدمه تدق الأرض في جد الخطوة العسكرية. عند وصوله للإدارة كان عرقه قد صار مرقه. أمام الموظفين وقف بدوي ينهج، تأملهم جميعًا بدون كلمات، وظلوا يحملقون فيه وكأنه أسطورة شقت بطن الزمان وخرجت. كل موظفي الإدارة تقريبًا يحفظون تاريخ السيد البدوي، يعرفون أنه شخص لم يعمل في الشركة عملاً حقيقيًا إلا عامين فقط في تاريخه الذي يمتد لأكثر من ثلاثين عامًا، وما تبقى من سنوات خدمته لا يخرج عن افتعال المشاكل والخلافات طوال الوقت. فمرة تعارك

مـن أجل بناء مسـجد داخلي في الشركـة، خلف نفق مهجور مـؤدٍّ للبدروم، كلـم طوب الأرض وزنَّ على أدمغة المسئولين لأكثر من عام، لم يسـترح إلا عندما تم له ما أراد، إقامة مسـجد. لم يكن مسـجدًا بالشـكل المتعارف عليه، كان ركنًا مسـتطيلاً سيَّجه بسـور نصف متر بناه بنفسـه، ثم أقام فوق عمود النور الوحيد أمام المخزن مئذنة كرتونية ملونة بها إضاءة شـاحبة لا تظهر إلا بعـد إطفاء كل ما عداها من كهـارب، أما دورة المياه فكانت موجودة أصلاً، لكن كل ما أضافه بدوي أنه كتب على بابها الصاج المنبعج بقلم دوكو «دورة ميـاه المسـجد» وبنفس القلم كتب على الحائط المـؤدى لصنبورين مدهما أمام بالوعة لتصريف المياه «إلى الميضأة» وأصبح السيد البدوي هو المقيم للشعائر في صلاة الظهر والعصر طوال أيام العمل، فلم يعُد لمهندس سلطة عليه في أن يرسـله في مهمة تبتلع منه صلاة الظهـر، أو يطلب منه عملاً يضيِّع منه صلاة العـصر: «هوَّ المهندس حينفعني لما أبقى أروح النار؟» يقولها لكل المعترضين عـلى قعـاده بـدون عمـل متحججًـا بـأداء الصلـوات، ولا يمل مـن تدبيج مقولات مكررة كرضا الرب الذي هو أهـم من رضا العبد، وأن البني آدم لما يجـري جري الوحوش فإنه لغير رزقه لن يحوش. بعد سـنوات لم يعد وضعه في الشركة يسـمح له بأكثر من الشـورى أو قضاء طلبات خفيفة، كنقل ورقة مـن المخزن لـلإدارة أو توصيل أورنيك عيادة من شئون الأفراد لمقر العيادة في شـارع نصوح، أو صرف اسـتمارة دواء من سـكة الفضل. عـدا ذلك فقد أصبح السـيد البدوي شـيخًا، زينت ناصيته علامة صلاة واضحة، أصبحت سفيرًا له في كل مكان وأمام جميع الشخصيات، وأصبح يحمل مسبحة طوال الوقت، يهرس حباتها بين أصابعه بِغل وهو يبسمل ويحوقل.

في السنوات الأولى التي عمل فيها بدوي بالشركة كان مثل فرقع لوز، يتنطط في الأتوبيسات بين أعمال الصيانة والإصلاح والتركيب، كل من عمل معهم أقسموا أن مستقبله في المهنة أنه سيكون أسطى كبيرًا وربما رئيس عمال مرة واحدة، فقد كان على الدوام جذوة مشتعلة، لا يونُّ ولا يهدأ، أرجع بعض زملائه التغيرات التي طرأت على شخصيته لأسباب مختلفة، فمنهم من قال إن ما حدث له كان بسبب عدم إنجابه للولد، وإن خلفته كلها بنات، خمس بنات وأمهن، ست ولايا هو عائلهن، واسمه سيندفن معه في التراب، لن يحمله من بعده أحد، ومنهم من قال إن أحد إخوته نصب عليه وأكل ميراثه أثناء فترة تجنيده، فزهد في كل ما يخص الدنيا لأنها فانية وبنت كلب. ولكن كلام رئيسه المباشر الأسطى «قاسم» كان هو الأقرب للتصديق، أن كل ما سبق ليس له علاقة مباشرة بما حدث لبدوي، وأن كل تغير طرأ عليه حدث منذ يوم بعيد.. ولكنه أقرب إليه من أصابعه.

كان بدوي شابًّا لم تُكمل فترة تعيينه في شركة شندلر عامين، كان مندفعًا وأهوج، لكنه بتاع شغل وطيب، ولأن الهَوَجَ لا ينقسم ككل الصفات الإنسانية فقد سأله الأسطى قاسم ذات صباح:

- **بتعرف تربط سقالات؟**

نظر بدوي من الدور التاسع والعشرين في عمارة تسمى باسم صاحبها «إدوارد ثابت»، كان مبنى طويلاً جدًّا ومقامًا على شقة واحدة، يبان من بعيد نحيفًا جدًّا كماسورة شقت طريقها للسماء، وكانت العمارة بها مصعدان وتقع على كورنيش النيل، ورد بدوي بتلقائية:

- **أيوه بعرف.**



لم يستوقف رده الأسطى قاسم، فلن يغامر أحد بحياته ويقف فوق سقالة على ارتفاع تسعة وعشرين دورًا لمجرد أن يثبت تميزه وأنه يعرف ما لا يعرفه الآخرون، على العكس، من خلال خبرة الأسطى قاسم كان هناك بعض العمال الذين يجيدون من العمل الكثير، ولكنهم فور سؤالهم يردون ببطء وبنفس مستريحة: «معرفش والله». فلم يأخذ مع بدوي ولم يرد، كان الأسطى قاسم قد انتهى من تشييد السقالة التي تقام أصلاً لتركيب العمدان وتنزيل كابلات الكهرباء قبل قدوم بدوي للعمل معه، عدا الدور الأخير؛ والذي يتم تركيبه كتحصيل حاصل، فيسير من يرفع أخشابه على نفس الطريقة التي أقيمت بها السقالة من أول بئر المصعد حتى غرفة المواتير. حضن بدوي بالات الحبال الكتان البني المجدولة «الدبلاء»، غمسها في برميل مليء بالماء لكي تلين، وبعد أن يغمرها الماء وتتشرب به تنتفش، وعندما تقفش على الخشب وتربطه ببعضه البعض تجف، فيكون رباطها أقوى وعزمها أشد، وكما يفعل الأسطوات في مثل هذه الأعمال البهلوانية؛ وضع بدوي على كتفه مجموعة من الأحبال لكي يسحب منها ما يحتاجه عند دخوله لبئر المصعد، ثم توكل على الله وأدخل عنقه محاطًا بالأحبال التي تشبه ثعابين صغيرة، وكأغلب العمال في مثل تلك المهام كان يلبس في قدمه «كندورة» من البلاستيك لتطاوعه ولا تعوقه عند التنقل بين أخشاب السقالة الكثيرة والمتقاطعة. من الخارج ناوله الأسطى قاسم عِرق خشب طويلاً، فوازنه بدوي بين ذراعيه حتى استقر فوق عرق آخر من تحته، أسنده بيد ومد يده الأخرى ليسحب ثعبانًا من الملفوفين حول عنقه، ولأن الحبال مبلولة فقد اشتبك بعضها ببعض، شد ثانية فسحب الحبل الذي يقوم بجذبه جميع الأحبال الأخرى،

فمال بكتفه كي لا تقع جميعًا؛ في تلك اللحظة أو في جزء منها تدهور كل شيء، فعندما مالت كتفه اهتز عِرق الخشب في يده الأخرى، ولا بد في مثل هذه الحالات من التضحية بشيء لينجو شيء آخر، فالحبال لو وقعت في البئر ديتها مشوار طالع نازل، أما وقوع العرق فهو أشد خسارة، سيهز السقالة كلها ويخلخل ما ثبت منها ويهد شغل أيام طويلة. والآن لا بد من أن يتركه، لكنه لم يفعل، لم يقرر بقبول انزلاق الحبال الثعابين من فوق كتفه، لو حدث هذا أو ذاك فسيصبح أمام الأسطى قاسم مُدعيًا، وربما كذابًا، ولا يفهم في إقامة السقالات ولا يحزنون، هنا تحكمت شعيرات دقيقة لا تُرى، وربما لا يحسها صاحبها في نفسه، حددت هذه الذرات خط سير ما هو قادم.

أمسك بدوي بالعرق جيدًا، أسنده على حرف عرق آخر وجعل منه «دُقار» حتى يفض اشتباك الحبال، وبالفعل تمكنت الخشبة الطويلة من الاعتماد على نفسها لثوانٍ، تركت يداه الاثنتان العِرْق وانشغلت بفض اشتباك الأحبال، سلك منها واحدًا ثم وضعه في فمه كصيد مقتنص، مد يده ليسحب العرق، لكنه فور لمسه، وقبل أن يتملك منه كان العرق قد تركه وسرح في الفراغ، فكاه قابضان على الحبل ويداه متشعبطتان في الهواء وجذعه منحنٍ ومائل قليلاً لأسفل. ولأنه لم يقف تلك الوقفة من قبل، ولأنه مستجد في كلٍ ما يخص بناء السقالات، لم يجد في رأسه مرجعية أو خبرة، فتحكمت قوى أخرى في خط سير ما تبقى، ارتعشت كندورته واهتزت الخشبة الواقف عليها، انتفضت بسبب زلزال أصاب السقالة كلها، فالعِرْق الذي أفلت وسقط أطاح بكل ما في طريقه، انفلتت وسادة الهواء التي حسب أنه ساند عليها، وبرغم وجود الأسطى قاسم خارج البئر، لا يبعده عن بدوي سوى مترين فقط؛ فإنه لم

يكن يراه، لم ير بدوي إلا نفسه في الميزان، قدرته على الحيلة تساوي قبضه على غريزة حب البقاء ولو ليوم واحد، لساعة، لجزء من الثانية، ولو سيظل طوال عمره واقفًا على عروق سقالة في بئر مصعد.

في منتصف الصرح الخشبي الـمُقام في البئر، والمعصوب بأحبال بنية مبلولة طـوال الطريـق فراغ مربع، تحوطه أخشـاب كثـيرة على مدد الشـوف، من أعلى لأسـفل أو العكس، لا توجد عروق متقاطعة إلا عند كل دور، يسـميها العمال «حطـة»، المنظـر الذي تركز نظر بـدوي عليه لا يبشر، بئر ممتـدة كقرطاس، تمثل البقعة الواقف فيها فوهتها، أما ذيلها فهو مرعب حقًّا. يزيد التصاق الأخشـاب المقامة كلما امتد البصر لأسفل، تتكوم الأخشاب بعد بضعة أدوار قليلة، وكأنها مُستفة في مخزن. العِرق المنفلت ما زال في مراحل ترنحه الأولى، يخبط في الحيطان ويفعص كُتل الأحبال الـمُقمَّطة مع أخشاب أخرى، ظهر بدوي ما زال مقوسًا ووسـادة الهـواء تترنح تحت كفيه، عينـه محملقة في البئر وعرق الخشـب يواصل سقوطه وتخبيطه، انتفاضة شملت كل أعصابه الدقيقة المعلق عليها الاحتمالات، رعشة آتية من داخله نفضته كما لو كانت كائنًا لا علاقة له به، تسلقت من أمعائه لحلقه، وترسـب بعضها في فتحة شرجه فاجتاحته مشـاعر الخوف، أصبح يحمل الكائنـين معًـا، الكائن الأصلي الذي وقف منذ سـاعات قليلة أمـام عربة الفول وسـحق ثلاثـة أرغفـة وطبق فـول وحزمة بصـل وسـلطانية طـرشي، والكائن الطـارئ الذي لا يخرج إلا في أوقات معينـة، وربما ينقضي العمر ولا يخرج أبدًا. كانت أجزاء مجهرية من الوقت لم يخترعوا لها آلات تحسبها. تسمرت بعد الرعشة قدماه، وحملق بعد التسمر في الفراغ، واجتازت حملقته البئر المخيفة، ورأى نفسه وهو يقع وينساب تدريجيًّا قبل أن يحدث له ذلك بالفعل.

تخلت إرادته عنه، راحت أعصابه تنفك وشرايينه تلين ونفسه تُسلِّم بأن الفراغ سيبتلعه لا محالة، ترك كل ما يملك التحكم فيه لقوى غيبية أصبح في يدها الأمر والسلطان، في تلك الأجزاء الدقيقة من زمن لا يمكن قياسه، التفت الأسطى قاسم وانتبه لأن هناك خطرًا ما يواجهه بدوي، لكن انتباهه جاء بعد فوات الأوان، فلما اقترب من السقالة ليشد من أزره كان بدوي قد وصل لفراغ الدور الذي يليه، صرخ الأسطى قاسم ولم يصدر بدوي أي صوت، تجمدت نظرته على البئر، عظمت وتكاثفت وكأنه لن يرى بعد ذلك أبدًا. العرق الخشبي اقترب من الدور الأخير، سيرشق في أرضية البئر ويغوص، وبدوي يتبعه في الفراغ بجسد راضٍ بما كُتب عليه وروح تنتظر أن تصعد لأعلى بعد سقوطه لأسفل سافلين، وفيما كانت النهاية معروفة بعد انسلات بدوي، توقفت سباحته في الفراغ وتعلق على عرقين متوازيين، وقال الأسطى قاسم بصوت عالٍ «الحمد لله.. الله أكبر» وأخذ يكررها بصوت متهدج وتلقائي. وأخذ يكرر بهيستيرية «يا رب.. يا رب..» تعلقت قدما بدوي على «حطة» عرْضية بعد سقوطه لدورين، وبينما ينتظر بدوي وصوله للمحطة الأخيرة ويرى بعين خياله جسده مسجًى في البئر ومتكومًا بجوار العِرق الخشبي الطويل (صديقه في الرحلة) كانت ذراع الأسطى قاسم تكلبش في باطه وتسنده حتى خرج به من البئر. الرحلة لم تستغرق إلا ثواني قليلة، لكنها حولت بدوي لشخص آخر تمامًا، بعد أن تجرحت يداه وجلطتها سُلخ الخشب الخشنة التي مسحتها يده لمسافة دورين، وشُج جزء في رأسه فأنتج جرحًا غير عميق بطول إصبع.

«اتدروش بعد ما شاف الموت بعنيه».




ما زال الكلام للأسطى قاسم، الذي رأى أن الحدث برغم قِدمه ما زال هو المؤثر على جميع تصرفات السيد البدوي.

عندما وصل بدوي بكلسونه وبلغته للإدارة لم ينتظر حتى يسمح له السكرتير بالدخول، لكنه قبض على الأكرة ودخل إلى اجتماع المهندس محمد زكريا رئيس مجلس الإدارة برؤساء الأقسام وبعض خبراء أجانب ببشرات بيضاء وشعور صفراء وهائشة كشعر العرائس اللعبة، لم يجد رئيس مجلس الإدارة كلمات يبرر بها وجود ذلك الشيء المطاطي المنتفخ الواقف على رءوسهم وهو ينز العرق وينهج. السكرتير يقف خلفه، يهم بأن يسحبه من ذراعه ويرميه بالخارج، يشير له المهندس محمد زكريا بأن يتركه، ولما تركه وانصرف أخرج بدوي ورقة من الدوسيه ووضعها على مكتبه، لم يتكلم، كان فقط ينهج، داخل مخه تتكاثر المعاني كالفطر؛ لكنها لا تدخل عملية تدوير ولا تخرج على هيئة كلمات. فور أن رفع رئيس قطاع المصاعد الورقة وبدأ في قراءتها انصرف بدوي، خلا منه المكتب في لمحة سريعة، وكأن شبحه هو الذي كان واقفًا بالكلسون يجفف عرقه منذ قليل. رُفعت سماعات تليفونات، ورنت أخرى في أماكن متفرقة من الشركة، وعرف المهندس محمد بالمشادة التي حدثت بين بدوي والمهندس ظريف، بعد أن انتهى الاجتماع ترك كبير المهندسين مكتبه، وذهب للشركة، ينتظر أن يرى بدوي ليسأله عما حدث، لم يره، جلس على المصطبة وتجمع حوله الموظفون والعمال، ولم يأت السيد البدوي بعد.

كان الميعاد قد فات، والرحمة زمانها خلصت.

«الله يخرب بيت الشركة والمهندسين والدنيا بحالها».



يقولها بدوي لنفسه وهو يسلك طريقًا غير طريق الشركة، مشى بفردة بلغته وكلسونه وشعره المنكوش، يا رب يلحق واحدًا، أخذ يسرع الخطى ويسب للشركة، يتمنى أن يلحق بواحد، يصل لمقصده، قهوة السويفي، يقف صاحبها على رأس رصة طويلة من أرغفة بلدي، الردة تفرش المكان والزحام كيوم الحشر، هرم خبز يقترب من السقف، صرح من النفحات مرصوص على أرفف الشيش، فلا شيشة اليوم كرامة للسيدة، يمد صاحب المكان يده كل برهة ليضبط رصة العيش، مئات الأرغفة، الواحد منها نصفه مضغوط داخل النصف الآخر، ومدسوس بداخله أرز أبيض بدون طماطم ولا شعرية ومنابات لحم فواحة، يخرج هبو البخار يعبق وجوه المريدين فيزيدهم برائحته النفاذة تقربًا وإصرارًا، منهم من هبد الرغيف ومنهم من ينتظر، فوق الأرز تلعلط هبرتان من اللحم البلدي الملبس على وش الرغيف، تخر منه قطرات المرق المشبعة بالسمن البلدي. اليوم الليلة الكبيرة للسيدة زينب، لا بد أن يأكل الكل وينبسط، عادة قديمة ورثها محمود السويفي عن أبيه، يأخذ من القهوة التي يملكها بشارع نوبار مقرًّا لأتباعها، يوزع على كل من تطأ قدمه مقهاه رغيف النذر السنوي للسيدة، بشرط قراءة الفاتحة والدعاء للمغفور له «الحاج عبدالقادر السويفي» أبو محمود صاحب القهوة ومؤسسها الأول في بدايات القرن العشرين.

لم يكن منظر بدوي غريبًا في القهوة بكلسونه وفردة بلغة وحيدة وشعره المهوش، فقد كان الناس من كل صنف ولون، بزرميطًا من البشر، خليطًا لا يربطه إلا الاشتياق للهف رغيف معمَّر، الأفواه مفتوحة والأيادي ممدودة والريالة نازلة والدعاء يخرم الآذان، هيئات مختلفة من فلاحين وموظفين،

بـدل وجرافتات، قمصـان وبناطيل، جلاليب وطواقـي، عفاريت صنايعية، أسـمال بالية ومبقعة، لهم جميعًا مطلب واحد، رغيف من عم سويفي وواحد شاي فوق البيعة لا حساب عليه، تزدحم القهوة ويبظ منها الناس للخارج، ومحمود صاحب النذر مبسـوط ومتسـلطن وهو يمد يده كل ثانيتين برغيف تلهفه اليد التي يدسه فيها.

بعـد أن هـدأت في بطنـه العصافير؛ جلـس بدوي يشرب الشـاي المجاني وشخص لا يعرفه يجلس بجواره ويسأله:

- **إيه يا شـيخ سيد؟ سمعنا إنك حترفع قضية على وزارة الداخلية عشان يشيلوها من قدام الشركة.**

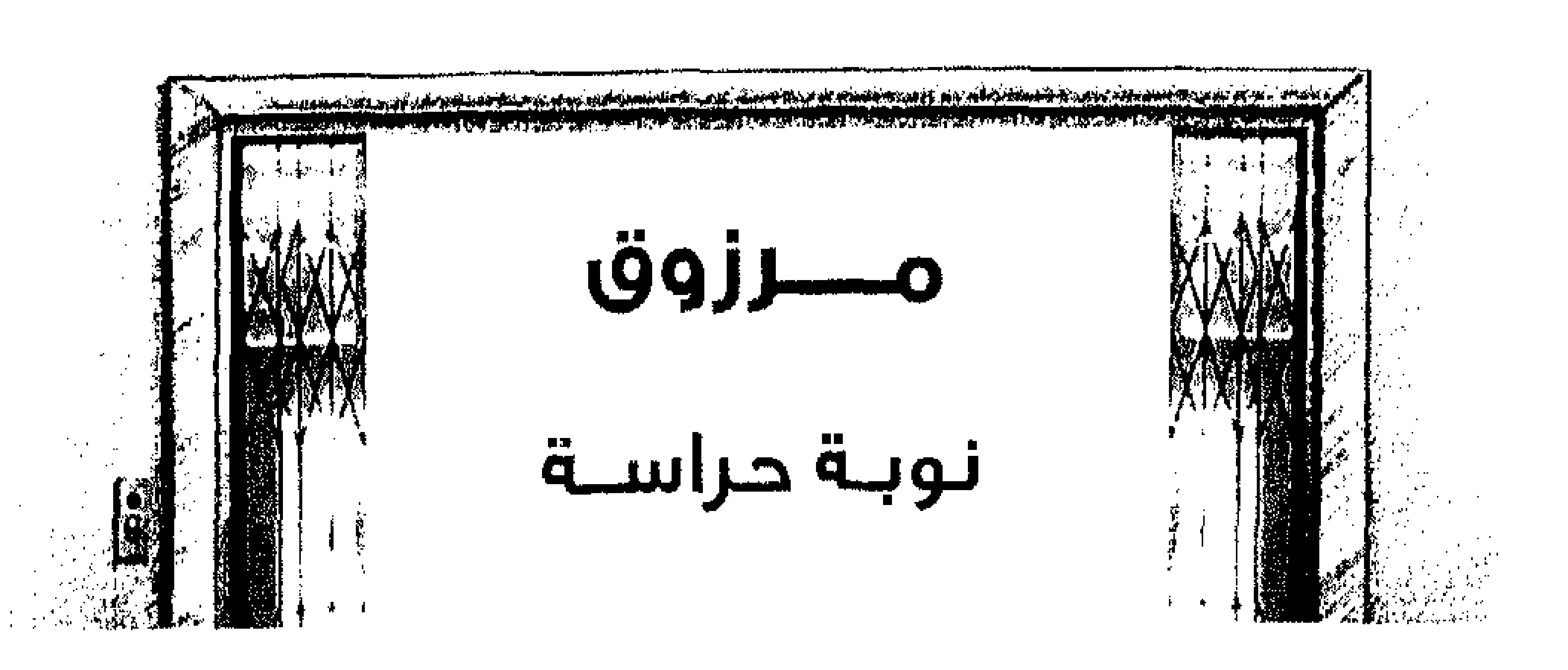
رفع بدوي كوباية الشاي على فمه ورشف رشفة متقطعة وعينه تقف على فوهة الكوب وتتأمل الرجل ثم قال:

- **آه. ووزارة العدل كمان وحياتك.**

وبرغـم أن الحوار لا يخلو من ممازحة، فإن بدوي تذكر شـيئًا هامًّا، طلب صرف الإجازات السنوية وتحويلها لفلوس، فنصيبه منها ثلاث سنوات، إذا ما ضرب اليوم في عشرة جنيهات.. حسـبة عشرة آلاف جنيه تقريبًا، منذ سنوات وهو يصر على صرفها، في الإدارة يعترضون، وهو لا ييئس أبدًا، حاول مرات كثيرة، وفشل، وحاول مرات أخرى، وفشل، فرفع دعوى قضائية ضد الشركة عنـد قريبـه المحامي، ووعده بأنه سيكسـب القضية إن شـاء الله، وله عشرة في المائة أتعابًا، ووافق بدوي، سيشـد له تلغرافًا في البلد، يذكره بالقضية، يهزها حبتين في المحاكم، قريبًا ستحصل ابنته الكبرى على دبلوم الثانوي التجاري،

ويمكن يجيلها عدلها وتتستر، والقرشين ينفعوا، وتكون فاتحة خير على كل الزملاء، ربنا يسهل.

ترك بدوي القهوة وذهب للشركة، فرأى لمة، والمهندس محمد زكريا يجلس على المصطبة، وجميع العاملين بالشركة يلتفون من حوله، فاقترب بجرابه المتسخ، ورمى سلامًا لم ينتظر أن يرد إليه، ثم هرول للبدروم، ناحية المسجد، سيصلي الظهر، فلن ينفعه أحد لو فاته الفرض، والعصر باقي عليه أقل من عشر دقائق «هما حيبقوا ينفعوني لو دخلت النار؟»؛ قالها لنفسه ثم ذهب ليتوضأ، شمر الكلسون وفتح الصنبور، غسل رأسه ووجهه وعنقه من تراب المشاوير، ولما انتهى من وضوئه وتلفت خلفه وجد كل العاملين في الشركة واقفين خلفه ويتوسطهم المهندس محمد زكريا.



مـــرزوق

نوبـة حراسـة

في آخـر ليلة مـن ليالي إجازة عيـد الفطر كان «مرزوق» يقـف بهيئته التي حفظها كل من يمر على المكان بعد أن يسـدل الليل سـتائره، فالشركة جميعها إجـازة، والمـكان كلـه بمخازنـه ومواتـيره ودفاتـره وأوراقـه وأسراره ملك لمرزوق وحده.

و«مـرزوق» ليـس اسـمه، فهو محمد أحمد مـرزوق، ولكـن لأنه الحارس الليـلي على دورين كاملين وبدروم شاسـع بمحتوياتها؛ فلا بد أن يكون فقط مرزوق، بدون محمد أو أحمد، فتلك الأسـماء لا تصلح لخفير مهمته حراسـة ممتلـكات الشركـة، ولا بـد أن يُرعب من نظـرة واحدة أي كائـن يقترب من حـدوده. ومـرزوق لا يجالـس أحـدًا؛ حتى الشـخص الوحيد الـذي يكون متواجدًا في نفس توقيت عمله، عبدالحميد مصطفى الذي يسـتقبل الأعطال في الفـترة الليليـة، لا توجد علاقة تربطهما أكثر من السـلام وكلمات المعايدة، أو كيف الحال؟ وازاي الصحة؟ وكل سنة وانت طيب.

عند التحاق مرزوق بالعمل في الشركة منذ خمس سـنوات كان له نصيب وافر من الوسـامة، فدائمًا حليق الذقن والشـنب، مسبسـب الشـعر، ملابسه

مكوية وحذاؤه لامع. ولكن بعد سنوات قليلة رأى أن ذلك الشكل لا يتناسب وطبيعة عمله في الشركة، فهو -برغم حصوله على مؤهل متوسط- طلع أو نزل خفير، ولأن مؤهله دبلوم صنايع قسم نسيج؛ فقد تقدم لتلك الوظيفة بشهادة الإعدادية، ومن بين خمسة وعشرين متقدمًا اختاروا اثنين فقط، مرزوق حارسًا مسائيًّا لثلاث ليالٍ، وفارس للثلاث الأخرى، وليلة الجمعة يتبادلانها بينهما. ولأن كل المهن تمهر صاحبها بما يناسبها من منظر وطِباع، فلم يعد مرزوق مسبسب الشعر، وذقنه يهمل حلاقتها بالأسبوع، وشنبه نسى حلاقته نهائيًّا؛ أو حتى تهذيبه، فصار كومة من الشعيرات المبعثرة على شكل قوس يطوق فمه، ولم يعد يهتم أيضًا بنتف الشعر الزائد من تحت إبطه، فقط يعبث في أذنيه أو يساوي شعر حاجبيه كنوع من التسلية وقتل الوقت. بدَّل القميص والبنطلون بجلباب صوف غامق ومن فوقه بالطو رمادى طويل يتخطى ركبتيه، وكبس في رأسه طاقية ولفها بفوطة ينتهى طرفاها في عبه، أعطته تلك الملابس سنين أخرى فوق سنه، فأصبح لبعض أمناء الشرطة الواقفين في أكشاك أسمنتية تشبه نعوشًا واقفة أمام مبنى مباحث أمن الدولة «عم مرزوق»، برغم أنه لم يتم الخامسة والثلاثين بعد. قسمات الخفراء بدأت تنضح على ملامحه، فقد تكررت مئات السهرات أمام مصاطب الشركة، التي تشبه بالليل ثيرانًا نائمة بلا رءوس ولا أطراف، يقف معظم الليل بجوار عمود من الحديد المشغول (الكريتال) معلق فيه فانوس مجوف ينام بداخله مصباح شحيح الإضاءة يرقص من أقل نسمة هواء، وعندما تشتد الرياح تصاحب حركة الإضاءة بعض أصوات التخبيط والشخللة؛ فيأخذ المكان برمته بُعدًا يقف في تلك المنطقة الواقعة بين

الحلـم واليقظة. بعدما يمل مرزوق مـن الوقوف ومتابعة خياله على الحيطان المقابلـة يجلس، فيرى ظلـه الضخم قد تكـور وتحول لكومة كبيرة كالعشـة، وعندمـا يمل من متابعة نفسـه في الأطـوار الخرافية على جميـع الجدران يعفر سـيجارة، أو يلعـب في أذنه أو ينتف بعض شـعيرات من حاجبـه وهو يرفع نظره لأعلى، يثبّته على النجوم التي ترصع السماء وسط ظلام دامس.

ولكن ماذا يفعل مرزوق؟ وما هي طبيعة عمله؟ منذ الثامنة مساء - وهو الوقـت الأقصى لسـهر العمال - ينزل لسـاحة الشركة التي تخصـص بالنهار لركـن السيارات، وبالليـل لنوبات الحراسـة. يرصص أبواب إدارة شـئون الأفراد والسـلم الخلفي والمخزن بحبات رصاص مبططة وسـميكة كالعُمْلة القديمـة. ثم بعد ذلك يشـيل «الرصَّاصة» ويسـلمها لعم أحمـد فرغلي عامل البوفيه، فيغلق عليها دولابًا مخصصًا لحفظها وينصرف، ويظل مرزوق طوال الليل الممل يتجول بين المخزن والإدارة والسلم الخلفي.

الليـل كسـيح لا يمر، الليلة الواحـدة بثلاثة نهارات، وربما أكثر، يُسـلك صوتـه كل حين بإحم من صنعه، أو يرد سـلامًا بصـوت متحشرج يدل على أن صاحبه لم يدرب أحباله الصوتية منذ سـاعات، يعلق طبنجته التي سلمته الشركة إياها، سـنوات خمسًـا لم يُطلِق منها رصاصة منذ أن لمسـتها يده، يشير بالتحيـة لأحد أمنـاء الشرطة على الناصية الأخرى ونظـره معلق على طبنجة الأمين، يُجري مقارنة سريعة بين سلاح الأمين الميري وبين سلاحه.

أصابـه ذلك العمل بما يشـبه الخرس، لا يتكلـم إلا لمامًا، طوال ما يقارب نصف اليوم، من الثامنة مسـاء وحتى السـابعة من صباح اليوم التالي، تعمل

فقط عنده حاسة السمع برهافة، أما اللسان فشبه مقطوع، حتى عندما يحاول أن يُجري البروفات على تدريب صوته في أغاني أم كلثوم لا تساعده حنجرته، لا تطاوعه الكلمات كما يريد، يخرج الصوت متشنجًا ومتقطعًا كوصية المحتضر، ينسى الكلمات التي كانت تشدو بها الست.. «ياما هانت لك دموعي كل مرة .. كلمة كلمة لما لما الهوى ويا الهيها هاها.. واللي آسيته في ليلي اتنسى اتنسى آه آه..».

ويساهم في تأكيد خرس مرزوق عمله الآخر بالنهار، فهو يقضي ربع يوم نهاري في ورشة، أو بالأدق ركن في مخزن خلاطات تُصنَّع محليًّا بدور عُلوي في الموسكي، مركون فيه مكبس لتشكيل جلدة الخلاط السوداء المشرشرة، ست ساعات يقضيها واقفًا يرفع يدًا طويلة من الحديد، ثم ينزلها بكل ما فيه من عزم، فتخرط الجلدة الصغيرة من مربع بلاستيك كبير، تفصلها «استامبة» حادة في مقدمة عمود المكبس، وبعد أن تصبح القطعة الخام كالمصفاة من كثرة الخروم؛ يركنها مرزوق على جنب لكي تُعجن ويُعاد تدويرها وتحويلها مرة أخرى كفًّا أسود من البلاستيك الخام، دائرة شغالة لا تنتهي أبدًا، كالنافورة منها فيها. صوت طرقعة نزول الذراع كان أكثر الأصوات التي يمكنه سماعها، كرنين مزعج وإشارة ارتبطت بأكل العيش والسلام، ولا يبقى لمرزوق بعد هذا الإنهاك إلا وقت النوم، وحتى أثناء النوم لا تخرج أحلامه عن رؤية الخيالات التي يصنعها الفانوس الكريتال الذي يجلس تحته في نوبات الحراسة بالشركة، ولا يتعدى سمعه تكات المكبس الذي يخرط جلدة الخلاط المشرشرة السوداء.

لم ير مرزوق ولو مرة واحدة لصوصًا، أو حتى أشباه لصوص، فمن ذا الذي جُن ليقفز فوق مخزن مقفول ومُرصص، يقف على بابه خفير يدس

في جنبـه طبنجـة يمكنهـا أن تفرتـك رأس أي معتـدٍ في أقل مـن ثانية؟ ليس ذلك فحسـب، فالشركة تقابلها مباحث أمـن الدولة ووزارة العدل، ووزارة الداخلية، الحراسة مشددة بشكل يمكن معه عدم وجود خفير أصلاً، ومن ذا الذي يسـتطيع تحتحة موتور ضعفي وزنه؟ أو حمل قوالب زهر يزن أصغرها عشريـن كيلـو جرامًا، تعوَّد مرزوق فقط أن يـرى قطة تمرق من أمامه أو كلبًا متسـولاً يجثو عـلى ركبتيه بدون هوهـوة، لا يخيفه البشر لأنـه متأكد من أنهم لـن يقتربوا منه أبـدًا، ولكن ترعبه فقـط كلاب الشرطة التي يتـم تدريبها في الشـوارع على القفز والجري بعد منتصف الليل، ففي معظم الليالي السـاهرة أمام المخزن يراها واقفة في صفوف كالقطيع، يمسـك كل عسـكري بسلسلة غليظة تبدأ عند عنق الكلب وتنتهي في قبضته، والواحد منها في حجم جحش وجسارة أسد، سلالة منحدرة من أصول أوروبية شرسة، أصواتها المتداخلة بالليـل ترعبـه برغم بعدها النسـبي عنه، تنزل الكلاب مـن عربات مُصفحة على الناصية الأخرى، تتسرب في خُيلاء بقوائمها العالية وفمها الممدود دائمًا في وضـع الانقضاض، يبلع مرزوق ريقـه كلما مروا بالقرب منه وهو يتظاهر بربـط الحزام الجلد المدسوسـة فيه طبنجته، أو يقف تحـت الفانوس مدخمس الإضـاءة وهو يراجع على تحزيم الجراب جيدًا وشـد الأبزيـم مرتين أو ثلاثًا للتأكـد من أنه أبدًا لن يسـيب مـن مكانه، ويزغر له كلب مـن القطيع ويُركز النظر، يهيَّأ لمرزوق أن الكلب سـينقض وسـتفلت السلسـلة الحديدية من يد العسكرى. فيضع يده تحسبًا للظروف على كعب طبنجته كحركة تهويش. أما العسـاكر فيلبسـون ملابس فضفاضة ومرقطة كجلود حيواناتهم المرعبة، كما لـو كانوا عجينة واحدة ثم انفصلوا وأصبحـوا فريقين، رعاة وقطيعًا، أحيانًا

يجرون في اتجاه جري الكلاب؛ وأحيانًا يجرون هم أولاً وتجري بعد ذلك من ورائهم حيواناتهم المتوحشة.

الليل لا يعطي لمتأمله الصورة كما هي، بل يضيف عليها الهواجس والخيالات، فأفق النهار واسع وبراح، أما الظلام فيحدد النظرة في مجال ضيق ومراوغ. يرى مرزوق كائنات مخلَّطة تمرق أمامه، بذيول أحيانًا، ورءوس فائقة الكِبَر أحيانًا أخرى، يمر بجواره كائن هجين، بين إنسان وحيوان، يحف في ملابسه، يأتيه على شكل ظِل يتقافز مع أقل حركة للفانوس المختفي في تجويف العمود الوحيد المنتصب أمام بوابة الشركة الرئيسية، وعلى حسب سرعة الرياح تتشكل ظلال لكائنات غريبة ومختلفة، تمرق على كل الحوائط، القريبة منها والبعيدة، ويساهم في التعايش مع تلك الخيالات والاندماج معها خلو الشارع من المارة عند الساعات الأولى من اليوم الجديد، وكذلك الأصوات المصاحبة لقفز الكائنات التخيلية، حفيف أوراق الساحة التي تطير وتحط في أي مكان، تخبيط السواتر الحديدية التي تجر على عجلات لتفسح الطريق عند دخول وخروج سيارات مباحث أمن الدولة، فرملة سيارة مسرعة تحمل مسئولاً مهمًا، ينزل بسرعة وهو يدخل زرار الجاكيت في العروة على عجل، ثم يختفي في لمح البصر، كل ما يراه مرزوق ويسمعه يظل عالقًا أمامه، صورًا متقافزة تخترق عالمه طوال الليل، لا تنمحي من خياله إلا عندما تموج في السماء جبال بيضاء كالثلج، تمر فوق رأسه كدخان كثيف، يرمي عليه سلامًا من أعالي السماء ليعلن عن صباح جديد.

وكلام مرزوق القليل كان يجهده في تكوين جملة، فتحدث تكرارات في

كلمات القعدة الواحدة، وتزيد مفردات قديمة لم يعد استخدامها شائعًا مثل «عفارم عليك.. يخرب مطنك..» وأحيانًا يلقي سلامًا فيقول وهو يبتسم «صباحك نادي».

مرزوق لا يسرح في كيفية الحراسة، أو في أعباء خلَّفتها له هموم وظيفته، لم يكن أبدًا منشغلًا بشيء من هذا القبيل، ولكنه يمر ويقف ويقعد وفي نفسه تساؤلات لا يحلها إلا الحلَّال، فأهم الأسئلة مرورًا على ذهنه في سهراته: كيف سيتزوج؟ خطب منذ سنتين بت بنت حلال وغلبانة، وكوَّن أغلب مستلزمات الزواج بالتقسيط، لكن همته ولهفته قاربت أن تذوب وتتلاشى، فالوحدة تهريه وتنكته، وأحيانًا تحزنه وتبكته، ولكنه يُذكِّر نفسه برغباته أثناء نومه الذي ينقضي في أحضان المخدات والمساند، وأحلامه كلها متعلقة بكلمات من نوعية «تحت سقف واحد.. يتقفل عليهم باب واحد.. ويناموا على سرير واحد..»؛ ودائمًا يتخيل خطيبته تستسلم له، تعطيه ما حفيت من أجله قدماه، وما تكبد بسببه علب حلاوة المولد وأكياس الفاكهة وأطباق الحلويات المشكلة وقليلاً من الذهب وكثيرًا من الفالصو. ولكن كيف سينال المراد وأمه تعيش معه في نفس الأوضة والصالة؟ هو يعرف تمامًا أن أمه طيبة، فلو كح بصوت ضعيف بالليل تقوم وتناوله زجاجة ماء باردة من الثلاجة، وبرغم حنيتها يسأل مرزوق نفسه، كحة بسيطة تصحيها من النوم، فماذا ستفعل عندما يتزوج وتتحول الأوضة الصغيرة لساحة حرب؟

لا يأتيه جواب عن أسئلته أبدًا، فيسيبها على الله، ويستدعي الأمثال التي تعين

على الصبر «ضاقت فلما استحكمت حلقاتها.. ليها رب يساويها.. تبات نار» ولكنه لا يعمل بها، يظل يفكر في الأمر، وبعض الليالي تفنى ولا يفنى تفكيره في حل اللغز، فيستسهل التفكير في الأحلام الناعمة، يتخيل خطيبته راقدة في حجره، هكذا وهو في الشارع، فيخلع كل ما يمنعها عنه، ويقفشها، يدلِّك كل حتة فيها حتى تلين، البت من البحيرة، بلد أمه، بنت حلوة وكل شيء فيها حلو؛ ضحكتها، ورموشها الحارسة لعينيها الجميلتين، وخصرها الطفولي وجبلاها فوق الخصر وتحته.. يستعيد في رحلاته الليلية بعين خياله كل ما يمكنه أن يقتل الوقت، أو يسرقه ويكرُّه كبكرة الخيط في ثانية واحدة، فلا يسليه إلا السرحان والتفكير، أسئلة تجر أسئلة ولا يجد الحلول، فيعاود مرة أخرى طرح التساؤلات على نفسه بطرق مختلفة.

قبل أن يتم تعيينه خفيرًا في شركة شندلر عمل مرزوق مع أمه في صناعة النسيج بالغرفة أم منافعها، مهنة بسيطة تساعدهما على المعايش، نول يدوي صنعه بنفسه، صغير ويشبه آلة «الهَارْبْ» مشدود بداخله صفوف من خيوط الدوبار، تقوم أمه بتجميع القصاصات الفائضة عن حاجة الترزية والخياطات، أحيانًا تشتريها بثمن رمزي؛ وأحيانًا كان الترزية يتعطفون بها عليها لوجه الله بدون مقابل بعد أن تقول بصوت مُنكسر:

- **أنا باكل فيهم عيش وبربي يتامى.**

بالفعل كان مرزوق في ذلك الوقت يتيمًا؛ لكنه كان شحطًا وتخطَّى الخامسة والعشرين، مات أبوه وتركه هو وأمه بدون أي معاش سوى إيجار أربعة قراريط في إيتاي البارود، لا يسدون بند إيجار شقتهما الصغيرة.

كانت أمه تجمع تلال القصاصات وتخزنها، ثم تقوم بلفها بعد أن تحولها



لشريـط في طول شــارع وعـرض إصبع، تُكـوِّم اللفافات المتكـوِّرة في أركان الغرفـة وتحت الكنبة الوحيدة في الصالة، وبعد تحويلها لسـجاد بلدي ملون، يـأتي تجار من أنحـاء مختلفة ويشـترون إنتاجها بالجملة، ثـم يبيعونه بدورهم لبعض الفلاحين الذين يفرشونه على الكنب الإستانبولي، ويضعون العريض منـه على الأسرَّة بديلاً عـن «الكوبرتة» أو الملاءات، وكان بعض المبسـوطين منهم يزينون به شققهم بالكامل كنوع من الفلكلور، وكانت أمه تبيع لبعض صبية متشردين من الأباجية ومنشـأة ناصر ودار السلام قطع سجاد صغيرة، ليبيعوها بدورهم في إشارات المرور لسائقى الملاكي؛ فيفرشوها على الكراسى أو الكنبة الورانية أو يضعوا شريحة منها فوق التابلوه كحُب تغيير.

ولأن دوام الحال من المحال كسدت تجارة السجاد البلدي، بدَّل الفلاحون فرشـه على الكنب بسـجاد صيني رخيص، متسـاوي الحواف وشكله أفضل وعمـره أطـول، أمـا الصبية المتـشردون فقد خفـت أقدامهـم ولم يعد يجدي معهـم بيع السـجاد البلدي مختلط الألوان والخامـات؛ فشرائطه من كل فيلم أغنية. أصبحوا يقفون في الإشـارات ولكنهم لا يحملون على أكتافهم سجاد أم مـرزوق، فقـد بدَّلوه بفـرش صنع خصيصًـا لكراسي السـيارات، على قد الكـرسي بالتمام، ومزود بخرز كبير لتهوية مقعدة السـائق وظهره، بالإضافة لذلك كان منظره أجمل وكأن السائق يضيف قطعة ديكور لسيارته.

نسـجت العناكب خيوطها فـوق دوبار النول في ركـن الغرفة، واهترأت أركانه الخشبية وبعض أوتاره نشط فيها السوس. بعد فترة حال لونها وكلح، وبعـض لفافات في حجم البطيخ مكورة تحـت الكنبة تنتظر عملية تدوير لن

تأتـي أبدًا، أصبحت وظيفة أطلال الماضي الوحيـدة هي تذكير مرزوق وأمه بأيام التجارة وبحبوحة العيش.

تسـتحوذ أم مـرزوق عـلى الوقـت الأغلـب مـن سـهراته، يشـتاق إليها في الورديـة أكثـر من مـرة، ولكنه عندما يذهـب ويراها يتبدد جـزء كبير من الاشـتياق، فأمه التي تنام أمامه؛ والتي قال لنفسـه عنها إنه عند ذهابه للبيت سيُقبل يديها وقدميها؛ يجد نفسه باردًا تجاهها، لا يقبل يدها ولا حتى يسحب فوقهـا اللحـاف ليغطي كتفيها الضامرتين، ولا يسـخن لهـا اللبن ويصحيها لتشربه قبل أن ينام، ولكنه يذهب للسرير كسـكران، يرتمي فوقه ولا يستيقظ إلا بعـد الظهـر، يصحو فيجـد أمه العجوز هي التي سـخنت له ما فاض من طعـام الأمس، وجهزت له ملابسـه، وحتـى حذاءه، لامعًـا ومركونًا بجوار البـاب، وجوربه مدسوسًـا فردة داخـل أخرى ومحطوطًا عـلى طرف الكنبة. يدس ملعقتي أرز مع لقمتين بالطبيخ المقسـوم في فمه، ويسـاوي شعره بيده ليلحـق بميعاد عمله الإضافي على مكبس جلدة الخلاط المشرشرة، ينتهي من عملـه بعد إضافة بضع مئات من قطع غيار الخلاط، يأكل سندويتشـين فول ويتمشـى من الموسـكي حتى ميدان لاظوغـلي، وفور أن يرصـص الأبواب ويقـف تحت عمـود الكريتال يتذكر الشـخصية الأخرى في أمه، الشـخصية التـي يشـتاق إليها ويتمنى لو أنه ذهب الآن وحـالاً للبيت لكي يُقبل قدميها والتراب الذي تدوس عليه.

قبل خمس سنوات لم تكن هناك تلك الوظيفة التي يشغلها مرزوق حاليًا، فلم يكن هناك داع لاسـتحداثها، ومنذ عام 1874 وحتى عام 1990 أي أكثر

من مائة عام، لم يكن ثمة ما يستدعي الحراسة. ولكن في بدايات العام الذي أعلنت فيه الشركة عن حاجتها لوظيفة حارس ليلي حدث شيء عجيب، ولم يجد أحد له تفسيرًا حتى الآن.

كانت من ضمن الشركات المنافسة لشركة شندلر، شركة طلعت في المقدر ولمع نجمها حتى غطى أو كاد يغطي على سمعة شركة شندلر في مصر بأسرها.

اسمها «الشركة العربية المحدودة»، أسسها بعض مهندسين غرباء لا يعرف أحد لهم بلدًا أو هوية، ولكنهم يتمتعون برغم حداثتهم بطرق وأساليب مبهرة في الإدارة والتشغيل، ابتكارات غير موجودة في شركة شندلر، فالمواتير عندهم مغطاة بطبقة من مادة رقيقة تشبه الفبر، لا تتأثر بدرجة الحرارة، حتى لو اشتغلت متواصلة ليل نهار، وريش الكونتاكت ليست كما في شركة شندلر مصنوعة من حديد أو خوص النحاس. ولكنها من مادة شمعية طيّعة وشفافة كالبلور ولا يراها من هو بعيد عنها بمقدار متر واحد، يسمونها «الجرافين» وهي مادة كربونية متناهية الصغر، وبرغم ضآلتها فهي تنقل الحرارة والكهرباء بامتياز. وحتى الكتالوجات والرسوم يطبعونها بشكل فخيم وملون، والكنترولات لها طابع أوروبي باهر الجمال والنظام، مكسوة ولها باب يفتح كالثلاجة، وليست عبارة عن مجموعة من الخِوَص الحديدية معمولة لتؤدي الغرض والسلام، والخواجة أنطونيو في شركة شندلر التاريخية برغم دقته طريقته بدائية في تجميع وحدات الكنترول، لأنه تعلم الصنعة من الجيل الثاني من الخواجات الذين تعلموا بدورهم من الجيل الأول الذي هبط مصر في أواخر القرن التاسع عشر. كانوا مجموعة محنكة في المهنة ومغموسين فيها لآذانهم. إلا أنهم كانوا تقليديين، لا يُدخلون جديدًا على طرق التجميع

أو تطوير الهياكل، ولا يسعون لذلك أو يفكرون في الموضوع برمته. وجاءت الشركة العربية الوليدة طامحة إلى محو تاريخ طويل في أقل من عام، فكيف التصدي لهذا الخطر؟

قادة شركة شندلر العتيقة موهومون، متكلسون ومترهلون، لا يهمهم سوى المضايفات وعشق المظاهر، يقمعون العمال بكل السبل والحيل، ويصرفون لأنفسهم مكافآت خرافية، ويلقون بفتات الفتات للعمال والموظفين الصغار. أما «الشركة العربية المحدودة» فقادتها يتغيرون حسب المواقع المؤثرة، رئيس القطاع يصبح رئيس مجلس الإدارة ثم يعود مرة أخرى رئيس فرع، ولا يهمه أن يصبح حتى مدير مبيعات أو مدير مشتريات، ما دام ذلك يخدم الهيكل العام لشركته، والشركة العربية المحدودة برغم صغرها وقلة عدد العاملين فيها؛ فإنها تتقدم على صعيد العمل والإنجاز بشكل لافت للنظر، ويطلبها العملاء بالاسم، وتسحب المنشآت المهمة واحدة تلو أخرى من شركة شندلر صاحبة التاريخ الطويل والسجل المختوم بعبق يصعب محوه. انجعص أحد العمال على دكة البوفيه وهو يشرح وجهة نظره لموظف يحمل تحت باطه دوسيهًا به أوراق:

- **داحنا لو تفينا عليهم حنغرقهم.**

فقال الموظف وهو يستعد لمغادرة البوفيه:

- **ريقنا حينشف وولاد الكلب دول برضه حيقبوا ويدفنونا.**

لم يتوقف نمو الشركة العربية عند هذا الحد، كانت أعينهم على مهندسي شركة شندلر، مرة بالإغراء بمرتب حقيقي يملأ العين خمسة أو سبعة أضعاف



ما كان يتقاضاه، ومرة برفع شعار «الإنسان يعيش مرة واحدة»، وهي خطة تتضمن خروج مهندسين وعمال وحتى صغار الموظفين من شركة شندلر للترفيه والفسح مجانًا، وكانت بعض رحلاتهم تصل لإسطنبول، وبعض هداياهم سيارات زيرو، ولكن لماذا كل هذا الإغراء ومهندسو شندلر على ذلك النحو من الخيابة والبلادة؟ بعض الخبثاء في الشركة جابوا التايهة، قالوا إن الشركة الأكبر في المنطقة بأسرها هي شندلر مصر، ولو بدأت الشركة العربية المحدودة أنشطتها وشندلر لا تزال ملء السمع والبصر فسيصبحون كمن يحرث البحر؛ لذا كان لابد لهم أن يهزوا أي ثقة قديمة في الشركة العريقة حتى يعملوا بعد ذلك بمنتهى الحرية. ظلت المشاحنات تنشط أحيانًا وتخفت أحيانًا، حتى فازت شركة شندلر بمناقصة تركيب فروع بنك الإسكندرية في جميع أنحاء البلاد، عملية تحلم الشركة العربية المحدودة برسوها عليها، حتى تصبح أحلامها غير محدودة، وعملت شركة شندلر في المشروع بأقصى طاقتها. ولكن قبل تسليم المصاعد بأيام حدث عطل بسيط، حاول أحد الفنيين إصلاحه ولم يوفق، وتم استدعاء مهندس شاب فلم يتوصل هو الآخر لحل، ولكنه اكتفى بأن يقول إن العطل كبير ومعقد، فالدائرة الكهربية المسئولة عن إعطاء الأوامر للأبواب لكي تفتح عند عتبة الأدوار لا تعمل، أو بالأدق الكابل المرن متصل بها بشكل جيد ولكنها لا تقبل أوامر التشغيل. تم بسرعة استدعاء كبير المهندسين، فلم يستطع أن يتوصل كمن سبقوه لحل.

اقترح المهندس ظريف على المهندس محمد زكريا رئيس مجلس الإدارة أن يطلبوا معاونة خبراء من الشركة العربية المحدودة، رفض بشدة وقسوة، وبخ المهندس ظريف وقال له بطريقة منذرة:

- **والله لو جبنا خبير من سويسرا ما حنبعت لهم ولاد الكلب دول.**

وبالفعل بعد ساعات قليلة تم استدعاء خبير من الشركة الأم بسويسرا، جاء في اليوم التالي على متن أول طائرة متجهة للقاهرة، مهندس شاب ومعه مترجم يكبره بقليل، توجها صوب الموقع مباشرة قبل التقاط الأنفاس، بعد رحلة شاقة ومرهقة؛ جلس الخبير وتأمل الكنترول طويلاً قبل أن يقول كلمة، نظر نظرة متعمقة وسارحة، كصوفي أخذه الوجد، أو كلاعب يوجا مخلص. سأل الخبير وأصغى المترجم وترجم:

- **ما هي المشكلة باختصار؟**

تلعثم المهندس ظريف، فقد فرض عليه رئيس مجلس الإدارة أن يوجد مع الخبير السويسرى. لم يكن يجيد أى لغات أجنبية، كانت له لهجة ريفية فجة التعبير بشعة الألفاظ، لا تناسب مهندسًا يحدث خبيرًا جاء مخصوصًا من سويسرا. المترجم طرح على الخبير رد المهندس ظريف كالتالي:

- **لا ندرى كيف يمكننا تشغيل الدائرة الكهربية وكل التوصيلات سليمة.**

وهنا وقف الخبير كما لو كان يخاطب المهندس ظريف وحده، والمترجم لا يلاحق سرعة الكلمات:

- **السبب في المشكلة مبدئيًا يا عزيزي هو طريقة طرح السؤال. فأنت قلت: كيف يمكننا؟ ولم تقل: بأى الطرق يمكننا...؟**

توقف المهندس ظريف عن الهرش في ذقنه، وجمت ملامحه وقبل أن يستوعب ما يقال أكمل المترجم من على لسان الخبير مباشرة:

- طريقة طرح المشكلة تساهم في الكثير من حلها.

بعد أن عاد إلى المهندس ظريف جزء من وعيه وإدراكه أجاب، ونقل عنه المترجم:

- لقد تمت كل التوصيلات بشكل جيد. وأشك أن الدائرة المستوردة من سويسرا معيبة.

وهنا أدرك الخبير أنه في واد وجميع العاملين والمهندسين في شركة شندلر في واد آخر. ضغط على زر في الكنترول مرتين، ثم فتح شنطته الصغيرة وأخرج مفك تيست له ثلاث علامات مضيئة، بدَّل فردتي سلك ثم ضغط الطلب فطلع الأسانسير يلبي نداءه.

وجموا جميعًا وكأن أحدًا داس على زر فتوقفت الصورة تمامًا. وضع الخبير المفك والآفوميتر في شنطته الصغيرة وسط ذهول المهندس ظريف وثلة من الفنيين الذين كانوا مبحلقين كمن يتفرج على حاوي، وقبل أن يبرد المشروب الساخن الذي طلبوه له كان قد همَّ بالانصراف.

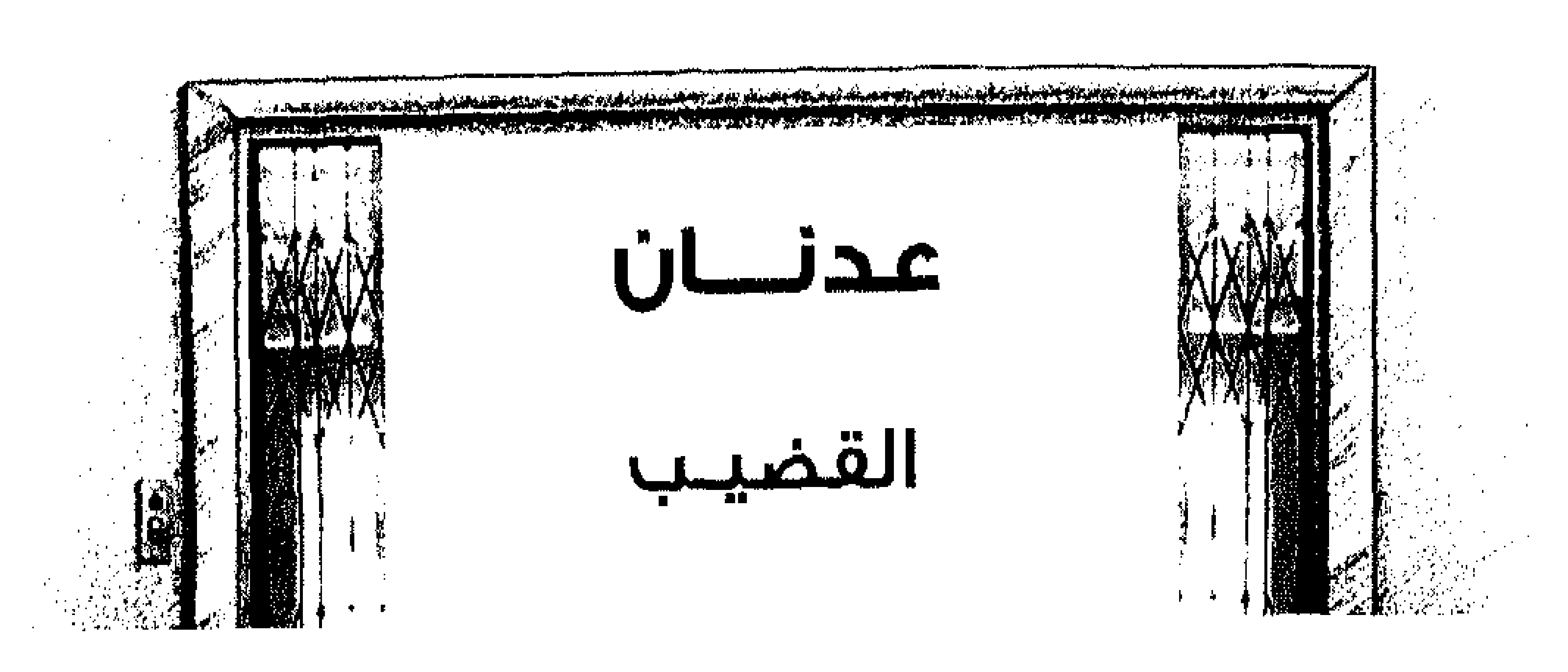
بعد ذلك بليلة واحدة، وفي إحدى ليالي يناير الباردة سُرق نصف محتويات المخزن دفعة واحدة من قِبل مجهولين، وكانت أغلب المسروقات مشحونة وجاهزة لتكملة تركيب ما تبقى من مصاعد فروع بنك الإسكندرية. ودارت عجلة التحقيقات لأيام طويلة دون التوصل لشيء، وأفاق المسئولون على متهم واحد لا يملكون دليلاً واحدًا على إدانته، وتعجب شبه جماعي، كيف لم يفكروا في حراسة منشآتهم ومخازنهم التي تحتوي على بضاعة بملايين الجنيهات لمائة عام مضت؟

عادت لمرزوق بعض من روحه عندما شق السماء نور مدخن يعلن عن صبح جديد. تبدد الظلام بعد أن كان جاثمًا وحالكًا، مزقت الغيوم الثقيلة أثوابها قطعًا قطعًا على قبة السماء، وأصبح بإمكان مرزوق أن يحدد أبعاد البنايات البعيدة.

انصرفت الكلاب بعساكرها لأداء المهمات المختلفة، وأول الوجوه التي يراها مرزوق هو عم مليجي الذي ارتبطت ملامحه دومًا بانقشاع الظلمة وطلوع الصبح، في السادسة والنصف يكون أول الحاضرين في ساحة الشركة، وهي لا تزال خالية من السيارات، يرمي صباحًا طويلاً وبعض ممازحات وقفشات مع مرزوق، يزغزغ عم مليجي أذن الحارس بآخر نكتة خارجة ومكشوفة، يضحك مرزوق، يشعر بوجهه يتشقق لجموده كل تلك الساعات بلا تعبير، فكل تعبيراته كانت داخلية، وأحداث الليل وتفاعلاتها كانت تخيلية.

يسأل عم مليجي سؤاله الذي تعوده مرزوق كل صباح:

- **إيه أخبار الطير الأخرس أبو عين واحدة؟**



• **رمت العفش كله من الشباك يا حاج!**

تأمل الحاج قنديل ملامح عدنان، كان صوته مبحوحًا وخزيه واضحًا، تحمّل الحاج الحكاية حتى نهايتها، أخذ يتأمل عينيه العسليتين المغبشتين وهما تلتمعان بسائل يهتز ولا ينزلق، نظرة مهزومة تطفح بالمذلة والانكسار. سحب الحاج كرسيه وجلس بجواره - كانت عادة كل العاملين في مركز الصيانة أن يذهبوا هم للحاج وليس العكس- دفع برشفة أخيرة من بقايا كوباية شاي كانت في يده ثم طرح عليه سؤالاً بنصف اهتمام:

• **وعملت إيه؟**

فأجاب عدنان بعد مدة طويلة لا تتناسب وبساطة السؤال:

• **عملت محضر.**

البرد قارس، والصقيع بالخارج لا يُحتمل، رائحة مركز الصيانة زنخة ولا تناسب الحديث في موضوع حساس كهذا. ولكن رغبة الفضفضة لا تخرج إلا من زكائب الهموم، يجلس عدنان أمام الحاج متهدل الأطراف، خائر القوى، يهتز لحمه المترهل من أقل انفعال. يده الطرية كالعجين تضغط على عكاز مرشوق في الأرض بغيظ مكتوم، يخرج النفس منه ثقيلاً، بطيئًا،

وكأنـه يزيح عن صدره أكداسًـا من الحجارة، والحاج قنديل يفرشـح رجليه مفسـحًا المـكان لقصعـة مليئة بالفحم المزنهر، اسـتغل فـترة الصمت ودفس كنكـة سـوداء ومهببة في الجمر وهو يزغـر لعدنان، أدام النظـر لعصاه وكفيه المنعقدتـين فوقهـا. الإضاءة داخـل المركز خافتة والصهد يطلـع من القصعة فيضيء ملامح عدنان، ويبدو وجهه الأبيض كقناع برتقالي.

تحلّق بعض العمال المتطفلين حولهما، يتحججون عندما يستبد بهم الشوق لشهوة الفضح باحتياج شيء ما قريب من المكان، مسّاحة، جركن فارغ، فردة شبشـب. اقترب رأس الحاج قنديل من رأس عدنان ودنا فمه من أذنه وكأنه سيلتهمها، ثم قال بنبرة صوت واعظة:

- **مانـت الـلي غلطان يا عدنان. يـا راجل هوّ في حد عاقـل برضه يتجوز بنت شوارع؟**

جذبت الكلمة الأخيرة وحدها انتباه العمال المتجولين كهوام نشط مركزه الحـوار الدائر، يمرقـون وكأنهم أطيـاف، خطاهم بطيئة ونظراتـهـم متطفلة، ملامحهم تطفح بالغباء والأسئلة.

بـرّق عدنـان للعـمال في نظرة واحدة طويلة، ولسـان حاله يقـول: ما هذا الـذي جلبتـه على نفسي؟ راجع أفكاره ومشـاعره. وكأنما قـوى مجهولة بدأت تسـحبه من المكان برمته، اعترافـه للحاج قنديل كان قـرارًا غير صائب، هكذا شعر، الفضفضة عذاب وألم. ودخوله إلى غمار الحكي أصبح واقعًا لا مفر منه.

معـاول تـضرب نافوخـه ونـار تشـعل تصوراتـه ورأسـه يـدوي بصخـب وضوضاء. لمس الحاج الجرح في وقت غير ملائم للبحبحة في الكلام، عدنان على

وشـك الانفجار، والحاج ينكشـه للمزيد من التسلية. والمسألة كلها مجرد تحصيل حاصل وقتل للوقت ليس إلا. فالحاج يعرف عن عدنان مسبقًا كل شيء.

عدنـان الفلسـطيني، ضابـط القضبـان في الشركـة، وهـي وظيفة سـهلة ولكن تكتنفها المخاطر، فالقضبان التي يسـير عليها المصعد لو كانت واسـعة قليلاً ستنسـلت الكابينة وتصطدم بالثقل الموازن، وهذه حادثة مدمرة تشـبه تصـادم قطارين، أما لو كانت القضبان ضيقة فلن تتحرك الكابينة نهائيًا، ولو حدث فستُطلق نعـيرًا قويًا تهتز له جـدران المبنى، وتُدمر كـراسي الربط بين القضيـب وجسـم الكابينة، وهذه الكـراسي لها وظيفتـان، الأولى هي توازن الحركة الرأسـية وانسـياب الطلوع والنـزول، والثانية تعليـق المزايت بفتائل تتـدلى لتشرّب القضيـب بالزيت. وكانت وظيفة عدنان عنـد تعيينه بالشركة هي تسليم هذه القضبان على مقاس الكابينة بالتمام، ميزان مياه أفقي وميزان خيط رأسي مظبوط على الشـعرة. ولكنه لم يسـتمر طويـلاً، فضابط القضيب لابـد أن يظـل دائمًا عـلى نفس الجديـة والتأهـب في العمل، لا يتكاسـل ولا يتجاوز المقاييس المعمول بها، فالقضيب لو لم يكن منتصبًا يشق طريقه للسماء بعزة واستقامة بطول المباني. فلن يقف المصعد أمام العتب بالضبط.

وعدنـان الفلسـطيني كتـاب مفتـوح لأغلـب مـن عمـل معهـم مـن عمال ومهندسين، جميعهم يعرفونه عن بُعد، من ظله أحيانًا، بدانته تميزه من آخر الدنيا، لا ينمو في جسـده شـعر مثـل الرجال، فقط بعض شـعيرات لا يتعـدى عددها أصابع اليدين، تتناثر في صحراء وجهه، تشبه دبابيس إبرة مرتخية، يتركها أحيانًا بالشهر بدون تشذيب أو حلاقة، فتظهر كخيوط عالقة في بشرته البيضاء.

يبدو عدنان من بعيد بلا عنق، أو دُكت عنقه بفضل رأسه الكبير، يداه قصيرتان نسبيًا ووركاه سمينتان جدًا، يتدلى كرشه فوق حزام بنطلونه فلا يَبين، يعرفه المارة من هيئته، فهو يجلس يوميًا على دكة عمال الصيانة الأبدية، يسند بيديه مجتمعتين على عكاز خيزران بني، اشتراه من بائع سريح مر ذات صباح من أمام مركز الصيانة.

وبرغم تخطي عدنان الخمسين، فإنه لم يتزوج، غير أنه يوميًا لا حديث يطيب له إلا عن النساء ومفاتنهن، وما تجلبه العلاقة بهن من ملذات وويلات، فالأمثلة عنهن لا تحصى ولا تُعد، فيصفهن مرة باب بلا دار ومرة بئر بلا قرار، وأحيانًا هن مباهج الدنيا ومخزن السعادة، ومرات جنيّات وحيّات وخميرة الشقاء وخزان البلاء. كثيرًا ما ضُبط عدنان متلبسًا بمجلة جنسية ملفوفة في جريدة الأهرام، أو شريط فيديو مدسوس في شنطة يده الصغيرة قال له بدير بعد سلب عشرين جنيهًا من جيبه؛ إنه سجله مباشرة من القمر الأوروبي.

المعلومات عن شباب عدنان شحيحة وتشبه سِيَر المشاهير في قصص الأطفال:

فر أبوه به صبيًا من الضفة الغربية أثناء حرب 67 بعد أن حوّط على قطعة أرض كبيرة كان يمتلكها هناك، هكتار إلا قليلاً، نصفه منزرع ونصفه ترعى فيه الأغنام. له أخ صغير، تركه أبوه وهو في المهد، ووعد أمه أنهما سيعودان عما قريب، ولم يعودا. ترك أبوه ولدين آخرين من زوجته الأولى التي لم يرها عدنان ولو لمرة واحدة، ثم تعيّن عام 1975 في شركة شندلر، وبعد سنوات

قليلـة مات أبوه، وبعدها لم يذهب للضفة حيث أرضه وإخوته سـوى مرتين فقط طوال ثلاثين عامًا.

يمكننا أيضًا استجماع بعض معلومات أخرى، أخبار تقريرية يثرثر بها العمال وتنمو تلقائيًا عن طريق القيل والقال بدون ضوابط. عمل عدنان في جميع أقسام الشركة تقريبًا، بدءًا من التركيبات والتي لم يجتهد فيها بما يساعد على تطوير مركزه، مرورًا بالإصلاحات التي لا تختلف كثيرًا عن سابقتها، وانتهاء بمركز الصيانة الذي كان المنفى الإجباري لجميع المغضوب عليهم، أو الذين أصاب مؤشر ذكائهم عطب ما. ظل لسنوات ليست بالقليلة يخرج للصيانة ومعه مساعد، وكان يختار مساعده أصغر منه سنًّا لأسباب عديدة:

أولاً، يضمن أنه لن يعمل طوال اليوم، فمساعده سيقوم بالواجب، ثانيًا: لو كان من معه أكبر منه أو في مثل سنه سيعامله بقدر مهارته في مهنة الصيانة، أما لو كان أصغر منه فستصبح المعاملة بقدر فرق السن، ويكفي أنه سيقول له «يا عم عدنان» ثالثًا أنه يمكنه التزويغ على حس المساعد بعد دعوته لساندويتش فول وكوباية شاي.

ولكن هل من عائق جعل عدنان أعزب حتى هذه السن؟ من الإجحاف أن نطلق مثل هذه الأحكام جزافًا، فما نعرفه عن الرجل أنه يجيد الكلام عن النساء، ولكن بعض زملائه قالوا إن حديثه هذا إنما هو فقط ليبعد الأنظار عن عيوب جسيمة؛ أدت في النهاية لعدم قدرته على معاشرة النساء من أساسه.

أكثر من مرة يتوقف عن الحكي للحاج قنديل، تتبلد أفكاره التي نسقها ألف مرة، وعندما يطارد ما يود أن يقوله، لا يأتيه أبدًا كما يريد.

العمال متكومون ومقرفصون في الأركان كما لو كانوا كائنًا واحدًا كبيرًا معجونًا بفطرة القطيع، تجمعهم كلمة وتفرقهم شخطة. لا يعجبهم العجب بالرغم من أنهم هم أنفسهم أعجوبة. وحدها الحكايات عن الأوضاع الجنسية المبتكرة تطاردهم في الصحو والمنام.

ولما كان هذا الموضوع بالذات في شركة شندلر يستهلك وقتًا لا بأس به من اليوم. كان لزامًا على عدنان أن يُثبت طوال الوقت مقدرته على الفتك بالنساء وتمزيقهن فوق الأسرّة. حكاياته الشيقة ونكته المكشوفة المبتكرة تجعل العمال يتحلقون حوله كالذباب، وبرغم علمهم بأن ما يحكيه لهم هو محتوى شرائط فيديو شاهدها مرارًا حتى حفظ كل حركة فيها ووضع. فإن لعابهم كان يسيل كالأطفال وأعينهم تجحظ كالضفادع ويتسحب الخدر المنعش على أعمدتهم التي كانت قبل الحكي مستكينة ومرتخية، ولا مانع أحيانًا من بعض الشطحات، حركات وأوضاع من اختراعه يحشرها لتضيف على حديثه بُعدًا أسطوريًا، فتعطي من يستمعون إليه إنصاتًا وبحلقة أكثر اهتمامًا. يتابعون أطيافًا وجنًّا يمشون أمامهم ويخترقون مجلسهم. أو نساء يتقصعن بالحركات ذاتها التي يصفها لهم عدنان. فينجعص لمّا يجد الوقت قد حان ليتسيد هؤلاء الأبقار الهولاندي على حد تعبير الحاج قنديل.

والغريب أن ما اخترعه بالرغم من كونه محض خيال، فإنه كان يحفزه هو شخصيًا أشد تحفيز، يشعل ذكورته الضعيفة ويصيب مباشرة مركز وهجها، فيذهب لا سلاح في حوزته إلا التصورات إلى مكان عرفه بالصدفة أثناء عمل الصيانة في إحدى عمارات وسط البلد، وبالتحديد بميدان رمسيس، الدور

الأخير في العمارة عبارة عن صالة كبيرة وخالية إلا من أعمدة ملصق عليها صور فنانين ومطوقة بعناقيد إضاءة مختلفة الألوان، وفي امتداد الصالة بوفيه وحمامان، معلق على واجهة الباب الخارجي يافطة تعلن عن صالة ديسكو باسم «حمورابي» أحد الحمّامين مخصص كبيت راحة، قاعدة وحوض ودش يد مرشوق في الحيطة. أما الحمام الآخر فمزود بمرتبة مفروشة على كامل أرضيته، مبقعة وبها بقايا زيتية متسخة وغامقة. يوم الخميس من كل أسبوع يختار عدنان هذه العمارة بالذات من أعمال الصيانة التي يقوم بها. وهناك تعرّف على إحدى النساء وتدعى سوسن. سيدة تعيش مع أبيها الكفيف وطفلها الصغير، يسكنون غرفة صغيرة فوق سطح صالة الديسكو مباشرة. غرفة متواضعة كان يشعر طوال الوقت أنها آيلة للسقوط. حيطانها مفدوغة وبها شقوق يمكن أن يمر منها ثعبان، وبابها ألواحه الخشبية ملخلخة ودهانه ساقط، وجدران عتيقة جيرها الأزرق مبقور ومحارتها منهوشة من كثرة ما مر عليها من شمس ورطوبة وأمطار. على السور القصير موضوع أصص زرع لا زرع فيها، مليئة بالطين وأثر لشيء كان منزرعًا. والغرفة كلها ملطوعة بكفوف حمراء قانية من احتفال قديم بذبيحة بائدة. وفوق الباب كهارب سلكها طالع يشع منه بريق الموت. وعيال عفاريت وجن مصور، يجرون فوق الأسطح والأسوار لكنهم أبدًا لا يقعون.

كيف تعرف عدنان على سوسن؟

كوباية شاي مضبوطة من يد طرية وبصة من عين لها دراية ومخارج ألفاظ لها في الخبرة بالرجال باع.. فقد كانت لسوسن لثغة في حرفين تثير في عدنان

مكامن الذكورة، وربما تنبت له أشياء كانت قبل ذلك نسيًا منسيًّا، وتؤجج ما هو كامن ولم يكن شيئًا يذكر، فكل تعبير يجري على لسانها كان ملائمًا لمقتضى الحال ولذلك كانت النتائج أسرع مما توقعت سوسن.. انتهى رمي الشبكة وعلينا فقط انتظار النتيجة!

عدنان يعرف جيدًا - وربما أكثر من معرفته بأي شيء آخر - أنه لا يملك سوى عضو لا يتناسب مع جسده الثيراني الضخم. تعرف على نساء كثيرات في سنوات مضت. كان يقترب من الواحدة منهن في حركات سريعة وطائشة لا تناسب سنه، كان يحتك بها كما يحتك الأجرب بحائط خشن، تشعر برعشته وهو بكامل ملابسه، ينتفض كالمحموم، يسكب ما تيسر من مائه ثم يهمد عن الحك، فتتأكد من أنه سيخرج من غرفتها بعد أقل من دقيقة. يتكوم في ركن الغرفة كدجاجة تختبئ في خُنها من المطر، يرتعش جسده في نفس توقيت التماع سائل آخر يملأ حدقتيه ولا ينزلق.

أفاق بعد عدة أيام على حلم كان قد كف عن مراودته، لماذا لا يتزوج؟ فماؤه القليل سيتحول مع مرور الأيام إلى أولاد يأخذون بيده عندما تخور قواه ويضعف نظره وتقع أسنانه. الدفء، اللمة، عيال كثيرون يملئون البيت بالصراخ والبراز والهيصة ويملخون كتفه من كثرة الشيل والحط، اللعب والجري، الفسح والمصروف، السبورة الصغيرة المعلقة بجوار التلفزيون والشخبطة عليها بالطباشير الملون، ترديد «أ» أرنب يجري ويلعب و«ب» بطة تعوم في الميه و«ت» تفاحة ناكلها ونكبر. الطبيخ الساخن وسأسأة لقم الخبز الناشف في شوربة العدس، فنجان نسكافيه بالليل وهو يسحب البطانية

الفـرو على نصفه الأسـفل بعد أن يلقف عيلاً من العيال، يجلسـه على حجره ويلعب في شعره الأصفر الطويل حتى ينعس.

كلهـا أضغاث أحـلام. فلن يتمكن عدنـان - ولو بعد حـين- من تدبيق جمعيـات، أو حتى بعض إعانات بسـيطة من صنـدوق الزمالة - والذي كان أغلب عمال الشركة يسـمونه صندوق الزبالة نظرًا لضآلة المبالغ التي يقدمها لهـم- أو صرف مكافـأة زواج تغطي مصاريـف ليلة الدخلـة. كتدبير لوازم الفراشـة من كراسي وصوان وفرقة مزيكا ومصور فيديو. ولكن حدث شيء لم يكن مرتقبًا، غيّر حياة عدنان وقلبها وجاب واطيها عاليها.

■■■

وصلـه خطاب مسـجل بعلم الوصول من أخيه في الأراضي الفلسـطينية المحتلة:

أخي عدنان. نبلغك السـلام وأنت في وطنك الثاني مصر، ونحب نعرفك إن الغنم اللي كنا نربيهم في أرضنا مات نصفها بسـبب القصف العشوائي من الصهاينة، والنصف الثاني مـش لاقيين له علف، وحتى النجيـل الأخضـر مـا عدنـا لاقيينـه، كل إخواتك باعـوا نصيبهم مـن الهكتـار[1]. خايفين على نسـوانهم وعيالهم، انتظرنا سـنين نقول ما ضاع حـق وراءه مطالب، وفضلنا لحد ما شـفنا بأم أعيننـا كيف يضيع الحق ويضيع المطالـب معًا في لمح البصر، ونحـب نبلغـك أن نصيبك في الأرض بالـدولار يطلع له مائـة ألف، وبما إن

(1) وحدة قياس للأرض تساوي 38, 2 فدان، وتساوي أيضًا 10000 متر.




الدولار بثلاثة جنيهات وستين قرشًا بالمصري يطلع نصيبك تلتمية وستين ألف جنيه، إذا فكرت بالبيع راح نبعتلك العقد تمضي عليه وتبصم بالخمس أصابع، وإذا كنت مازلت بتفكر في الأمر وعايز تُبقى على أرضك فأرسل إلينا بحارس من عندك وأرسل معه كل ما خف وزنه من أسلحة، ولكن يكون في معلومك، لا بد أن تختاره فتيًّا في عزم ثور ويجيد فنون القتال، ويعرف الكثير عن أساليب الكر والفر، وأعطه ما تتقاضى من مرتب في شركتك البائسة وزد عليه ضعفيه، عندما تشاور نفسك إرسل لي الرد على العنوان اللي على ظهر المظروف، فلقد نقلت سكني خوفًا من بطش الصهاينة الملاعين، والسلام يا خوي ختام...

أخوك سمير.

ملحوظة: أنا كتبتلك هذا الجواب في مكتب آلة كاتبة عشان المجرمين قصفوا مكتب الولد «نصار» بس نحمد الله، الولد سليم، ربنا يعافينا يا خوي ويخرجنا منها على خير».

■■■

اتخذ عدنان القرار في لحظة يائسة، فالمبلغ زاد على الضعف خلال عامين، مائة وخمسون ألف جنيه كان السعر، وأصبح ثلث مليون. أرسل لأخيه على العنوان المكتوب فوق ظهر المظروف، خطابًا لا يزيد محتواه على جملتين شحيحتين وخاليتين من أي مشاعر أو أشواق أو حتى فنون التعبير:

«الخيرة فيما اختاره الله يا أخي. توكل على الذي خلقك وأرسل العقد».

بعد أقل من يومين كان قد وقّع وبصم على أربع نسخ مصورة ونسخة أصلية مرفقة معهم، وصلته الفلوس على دفعات وبنفس الطريقة.

ظهرت التغيرات سريعة ومفاجئة على عدنان، بدءًا من ملبسه؛ والذي ارتقى مرة واحدة بدون تدرّج، فارتدى البدلة الإيطالي الكاملة للمرة الأولى، في البداية كان منظره مضحكًا أمام عمال الصيانة، فالتغير كان صادمًا ويمثل انقلابًا، قمصان وبنطلونات التوحيد والنور الشعبية أصبحت تراثًا، وبنطلونات أوكازيونات الموسكي لا مبرر الآن لوجودها. جمعها في بقجة وسلمها لمسجد الرحمة بشارع البوستة، وكذلك الأحذية التي كان يشتريها من باعة سريحة يجلسون بالليل أمام عمارة استراند أو خلف وزارة الأوقاف، جمعها في كرتونة وأفرغها أمام زملائه فأخذوا يفرزونها بتروٍّ.

أول بدلة لبسها لم يخلع عن كم الجاكت الورقة المدلاة ليُظهر لمن يراها الأحرف الثلاثة البارزة عليها «B T M» وكبس في رأسه «كاسكتة» قطيفة سوداء، أما البنص فيلمع كالزجاج. ناهيك عن الحنتفة التي جعلت لحمه الأبيض يضوي كالبلور. في اليوم الأول بعد الانقلاب دخل مركز الصيانة وهو يتأتئ ويعلق في كوعه عصا بديلة عن العكاز البني أبو عوجاية، عصا جديدة وآخر شياكة كأنها قُدت من رخام، لها مقبض على شكل رأس حية فاغرة الفم. أما تصرفاته فكانت في البداية ساذجة ومسرحية، كأن يُحيّي زملاءه بإيماءة بسيطة من رأسه، أو يجلس بجوارهم وهو منهمك في قراءة جريدة كاللوردات في الأفلام الأجنبية.

أول من عرف أنه باع الأرض كان الحاج قنديل، فغضب منه ووبخه:

- حد يبيع أرضه؟ يا عبيط الفلوس مسيرها حتتصرف. وترجع يا مولاي كما خلقتني.

بدأ أثر الثراء ينضح على تصرفات عدنان، حتى ظنه بعض العمال قد ورث الملايين، ومن كان منهم يلطعه على قفاه وهو داخل على سبيل الدعابة، أصبح يعرض عن فعل هذا للمهابة الجديدة المسبولة على هيئته، ومن كان يقفش ما بين فخذيه للتأكد من صحة الإشاعات التي يسمعها عن أنه لا يملك من البضاعة الذكورية إلا النزر اليسير؛ نفس اليد أصبحت ترتفع في الهواء لتؤدي تحية تشبه التحية العسكرية لـ «الباشا» عدنان.

ولأن كل من في الشركة لن يستطيعوا -ولو بعد حين- أن ينسوا «الواد» عدنان. ولم يتهيئوا دائمًا على أن يُحضروا أمامهم ما استجد دفعة واحدة. كان لا بد لهم أن يبذلوا بعض الجهد في تغيير أو على الأقل تلميع صورته. ففى البداية كان يجلس على قهوة بدير وهو يعرف أن ثلثي عمال مركز الصيانة يجلسون على نفس القهوة كل صباح، أوصى بدير أن يؤجر له كرسي فراشة كبيرًا ومخصوصًا. له ظهر عالٍ كالذي يجلس عليه عريس في ليلة فرحه، يضعه عدنان خارج القهوة ليراه كل من هب ودب. يطلب لنفسه كل المشاريب التي يمكن أن تُجهّز في القهوة، شاي بحليب، ثم شاي فتلة، وقبل أن يصل الكوب لمنتصفه يطلب قهوة زيادة، ثم ينسون، كوكتيل. زبادي خلاط. غيّر الحجر. معسل تفاح. ميّة الشيشة. المبسم. طلبات لا تنتهي يجهد بها بدير الذي يتحرك بصعوبة ويعاني من زيادة مفرطة في الوزن، وطلبات أيضًا على حسابه لكل من يجلس على القهوة، وأحيانًا يجمع عدنان بنفسه كل عمال الصيانة من

زملائه، صغارًا وكبارًا، القديم منهم والمستجد، حتى الحاج قنديل الذي كان غاضبًا منه بسبب بيعه للأرض يجلس ويشرب على حساب عدنان - غير أن غضبًا آخر ظهر على قسمات الحاج بسبب الكرسي المميز الذي يتقنفد عدنان فوقه - الجميع يطلب ما يشتهي ولا يدفع، المشاريب كلها على حساب البيه، يشرب الحاج قنديل حجري معسل تفاح وشاي بحليب وزبادي خلاط، ويطلب يحيى محمد حسن كوكتيل فواكه وأربعة حجارة معسل زغلول مع شاي فتلة، وقد طلب يحيى ذات مرة جركن مانجو من أحد الباعة السريحة كان ثمنه خمسة عشر جنيهًا وهو يقول بإلحاح الأطفال:

- **البت أميرة نفسها في المانجا.. لو بس معايا تمن الجركن..**

لم يرد عدنان له مطلبًا وحاسب عليه.

كانوا يستمعون إليه في انبهار ساذج وهم يتأملون ملامحه التي اكتست بمهابة لم تكن من قبل موجودة. وأثناء الحكي يمط شفتيه ويزر فمه ككيس نقود، والشلّة جميعها تطبل وتزمر، مصدّقة على ما يقول، إيماءات الرءوس المتواصلة تثبت خروج القطيع عن التركيز نهائيًا. ويضحك عدنان ويكح وينفث الدخان الذي يقرطس رأسه وحدها. ينفخ كرشه ويزيد من قهقهته ويحلف ميت يمين على المارة أن يشربوا على حسابه الفضفاض شيئًا، ولو رفض أحدهم يقسم عدنان. ورأسه وألف سيف لازم يشرب حاجة، ولو وافق المار هلل عدنان وشعشعت أساريره وهاص وافتعل الانبساط.

أصبح في نظر البعض كريمًا، وفي نظر البعض عبيطًا، ولكن ما يهم هو وجهة نظره هو، شخص وجد في حوزته فجأة مبلغًا طائلاً. فانطلق يشتري

كل شيء، بدءًا من مبسم السيجارة المستورد، وحتى تفكيره الجاد في شراء سيارة حديثة، وما بينهما اشترى أشياء لن يحتاج أبدًا إليها، نظارة شمس ماركة «ريبان» وساعة يد ماركة «أورينت» وكمبيوتر ماركة «صخر» وطابعة وفاكس ماركة «زيروكس» وكاميرا فيديو ماركة كوداك بنظام الزوم والمونتاج - اشتراها على أنها كاميرا فوتوغرافية عن طريق الخطأ- واشترى أيضًا تليفونًا محمولاً ماركة «إريكسون 688» وخط مصرفون، بثلاثة آلاف جنيه، وبالرغم من أنه لم يكن يعرف طريقة تشغيل كل هذه الأجهزة الإلكترونية المعقدة؛ فإن ظهوره في الفترة الأخيرة بملابس فاخرة من محلات «مورجاك»، أو تمسكه بلبدة سوداء في رأسه، أو اقتناءه نظارة أو ساعة من طراز عالمي، كل ذلك كان يعطيه قدرًا كبيرًا من التبجيل والاحترام كاد يموت ويشوفه في أعينهم. فلا يتقدم بدير صاحب القهوة بجسده البرميلي، إلا ويقول «وعندك واحد شاي فتلة للباشا عدنان».

من كثرة التزاحم للفوز بمشروب على حسابه أصبح عدنان لا يمشي إلا وجيبه يشخشخ بالماركات؛ معدن مربع نحاسي محفور عليه نقوش مبهمة لا معنى لها إلا عند بدير. المشاريب لا تخرج إلا بماركة نحاسية، يدونها بدير في ورقة باكو معسل ملزقة ومدسوسة دائمًا في جيبه.

يشد عدنان من مبسم الشيشة وينفخ كرشه ويستجلب الضحكات المصطنعة على أي شيء تافه، وأحيانًا كان يضحك على نفسه، ويُحير من يجلس معه، هل هذه القطرات التي تتساقط على استحياء من تحت نظارته «الريبان» دموع، أم من تأثير معسل القص الحامي الذي يحبس القعدة بكرسي منه.

يومًـا بعد يوم تحولت جلسـاته مع زملائه إلى سـخافة وثقـل لم يعد يتحمله، انقطع عن الجلوس على القهوة ولم يعد يذهب لمركز الصيانة.

لكنـه برغـم ثرائـه المفاجئ، فهو لا يزال في كشـوف شركة شـندلر عامل صيانـة، ولا يـزال مطلوبًا منه التوجـه للعقارات لسـكب الزيت والجاز على القضبـان وتطويـق الكبائـن. احتـار الحـاج قنديـل في تقبلـه لوضـع عدنان الجديد، وخاصة بعد كثرة غياباته واستئذانه. مرات قليلة كان يخرج للصيانة مع مساعد أصبح يختاره بحرية أكبر، ولا يمانع الحاج قنديل في ذلك.

يركـب عدنان تاكسـيًّا يختار ماركتـه. بيجو أو متسـوبيشي، أو على الأقل شـاهين، يجلس عـلى الكنبة الورانية كما الباشـاوات، ويجلس مسـاعده بزيته وشـحمه وقرفه بجوار السـائق، يصـلان للمكان المـدون عنوانه على كارت الصيانة، يطلع المسـاعد ويقـوم بعمل الصيانة، بينما عدنـان يجلس على قهوة قريبة من العقار، يطلب المشاريب حتى ينتهي مساعده البائس من عمله.

تنبـه عدنان فجأة لأن البـزخ رذيلة والادخار فضيلة بعـد أن طار نصف المبلغ تقريبًا، أعيته أفكار متضاربة كادت تهلكه من شـدة الإمعان فيها. سيبدأ مشروعًا؛ مكتبًا لتركيبات المصاعد، ويصبح هو رئيس مجلس إدارته لا. بلاها زيوت وشحوم. فكر في مشروع هادئ وناعـم. مكتب استيراد وتصدير. اسم جميل لكنه مخادع. فارغ من المحتوى والمضمون، ماذا سيسـتورد أو يورد؟ لا، سيشـتري سيارة مرسيدس يتباهى بها أمام رئيس القطاع الذي يركب سيارة لادا قديمة ومضعضعة. سيبصق فوق كل الوجوه العكرة التي لا ينفع معها إلا دق الحذاء، سيعيش له يومين سلطان زمانه، ولكن ما فائدة كل ذلك لو أنه سيظل عامل صيانة كما هو؟

قطار الزواج فات عدنان بسبب الفقر - هكذا كان يقول- فأصبح ما يشغله هو كيف سيرمم ذلك الجزء الناقص في مسيرته؟

كان عدنان قد تعلق بسوسن وأخذ يخط لها خطابات عاطفية ملتهبة كطلبة الإعدادي، وكانت خطاباته تحفل بمفردات طفولية، وأحيانًا سوقية، من نوعية «أنا دايب في لهاليب الغرام، أو بحبك بعدد حبات المطر».

في إحدى المرات التي ذهب فيها إليها ارتدى أفضل ما على الحبل، قميص كتان وبنطلون جينز وجاكت كان قد اشتراها دفعة واحدة من محلات «فايف إكس» الفخمة. ولكن بدلاً من أن يجدها عدنان في غرفتها فوق السطح؛ وجدها في صالة الديسكو، شكلها مختلف تمامًا عما تعوده، تلبس السواريه وتتقصع في كل حركاتها، وبرغم ذلك التغير فهو لم يسألها، ولكنه اندمج معها وشرب من السوائل المصبوبة أمامها.

كان فستانها مبهرجًا وباذخ الترصيع بالترتر والشخاليل، نظر إليها بعينين مرتبكتين، تأملته سوسن، أمعنت في رأسه الأصلع وقد كسته بعض الشعيرات التي انتدبها من الأجناب لتغطي مساحة الفراغ الشاسعة، الكريم يلمع في الضوء، البارفان النفاذ يعبق المكان، تأملت عيناها المدرّبة هدومه المكوية وملامحه وقالت:

- **انت إيه حكايتك النهارده يا عرفونة؟**

لم يكن يتوقع منها تدليله، ولكنه فاجأها في وسط الكلام:

- **عايز اتجوزك يا سوسن.**



وكمن لا يتوقع أبدًا ما يسمعه تبدل حالها، اعتدلت وبانت ملامحها المشرقة المختبئة تحت طن من المساحيق الصارخة، ولكنها اختبرته في فرصة أخيرة:

- **على فكرة أنا مبحبش الهزار اللي دمه تقيل.**
- **ومين قال بس إن أنا بهزر.**

عـاش معها فترة خطوبة قصيرة، كان يمسـك يدها في السـينما كالمراهق، ويرسـل إليها بباقات الورود. لمس فيها منطقة لم تكن ظاهرة من قبل. لاحظ اهتمامها هي الأخرى بأن يكون لها بيت، تصبح وحدها ملكته. بيت تزروطه عيـال في عيونهـم لمعة وفي تصرفاتهم شـقاوة، عيال يهبشـون الحلـة من فوق النار قبل أن ينضج ما فيها. تشعره أنه هارون الرشـيد وأنها شـديدة العذوبة والرقة. صدّق عدنان كل ما قالته سوسـن. تضخمت مسـاحة أحلامه، فقد كان يعطيها البراح اللازم لتتمدد فيه.

بعد أيام من الزواج تغيرت سوسـن قليلاً، فأبوها كان شـخصًا مزعجًا، يشـخـط فيه وكأنـه شـغـال عنده، وابنها كان أكثر إزعاجًا بطلباتـه التي لا تنتهي. تلاشـت الصورة الوردية ببطء، وحلت محلها صورة أخرى خالية من الأحلام، ولكنها تحفل بكل أصناف الكوابيس.

بعد فترة ود لم تطل دبت المشكلات بين عدنان وعروسه لأتفه الأسباب، انتهت الخلافات بفضيحة بجلاجل كانت كلها تحوم حول مركز واحد، عدم قدرته الكاملة على مطارحتها وملء فراغها.

أخذ عدنان يجري في الشارع كالمخبول، وهي تحذف كل ما تسمح فتحة الشباك بمروره، تلفزيون، شاشة كمبيوتر، خلاط، موبايل، نظارة، رمت أيضًا بعض أجهزته الإلكترونية فتفتت، ملص من تحت كاميرا الفيديو بأعجوبة فتهشمت بجوار قدميه، وملخت شنطة هدوم صغيرة كتفه وهي تقذفها فرجته رجا. قال عدنان في محاولة بائسة وأخيرة وهو يجتهد للمّ المسألة:

- **كفاية هزار يا سوسن بقى. الله يهديكي إعقلي حتفرجي علينا الناس.**

الجيران متأكدون أنه مزّاع، وأنه فقط يداري كسوفه بأقصى ما يستطيع. وسمعوا صوت سوسن من الأعالي واضحًا لا لبس فيه:

- **وهيه الناس لسه هتتفرج يا طرطور يا ناقص. أعقل إيه؟ وهيه العلة اللي عندك دي تخلي ف أي واحدة عقل. انت فاكر بنات الناس لعبة؟**

ضم عدنان قبضته بِغِلٍّ، تهته بكلمات غير واضحة لا معنى لها، ففقع صرخة مكتومة غيبته عن الوعي لبرهة. صرخة كالتي يطلقها المكلومون أو المجانين أو من هم على مشارف الخرس، وثب وثبات طويلة حتى تخطى الشارع كله.

تهدم العفش وتفسخت أركانه. وقعت كاميرا الفيديو فضاع من ميراثه عشرة أمتار، والنظارة الريبان مترًا ونصفًا، والموبايل خمسة أمتار. تناثرت الأمتار الضائعة من حوله. الأرض لزجة وتكاد تبتلعه. سابت مفاصل عدنان وهو ينظر خلفه ويرى نصيبه من الهكتار قد تحول لكومة من المخلفات، أصبحت خردة لا تساوي شيئًا. هرب بجلده من المكان بصعوبة. أخذ يجري في اتجاه قسم الشرطة، حرر محضرًا ثم توجه للشركة وهو يقول بطريقة لا إرادية:

- **يا حاج قنديل. إلحقني يا حاج.**

ما زال الحاج يتابع ملامح عدنان، كان متعاطفًا معه بشكل كبير، والعمال لا يزالون يتجولون حول عدنان والحاج، ربما يفوزون بجملة خادشة، أو فضيحة تنفع في ترقيع حكاية يملئون بها أوقات الفراغ.

- **حقولك إيه بس يا عدنان. المصايب في الدنيا بتيجي من حاجتين.. يا إما من الفلوس يا إما من النسوان. وانت مصيبتك مصيبتين.. فلوس ونسوان..ما هو يا سيدي محدش عاقل برضه يتجوز بنت شوارع؟**

قال له الحاج قنديل، فتهدلت ملامح عدنان وركّز نظره في الأرض، تنهّد وهو يستجمع كلماته من شتات بعيد:

- **مش ده بس اللي مضايقني يا حاج.**

رشق الحاج قنديل قطعة قطن صغيرة في عود كبريت مستعمل ودسّها في أذنه، أخذ يبرمها بين إصبعيه وهو يكز على أسنانه ويغمض عينًا ويفتح أخرى ويقول:

- **هوّ فيه حاجة ألعن من كده؟**

وضع عدنان قبضته المضمومة على فمه وكأنه سينفخ في بوق، أخذ يعض في جلد أصابعه، صرت أسنانه وضُغطت نواجذه، كاد صوتها يُسمع، حاول التماسك وهو يقول:

آه.. فيه حاجة ألعن.. سمير أخويا بعت لي النهارده الصبح جواب بخط إيده، بيقول لي لازم احضر معاهم عشان يبنوا سور كبير حوالين الأرض بتاعتنا. وإخواتي بيأكدوا عليّه مبيعش ولو على رقبتي. وخايفين من ألاعيب

الصهاينة.. وبيقولوا إن ولاد الملاعين بعتوا جوابات لناس من جيرانهم بأسماء قرايبهم عشان يبيعوا نصيبهم.. وبعد ما حذروني قالولي احنا نندفن فيها آه. لكن نبيع شبر واحد لأ. عشان المغفلين باعوا.. المغفلين باعوا يا حاج.

ترك الحاج قنديل كل ما كان منشغلاً به، رمى عود الكبريت بطربوشه الأبيض، هب واقفًا وقدمه تحسس تحت الدكة عن مداسه، خبطت رجله في راكية الولعة فتطاير غبار الفحم. ولما انتصب عوده ونظر لملامح الرجل المهزوم طار الكلام من على لسانه.

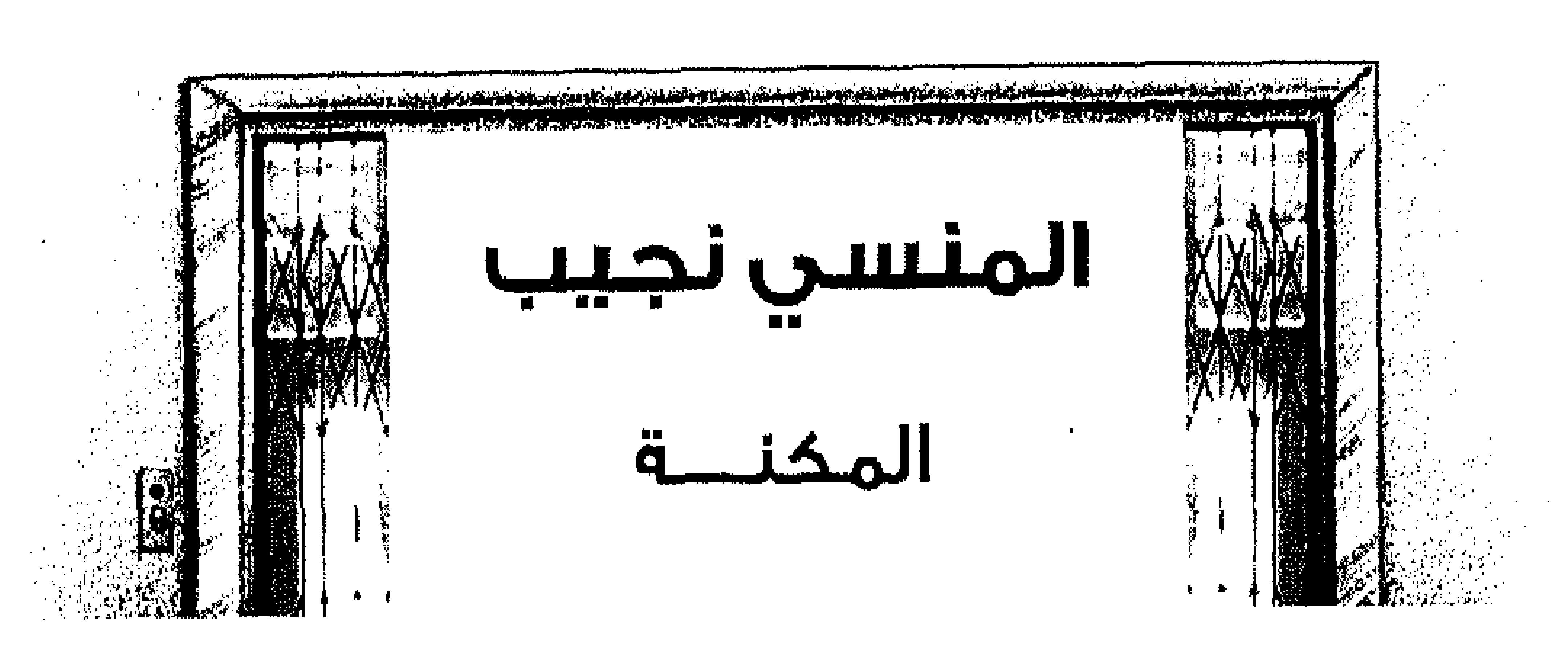
خرج عدنان من مركز الصيانة يجر قدميه، عيناه ضائعتان، كأن خللاً أصاب شعيرات مخه مباشرة، مشى مُهدّل الأطراف، خائر القوى، ولما وصل للخارج تحولت الغيامات والقرقعات لأمطار كثيفة، ربما لم يشعر بها عدنان.

فرّقت شعيراته القليلة قطرات متزاحمة ومنهمرة بعنف تصب فوق رأسه، زخات قوية أفقدته الرؤية، بانت صلعته من بعيد. وبرغم النهار والنور لم يكن يرى شيئًا بوضوح، ترنح في مشيته واختل اتزانه. سمع الحاج قنديل صوت رنات متتابعة لقطع معدنية تتساقط على الأرض، ذيل طويل بطول الشارع، ماركات المشاريب النحاسية المنقوشة تتسرب من جيبه تباعًا. ودون أن يلتفت أو ينحني هز جيبه بعنف فوقع المزيد. لفته غلالة من الشبورة وتلاشى كدخان تبدد. سرعان ما اشتدت الأمطار وأصبحت كحبال ماء متّصلة تهبط من السماء، ثم بعد ذلك اختفى وطء قدميه وعصاه بين صوت المطر الذي كان قد بدأ في الارتفاع وهو يرتطم وينقر الأسفلت.

وقف الحاج قنديل على باب المركز يضرب كفًّا بكفٍّ، يملس على رأسه خفيفة الشعر وهو يقول:

- **يا حول الله يا رب. فلوس الأرض راحت على بنت الشوارع.**



بعجلتين تتراقصان بشدة اقتربت عربة يد متهالكة، يجرها شخص ضامر، داكـن البشرة، مُعتم الملامـح، توقف بعربته أمام مركز الصيانة، أنزل من فمه ذيـل جلبابـه الملطخ باللعـاب والعـرق، ووقف الرجـل يلهث بجـوار عربته التي تشـبه كنبة مقلوبة بـدون أرجل. اقترب منه منسي ورفع المكنة السـنجر السـوداء مـن عمـق العربة، فبانت أشـياء أخرى كثـيرة راقـدة في اسـتكانة، كـرسي خيـزران بلا قاعدة، مشـايـة أطفـال، كوريك مكسـور. منح منسي الرجـل مـا فيه النصيب، فقبَّل نقوده برضًا بعدما لمح فئتهـا، ثم وازن نفسـه بـين اليدين الخشـبيتين. قبض على ذيـل جلبابه ووضعه في فمـه مرة أخرى، رفـع العريـش عند خصره وتحرك، بـدأت العجلتان تعلنـان انصراف العربة وصاحبها بصوت أزيز وشخللة كفرقة موسيقية فسدت آلاتها.

منسي يُصلح المكنة في الرويعي، دائمًا يرفعها على كتفه حتى انحفرت فيها إسطامبة لقاعدة المكنة، ينغرز العمود الساند للكورشيه في قفاه طوال الطريق. ولكـن يبدو أنهـا ورَّمت لحم كتفيه هذه المرَّة فأجَّر لها هـذه العربة وصاحبها بجنيه أو اثنين، وقد يكون ذلك أرحم من السـير في الشـمس لمسافة تزيد على كيلو متر، وسـائقو تاكسـيات وسـط البلد «ينقُّون» الزبون الأبهة، لا شخصًا

عرقانًا يحمل مكنة مزيِّتة. وعربة الروبابيكيا بصاحبها يجوبون شوارع وسط البلد بمكنة منسي أو بدونها، فما المانع من أُجرة إضافية في الطريق بالمرَّة؟

حمل منسي المكنة على كتفه ودخل إلى مركز الصيانة، عدَّل من وضعية نظارته التي تسحَّبت على طرطوفة أنفه، كانت هناك خطوط من الوسخ حول عنقه وداخل تجويف أذنه المثقوبة، فتنظيف المكنة بالجاز وتزييتها يصنع كتلاً من الغبار تلبد ويصعب محوها. كان منسي أسمر وصاحب جسد ضخم وطويل، توحي هيئته للوهلة الأولى بالرهبة، هو الوحيد الذي ينحني عند دخوله من باب المركز، وبرغم ملامحه الضخمة العنيفة، فإنه قد يفاجئك بضحكة مسكينة تجاهد لكي تنال رضاك، ويمشي عاجزًا عن التحرك كأن مفاصله أصابها عطب ما، وردود أفعاله لا تصد ولا ترد، جامدة وخالية من المؤشرات، وكأنه يلبس قناعًا من حجر.

وضع حِمله فوق رف خشبي عمولة، صنعه له عيسى العوام مقابل تفصيل صديري وخياطة فتق في لباس. أنزلها ببطء وحرص يناسب أهميتها بالنسبة له، فهي الدخل الإضافي الذي لم يخذله يومًا، ولو بكوباية شاي ينعتق من دفع حسابها، أو سيجارة ببلاش تعدل مزاجه، أو مشاركة في أكلة فول جماعية. وضع منسي المكنة على الرف وهو يوازن بين عجيزة رجعت للخلف ويدين تسندان الحِمل الثقيل من الأمام، بانت خياطة قاعدة بنطلونه الرصاصي لونين، تفضح هذه العلامة كثرة التوسيع، مثلث مقلوب من لون أغمق يبدأ عند الكمر وينتهي ذيله في الحِجر. كان من المفترض أن يظهر منسي بمظهر أنيق لبراعته في التفصيل بشهادة زبائنه؛ ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، فبدلته دائمًا زرقاء أو رصاصية،

تلمع مواضع كثيرة فيها من أثر الكي والوسخ. بدل صيفي بنصف وصيفي بكم، يتداخل فيها لونان في الغالب (يحاول أن يجعلها تبدو مقصودة للوجاهة، ولكنها كانت بسبب نقص في القماش) فباب النجار سيظل ليوم القيامة «مخلَّع»، ولكن منسي لديه تفسير مُقنع؛ لذلك «لو صلَّحه محدش حيحاسبه عليه».

لم يكن منسي يُفصِّل ملابس لزملائه ورؤسائه بقدر ما كان يُفصِّل له مكانة متميزة بين أقرانه في الشركة، كان حريصًا على إحضار مكنته السوداء حسب الطلب، مكنة محمولة، تستقر في مركز الصيانة بعد تجميع عدد معقول من قطع شُغل تستحق عناء حمل هذه المصيبة. أما لو لم تحتجها فمكانها الطبيعي في المحل، ومحل منسي متر X مترين، اجتزأه من مطبخ شقته بالدور الأرضي في مساكن الأميرية، حفر فيه من الخارج ثقبًا طوليًا وركَّب له بابًا، وفي نهاية الباب قفل، وفوق الباب قطعة صاج تعمل وظيفتين، فهي في الأساس مصد للحصيرة الصاج عند رفعها، كما أنها تعمل أيضًا كيافطة، كتب عليها بخط منكوش يناسب راسب خامسة ابتدائي «ترزي المنسي نجيب» ومن تحته رأسيًا سطور قصيرة تحتاج لشامبليون آخر يفك طلاسمها:

«رجالي جلابيات ومناطيل

حريمي عبايات وتايارات

وتصليح السوستة والقطعات

وغسيل سجاد».

بالخبرة والمعاشرة أصبح منسي يعرف مَن الذي سيدفع الحساب مِن بين

العمال بدون مماطلة، ويميزه بسهولة عن مَن يلابط ويسوق الهبل، وهذا الصنف الأخير كانت له الغلبة في شركة شندلر بصفة عامة، وفي مركز الصيانة على وجه الخصوص، فيخترع منسي حكايات تليِّن يد الزبون «القحف» الذي عوده الفقر هو الآخر على اللف والدوران ومعسول الكلام، فالعامل الذي يعرف أن حسابه لن يقل بأي حال عن خمسة جنيهات يدفع اثنين، ويساوم على جنيه ليصبحا ثلاثة، وبهذا يكون قد فاز بجنيهين يوفرهما للفينو واللبن، أو لركوب أتوبيس مميز، أو لشراء فطيرة يلهفها في صباح اليوم التالي، ومنسي يضطر هو كذلك لاختراع حكايات تكون نتيجتها أن «يبز» الزبون بالحساب طوالي، أو على الأقل بجزء منه:

«دستة الإبر لسه جايبها امبارح واتكسرت كلها تاني يوم».

«الكورشيهات من ساعة ما بقت صيني وسنها بينقصف أوام. انتا عارف الكورشيه بقى بكام انهارده؟!».

«هات عشان أجيب مكوك. هات عشان الخيط خلص. هات عشان الطارة قفشت».

أول ما رست المكنة على الرف تفحصها منسي بحرص، ضيق عينيه ورمق عمود الكورشيه، زيَّت بإصبعه بيت المكوك، وأخذ يلمِّع فيها بقطعة إسطبة مبللة بالجاز حتى أصبحت جاهزة للشغل، وتشغيل مكنة الخياطة في العادة يحتج لسيور قوية تتحمل لف موتور ودواسة لضبط الحركة، ولكن منسي لم يحتج لكل هذا، فما يملكه هو رأس مكنة فقط، بلا قاعدة ولا ترابيزة ولا فيشة لتوصيل الكهرباء، ولذلك اصطفى لها دواسة عمولة من سوق الجمعة بخمسة جنيهات،

وصنع لها خوصتين من جريد، وركّب لهما تيلة لكي لا ينفلتا، وشبك في الدواسة حبل كتان، وأصبح فقط يضغط على الدواسة بكف قدمه فتتحرك المكنة، ولكنها تحتاج لمن يغمزها عند بداية اللفة بتحريك الطارة في اتجاهها الصحيح، وكانت هذه الشغلة تناسب قدرات يحيى محمد حسن تمامًا، يقف منسي أمام المكنة ويضبط قطع القماش المراد تجميعها في بنطلون أو بيجامة، أو إنجاز تصليحة بسيطة، فتق في كالسون، تركيب سيّالة لجلابية، قلب ياقة قميص، ثني رِجل.

ومنسي بدأ يومه بتغيير سوستة، جابها مخصوص من محلات الغندور بميدان الأوبرا، أما لو الزبون يستاهل فيشتري له لوازم الخياطة من محل باباجيان بقصر النيل. والمكنة لكي تدور لا بد أن يقف يحيى على رأسها، كان يلف طارتها اللامعة الكبيرة بيد، ويده الأخرى تحمل شنطة بلاستيك سوداء، رفعها أمام عين منسي وقال كأنه يتشرط:

هقف معاك والف لك الطارة في الشغل كله. بس تعمل لي دول.

حاول منسي أن ينتش الشنطة من يده، فسحبها يحيى في الوقت المناسب ورفعها على كتفه كالمشنوقة وقال:

بعدين. بعد ما تخلّص. أصل الشنطة دي فيها حاجة غالية أوي. خليها مفاجأة.

تعوّد يحيى من كثرة الممارسة أن يكون دقيقًا في لف الطارة، ليست هذه الدقة الناتجة عن ذكاء ولماحة؛ ولكنها دقة العشرة والتكرار، تقبض يد يحيى على ذراع الطارة، يلفها ومنسي يجاهد لكي يواكب سرعة الدوران ويوازن بين حركة الدواسة العمولة بقدميه وحركة المساهمة اليدوية، فأحيانًا تأخذ

يحيى الجلالة وتتهور المكنة، وتزيد الكركبة، وتكاد الآلة التي تشبه مخلفات الحرب أن تنخلع من قاعدتها الخشبية، فيشخط منسي في يحيى:

اظبط الحركة.

يرد يحيى بعد أن يتوقف تمامًا عن تحريك الطارة ويبتسم ابتسامة لا تعبر عن شيء:

اظبط انت الأداء.

ويداري منسي إحراجه لو كان الحاج قنديل يتابع حوارهما، فيقول منسي:

أنا مظبّط. بس القماشة هيَّ اللي بتمط.

وعندما يُجهد ذراع يحيى يتكاسل في تشمير كُمه ويسأل منسي:

انتا ليه مبتجبلهاش موتور يا منسي؟

ويتوقف منسي عن العمل ويضحك، فتبان سنة واحدة يتيمة كمسمار مدقوق في صفيحة صدئة، ولما تهمد ثورة الضحك المبالغ فيه يرد:

وبدل ما أشيل مكنة بس أشيل موتور كمان. وبدل ما بصلح المكنة بس أصلح المكنة والموتور، وأغيَّر سيور، وأجيب سلك وفيِّش ومقاومة وآي سي، لأ يا سيدي كده رضا قوي. بس ربنا يديمها نعمة.

لف يحيى الطارة بشكل عنيف وأخذ يجعر بصوت عال لا يناسب طربًا: «تمثيلية. تمثيلية. الحب عندك عندك عندك تمثيلية. جم حبايبك ولا راحوا هيه هيه...».




وعند وصوله لمقطع «لا يا سلطان الليالي. حبي مش لعب وتسالي» اشتبك معه منسي في إلقاء قصيدة:

وتينة غضـــة الأفـــنان باســـقـــة

قالت لأترابــهـــا والصـــيف يحتضر

قالهـا منسي بصـوت أقل وأهـدأ من صوت يحيـى الأخنـف، ولكنه كان أقـرب لإيقـاع منشـد ربابـة. توقف عندمـا كادت الإبـرة أن تخـرق إصبعه. تداخـل الصوتـان حتـى أصبحت غاغة، شـخط الحـاج قنديل مـرة واحدة فانفضت السويقة وكأنها لم تكن منصوبة من الأساس:

بـس يا عبد الحليم انتا وفريد. لو متعهد حفلات شـافكوا يا غجر. أقطع دراعي إن ما كان يرميكوا بره التياترو.

ضحك يحيى ومنسي وازداد صوتهما علوًا وحماسـة، أخذا ينغّمان الكلمات ويُطربـان عـلى طريقة الطقاطيـق. فحلَّ الهرج، قطعت حمى الضحك شـنطة رماها الحاج في وجه منسي فلقفها يحيى:

دي جلابية حتقصر. والديل اعملهولي طاقيتين.

وضع يحيى الشنطة بجوار شنطته وأكمل العمل بإخلاص في غمز الطارة كلـما همَّـا منسي بتحريك الدواسـة. تم إنجـاز أغلب المرمات بهـذه الطريقة، وعندمـا أخرج منـسي من بقجة قماش كبيرة لفة مقصوصـة لبنطلون تفصيل وفردهـا أمامـه على المكنـة تأملها يحيى بتعجـب، تابع بانبهار حـردة القص، دوران السوسـتة القصـير ودوران القاعـدة الكبـير، البنطلون قبـل البدء فيه

وهو أربع قطع في سُمك بطانية، الفزلين الملصوق على شريط الكمر استعدادًا لتركيبه، اللوكسات الرفيعة التي تنقسم لست قطع تحمل الحزام بعد ذلك أبد الدهر. قص الزيادات بعد تمكين بنط الخياطة، صوت المقص وهو يمضي في طريقه لضبط دوران أو إقصاء زيادة.

لم يُحوَّل منسي إلى مركز الصيانة كغالبية العمال، ولكن أول تعيينه كان هُنا، في رحاب الزيت والجاز والأسطبة، وفي ضيافة الشحم والشكاوى وكروت الصيانة الدورية. تآلف مع العمل في مركز الصيانة لمدة طويلة، ولكنه فعل في يوم من الأيام ما يستحق حبسُه، وكان ذلك منذ سنوات بعيدة يحتاج استدعاؤها لمجهود، كانت يد منسي تُنجز مهام الخياطة أوتوماتيكيًّا، بينما خياله شارد في براح الماضي اللذيذ:

منسي فوق السطح يغسل ريش الكنترول بالجاز كما هو متَّبع في أعمال الصيانة، ولكنه بدلاً من انتظار مشتق البترول حتى يجف ليتمكن بعد ذلك من توصيل التيار؛ رفع السكينة فيما كان الجاز لا يزال ينقط على الأرضية الخرسانة، فتحول الكنترول بأسلاكه وملفاته الصغيرة لكتلة من نار، في أقل من ثانية وبتدابير الغريزة وجد منسي نفسه خارج غرفة المكن، تابع ألسنة اللهب وهي تقرمش الكنترول بفبره وأسلاكه، في دقائق معدودة أصبح حطامًا، وقف المنسي نجيب شاردًا بعدما خفتت النيران وتحول أحمرها إلى أسود، أصابه المشهد بحالة من الفوضى النفسية، تداخل وتضارب بين الأفكار، قلق يركبه خوف، ورهبة تنتظر ما ستسفر عنه الأحداث، وسؤال يمر ويعاود المرور: كيف سيخرج من هذه المصيبة بأقل خسائر؟ لـمَّ منسي عدته سريعًا وانصرف،

ذهب لبيته مشيًا ليفك أعصابه المشدودة ويدرِّب فكره المجهد. توصل منسي لحلول مبتورة وأنصاف إجابات، حيل ساذجة ومكشوفة، وأصغر عيل في الشركة لن يحتاج إلى أن يبذل مجهودًا كبيرًا ليتأكد من أنه كاذب كبير.

ولما اكتُشف الأمر بعد تحقيقات إدارية مطوّلة استمرت لأربعة أيام؛ تم توقيع جزاء تافه، تلخص في معاقبته بعدم خروجه للمواقع بعد ذلك أبدًا، بأمر إداري لم يعد باستطاعة منسي الخروج من مركز الصيانة. عُهد به للحاج قنديل ليقوم بأعمال التنظيم في المركز، يُدخِل براميل الزيت الكبيرة ويرص بقج أسطبة، أو يُخرج فوارغ براميل الشحم الصغيرة ويُحمِّلها على سيارة نصف نقل، ولكن هذه الأعمال لم تكن تستغرق في الشهر كله إلا ساعات معدودة، وأصبح عنده من وقت الفراغ ما يستوعب شُغلة أخرى، وربما شُغلتين، لم تُضف إليه هذه التعديلات الوظيفية سوى الحرمان من الحوافز والبدلات الإضافية، وحُرم كذلك من التزويغ على حس الذهاب لصيانة المنشآت. اشتغل منسي في هذه المرحلة كأغلب كائنات شندلر في مهن كثيرة بعد مواعيد العمل في الشركة، شيَّالاً في مغلق خشب، مساعدًا لنقاش، مرمطونًا عند مكوجي، بائعًا سريحًا. عرض عليه أحد سكان العقارات شغلانة بخمسمائة جنيه ورفضها، كانت تتلخص في رعاية ثلاثة كلاب في فيلا شخص مهم وصاحب منصب كبير. جاء رفض منسى قاطعًا ولا يتناسب مع حاجته:

- اللي يسألني شغال فين أقول له بأكِّل كلاب؟ يغور القرش اللي ييجي من بق الكلب.

اشتكى بعد أيام لطوب الأرض من تقهقره الوظيفي، ومن صعوبة المعايش وغلو الأسعار، وصلت شكواه لمحمد زكريا رئيس مجلس الإدارة، ولما ألحّت شخصيات كثيرة وافق المهندس الكبير على عمل إضافي رسمي يعوِّض حوافز منسي المحجوبة بأمر إداري.

تمرجي عند طبيب الشركة في ممر شركس، مهنة جديدة قضى منسي فيها ثلاث سنوات، يقف على باب غرفة الطبيب الموارب، يتفرج على مخاليق ربنا من المرضى والمتمارضين، عمال يجلسون على كراسي مائلة الأرجل أو فاقدة لجزء من قُرصة الجلوس، أو خارج من أجنابها مسمار يلطش بناطيل العباد، اختلفت أحجامها وألوانها وحالتها، واجتمع فيها شيء واحد، على سنادة الظهر كلمة مكتوبة بخط مترهل ومسيَّل «العيادة» والعيادة التي يقف منسي على بابها لا دليل فيها على أنها مكان يخص طبيبًا أو مرضى إلا جهاز قياس ضغط محطوط أمام المكتب كديكور، علبته فضية منحول دهانها ولا تُفتح إلا للشديد القوي.

الدكتور رزق هو الموكل إليه تنظيم العملية الصحية بين عمال وموظفي الشركة، كان قصيرًا جدًّا ويلبس دائمًا قمصان بياقات كبيرة بشكل مبالغ فيه، ويزيد من صغر حجمه ارتداؤه بدلاً تظهر دائمًا وكأنها تخص كائنًا أكبر، فضلاً عن أربطة عنق غليظة، وعقدتها تكاد تصل لحجم قبضة اليد، وملامح جامدة تُنتج انفعالات مصطنعة وميكانيكية، أنفه الكبير يمكنه حمل النظارة وحده بدون أذنين، وله شنب كثيف متدلي الطرفين كيد شنطة سامسونايت. يقتحم العيادة سريعًا كأن يخشى أن يراه أحد، يغوص في بالطو أبيض كأنه فأر يرتدي زي أرنب.

يومان في الأسبوع فقط هما شغل الدكتور رزق، وساعتان فقط شغل كل يوم منهما، يقوم خلالها بالكشف الطبي على حوالي أربعين بني آدم، ولو اختصرنا من وقت الدكتور شرب الشاي والقهوة ودخول الحمام والرد على التليفون، فلن يتبقى للعامل بأي حال أكثر من دقيقة ونصف، يكشف خلالها ويعرف المرض ويكتب العلاج.

يدخل الدكتور رزق بشنطته التي تكاد تلامس الأرض من فرط كبر حجمها وصغر حجمه، يضعها على المكتب الإيديال المخصص له، وقبل أن ينادي على منسي الذي يساعده في القيام بمهامه (كان منسي من عمال الصيانة صباحًا ومساعدًا للدكتور في يومي العيادة مساء) يسبقه جريًا ويدخل غرفة الكشف، يقف أمام مكتب إيديال صاج، مُلقى فوقه بهرجلة مفرش متهتك الحواف منهك الورود وفاقدًا لبعض شراشيبه، يجذب الدكتور رزق ستارة بيضاء معلقة على ماسورة حديدية صدئة مركون خلفها سرير سفري متسخ الحواف ومرمي فوقه ملاءة مبقعة لا لون محدد لها، يجلس منسي على السرير، يعدل من موقع نظارته الكالحة الكبيرة على وجهه، يجذب أستكها الطويل المدلى على قفاه، يخاطب الدكتور رزق بصوت مبحوح من كثرة تنظيم أدوار المرضى:

«سبعة وتلاتين أورنيك انهارده يا دُكتر رزق».

لا يقترب الدكتور من شنطته فور أن يرميها أمامه، ولا مرة واحدة أخرج منها سماعة أو ترمومترًا، ولو على سبيل المنظرة، كانت الشنطة بمحتوياتها مجرد ديكور، لم يره منسي لمرة يطبل على بطن أو ينقر ظهرًا أو يجس حرارة، ولم يره أيضًا يرفع جفنًا أو يفتح فمًا أو يسمع نبضًا.

يجلس الدكتور رزق على المكتب ويشمر ذراعيه ويفر ورق العيادة ويتأمل أسماء العمال، ثم يستوقفه شيء:

هوَّ مش عبدالله الشلقامي ده عمل أورنيكين عيادة في أسبوعين ورا بعض؟

أخرج منسي من جيب قميصه العلوي المُخيط بالكامل بطريقة يدوية وبغرز كبيرة ليست من نفس لون الخيط عشرين جنيهًا جديدة ومد يده بها للدكتور:

«هوَّ سايب لحضرتك الأمانة دي وبيقولك معلهش هوَّ مش عايز غير تلات تيام بس مرضي عشان فرح بنته وفيه ناس كتير جاينله م البلد و....».

يقاطعه الدكتور بعد أن ينتش من يده العشرين جنيهًا ويضعها في جيب البالطو الغويط:

بس بس يا منسي. انتا حتحكيلي قصة حياته. ميت مرة أقول لك ابقى اختصر. الناس هنا معندهاش بضاعة إلا الكلام. خلاص دخَّله أول واحد.

يذهب منسي جريًا (أو يبدو كذلك نظرًا لضخامته وعجز مؤخرته عن مواكبة باقي جسده) يقف أمام العمال الذين لا يقلعون عن الثرثرة عمال على بطال، ينادي بصوت عال وكأنه في منطقة التجنيد:

عبدالله الشلقامي.

يفزّ عبدالله بعد أن يترك الأذن التي كان يميل عليها، يقف أمام الباب لبرهة، لابد أن يبدو منسي منظمًا ولو بشكل مظهري، ففي تلك الساعات القليلة التي يعمل فيها مع الدكتور يشعر بزهو، بإحساس قليلاً ما يعرف طريقه لمثل منسي، أنه مهم وله كلمة تؤثر في العباد، لابد أن يلطع المريض

أمامه لدقيقة أو لدقيقتين. يمد عبدالله يده لينفح منسي جنيهين لأنه دخَّله قبل الجميع، ويقف منسي «لازقًا» في الباب من الداخل ليتابع الحديث عن قرب. يتجه عبدالله إلى مكتب الدكتور سريعًا كالمستغيث ولكنه يُخفض من صوته فيصبح كالوشوشة:

– منسي قال لسعادتك؟

يسحب الدكتور قلمًا من درج مكتبه الإيديال (والذي يعصلج غالبًا أثناء الفتح والغلق) ثم يلتقط أورنيك عبدالله من بين أكوام الأوراق التي أمامه، كتب عليه بخط متلهوج «أجازة ثلاثة أيام» ثم هز إصبعه أمام شفتيه وسأل عبدالله:

– إنتا كنت بتشتكي من حاجة قريب؟

– حاجة زي إيه سعادتك؟

يا أخي افهم. هوَّ انا حكتب انك محتاج أجازة عشان فرح بنتك! مهو لازم تكون بتشتكي من حاجة.

تطوَّح قلم الدكتور بتوتر بين وسطاه وسبابته، رد عبدالله بعد تفكير طويل وكأنه يستشعر أقرب الأمراض بداخله:

– آه افتكرت. كنت امبارح بكح طول الليل. أصل الجماعة بتحب تتكلفت بالغطا وتتبرم فيه لوحدها. وانا بقى...

قاطعه الدكتور بعصبية وملامح مكشرة وقرفانة:

ـ خلاص خلاص.

ثم أكمل في الورقة جملته بعد أن حك قورته مرتين «بسبب نزلة شعبية

حادة». رفع سن القلم عن الورقة لثوان قبل أن يُضيف «وعدم انتظام في ضربات القلب» وعلى رأس الروشتة شد خط كتب تحته 130 وفوقه 170، ثم مد الدكتور يده بالورقة لعبدالله بسرعة وبدون تلاقٍ للنظرات، تظاهر الدكتور بفحص باقي الأوراق أمامه وأخذ يفرها بعشوائية، فيما كان منسي يجلس أمام الباب ويستعد لإدخال شخص آخر، وقبل أن ينادي على صاحب الدور حك فيه بشدة كرش مهيب، لم ير منسي إلا صدرًا يعلو ويهبط، امتدت اليد المنتمية للكرش على كتف منسي وخرج من صاحبها صوت:

- الدكتور جوه يا ابني؟

وفور أن نظر لوجهه رفع يده محييًا في أدب:

- أهلاً حاج زيدان.

كان يبدو في حالة استئذان. ولكنه قد دخل لغرفة الطبيب بالفعل، وما أن ظهر جرمه الضخم حتى قام الدكتور رزق من مكانه يرحب ويحضن ويبوس:

- أهلاً أهلاً. يادي النور.

وارب منسي الباب وجلس يتابع المشهد من سلخة ضوء صغيرة تربطه بالحوار الدائر، ثم استلم أذنًا من الآذان الكثيرة بالخارج؛ والتي تستشعر الحنين للكلمات المملة والمكررة. وأخذ يتابع الحوار بين الحاج والدكتور من حين لآخر.

فور أن جلس في ضيافة الدكتور دب الحاج زيدان يده في جيب داخلي وغويط:

- أنا جبت لك أسامي الأدوية اللي حتكتبهالي.

ثـم أخرج مـن جيب البدلـة الصيفي الرماديـة ورقة منزوعة من كراسـة وقدمها للدكتور الذي أخذ يتأملها ويدقق فيها فسأله الحاج:

- إيه مش مصدقني يا دكتور؟

- العفو يا حاج.

سـحب الدكتور قلمه الفرنسـاوي المعصوب من أعـلى بشريط لحام أحمر كالأفنـدي مـن الدرج الإيديال، وكتب اسـم الـدواء ثم وقَّعـه بعد أن كتب بخط واضح «يصرف».

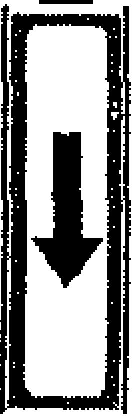
انصرف الحاج وهو يكيل المديح للدكتور:

- طب القهوة.

- مالوش لزوم.

- ميصحش.

- مرة تانية.



عـن طريق مكالمات الدكتور رزق يعرف منسي عنه معلومات كثيرة، فهو يعمل كالساعة، صباحًا في معهد القلب بامبابة وبعد الظهر يلف على كعوب رجليـه في عيـادات الـشركات (كان متعاقدًا مع شركتـين أخريين غير شركة شـندلر) وبالليل يعمـل حتى العمى في عيادته الكائنة تحت شـقته مباشرة في المنيـب؛ حتى إن بعـض المرضى كانوا يوقظونه بعد مواعيـد العيادة من أحلى نومة ليكشف على أطفالهم.

ويعرف منسي أيضًا أن هذه الأدوية لن يحتاجها الحاج زيدان أبدًا، ولكنها مجاملات لأقارب وأصدقاء، وأحيانًا للبيع بثمن أقل من تسعيرة الصيدلية، فأغلبها مقويات من أنواع باهظة الثمن، يتحايل الحاج زيدان أحيانًا بنفس لغة الترهيب للصيدلي الذي يصرف الأدوية، فيُبدِّل الحبوب والمراهم ببارفانات وكريمات، وأحيانًا يذهب مع زوجته وبنفس سعر الروشتة يعبِّئ شنطة محترمة متخمة بالروج والمسكرة وصبغة الشعر. وبرغم ذلك لم يجرؤ الدكتور رزق على الاعتراض، وحتى الزمزقة أو الضجر ليسا من صلاحياته، لم يكن يملك القدرة على فعل ذلك، ولكنه يملك فقط أن يرسم ابتسامة عريضة تنم عن قناعة بما يفعل ورضا؛ فالدكتور نبيل صاحب الصيدلية كان دائم الاتصال بالدكتور رزق، يسأله عن علاج بديل لمريض، أو يستفسر عن مواعيد الجرعة غير الواضحة على الروشتة، ولكن محور الحديث في المرات الأخيرة كان لا يخرج عن الحاج زيدان، فالحاج بدل مرة المكتوب في الروشتة بميزان حمَّام، ورباط ضغط حريمي مقاس صغير، وكان بصحبة امرأة جميلة تصغره كثيرًا، أعطى للدكتور نبيل الروشتة، وعندما ضرب على آلته الحاسبة خرج الرقم بمئات الجنيهات، علبة ماكياچ إيطالي، برفانات فرنسية، كريمات تركية لنزع الشعر، يقسم الدكتور نبيل للدكتور رزق أن الحاج زيدان صرف في مرة واحدة ستة وعشرين صنفًا من الشامبوهات.

دخل منسي بالشاي دون أن يطرق الباب كعادته، كانت يد تحمل الصينية، فيما يده الأخرى منشغلة بتثبيت نظارته أم أستك فوق وجهه، اهتزت الصينية بكوب الماء الطويل فشخط الدكتور رزق فيه:

- قلت لك ميت مرة تخبط قبل ما تدخل يا بني آدم.



اعتذر منسي وخرج، جلس كجلسته الأولى أمام الباب فوق كرسي ملخلخ ومكتوب على ظهره ببوية خضراء مليئة بالزوائد «المنسي عيادة». ظل يستمع لعابري السبيل من موظفي وعمال الشركة، حكى له عبدالله كيف دبر مصاريف الزواج لابنته، وكيف جهز كل شيء من مجاميعه بدءًا من البوتاجاز المصانع وانتهاءً بفرشة البلاط، مرورًا بالغسالة والخلاط والحلل والكنك والفرش الذي اشترته أم العيال من سوق التلات، لم تخرج التعليقات المحيطة به عن هزة رأس أو مصمصة شفايف أو تعليقات من نوعية «الحاجة كل يوم بتغلا» وفتح سيرة زمان وزيجات زمان، أيام أن كان الشحط منهم لا يتكلف زواجه سوى خمسين جنيهًا بالفرح والعزال، وأيام أن كانت العرائس أصلي وتلد دستة عيال وهي جالسة أمام طشت الغسيل. لما لاحظ عبدالله ضعف التجاوب مع حديثه الممل سحب منسي من يده وأعطاه دعوة فرح ابنته، بعد أن نظر منسي فيها وتأمل الكلمات المدهب وحملق في العروسين الورقيين البارزين بنقوش فضية؛ دس الدعوة في جيبه وتحسس الخرم الكبير في جيبه؛ وهل يمكن أن تسقط منه الدعوة أم لا، ولما اطمأن لأنها في أمان تركها تنزلق وانشغل بالجرس الذي رن معلنًا عن طلب الدكتور رزق لمريض آخر.

بعد انتهاء اليوم مر منسي على محل ترزي بِدل كبير في وسط البلد، خيَّط له قطع الجيب ولم يأخذ منه الرجل حسابًا، فدعا له منسي بالصحة وطول العمر، وبعد أن همَّ بالانصراف استوقفه مشهد صنايعي على المكنة المقابلة يُخيِّط بنطلون، أعجبه المشهد لثوانٍ، فنظر لصاحب المحل وقال بلهجة فيها الكثير من البراءة والغُلب:

– ممكن اقعد أتفرج شوية.

ابتسم الرجل ابتسامة مشرقة وأشار له بالجلوس على فوتيه جلدي ناعم، تابع منسي انسياب قطعة الشغل في يد الصنايعي بدقة، انبعثت موسيقى ناعمة من المكان، مستوى صوتها يكاد يكون وشوشة برغم صوت المكنة. الصنايعي يدندن على الخلفية الموسيقية بكلمات كانت غريبة على أذن منسي:

وتينة غضـــة الأفـــنان باســـقـــة

قالت لأترابـــهـــا والصـــيف يحتضر

بعد نصف ساعة فُرجة فز منسي فجأة من قعدته وتوجه لصاحب المحل:

– عاوز اشتغل معاك واتعلم الصنعة دي.

توقف المقص في يد الرجل، ارتخت يده فوق البنك الخشبي الكبير ثم ابتسم ومسح على صلعته اللامعة وقال:

– بس انا مش محتاج حد معايا.

– وانا مش عاوز فلوس.

عادت الابتسامة لملامح الرجل مرة أخرى ثم صافح منسي بحرارة.

ألفت رِجل منسي المكان، بعد العيادة التي تنتهي في الثامنة مساء، يذهب فيجد في انتظاره بعض الأعمال، تركيب زراير لجاكتة، لزق فزلين لكمر بنطلون، عمل عراوي في ميدان الأوبرا، سراجة جيب داخلي أو تكفيف جيب ساعة، وأثناء إنجاز هذه الأعمال كان يتابع الرجل النضيف الأنيق وهو يقص على البنك، ويتابع أيضًا مصطلحات الصنعة الجديدة:

«الكوبشة



الريجة

بنط البتلتة

فنهاوزن حشو الياقة

البطانة».

كان يراها في البداية كلمات غريبة ومكلكعة، ولكن التعوُّد يجعل كل شيء مقبـولاً، حفظها في أقل من عام عن ظهر قلب، علَّمه صاحب المحل الصنعة بإخـلاص، فزادت مهامة قليلاً بعد أن أتـم عامًا، إذ أصبح منسي يجلس على المكنة ويُقفِّل جنب بنطلون، ثم يركب «كمر»، وباستثناء الجيب الخلفي نظرًا لدقته وصعوبة فكه وتصليحه؛ كان منسي يحيك البنطلون بالكامل تقريبًا.

بعدمـا تعلم طريقة عمـل الجيب الخلفي بمهارة فاتـح صاحب المحل في شراء مكنـة، فأعطـاه الرجل مكنة قديمة كانت ملقاة فوق سـندرة مع بعض كراكيب أخرى:

- صلحها وحلال عليك. مش عاوز منك حاجة.

بعد أن أخذ منسي المكنة خف وجوده في المحل، أصبح يذهب فقط ليُسلم على الرجل الذي لا يزال يحتفظ بابتسامته البشوش في وجوه الناس.

في هذه الأثناء تم الاستغناء عن خدمات الدكتور رزق من الشركة، فقد فاحت رائحته بشكل متوقع، وجاءوا بطبيب آخر، كان رجلاً ملتحيًا تنم ابتسامته الثابتة عن ضعف في شـخصيته وخواء علمي في تخصصه. لم يستمر شهرين في الشركة، ولم يسـتمر منسي أيضًا، فتم تعديـل النظام الطبي للعاملـين، وأصبح التعامل في الشـئون الطبية تابعًا بشـكل مباشر لمستشـفى خـاص بالمنيرة يقدم مسـتوى طبيًّا متوسطًا، وبالتالي فقد الطبيب مكانه وفقد منسي وظيفته الإضافية.

- لم يعد أمام منسي سوى المكنة، ينتزع رزق يوم بيوم، وبرغم تصليحها الكثير فإنها كانت تغنيه عن السلفيات ومد اليد.

أكمل منسي الخياطة بمساعدة يحيى، فك بنط البتلتة[1] أكثر من مرة، فدورانه دقيق ولا يتناسب مع التشغيل اليدوي للمكنة القديمة، أما فتوقات هدوم الشغل فكان فيها من «اللكلكة» أكثر مما فيها من صنعة، والأجرة في الغالب تكون معنوية، يأخذها منسي أقساطًا من أدعية متنوعة، تبدأ بدوام للصحة والمد في عمر العيال، وتنتهي بأن يسترها معه ويجعل له في كل خطوة سلامة. أما الأجرة المادية فكانت رمزية، لا تزيد غالبًا على جنيه لأي فتق كان، أو جنيهين لتبديل وجهة ياقة وثني ذيل جلباب، أما لو طلب أحد العمال من منسي تركيب جيوب جديدة للبنطلون؛ فيطلب منه نصف متر بفتة ولا يتنازل عن دس ثلاثة جنيهات مصنعية في جيبه على الأقل.

بعدما انتهى منسي من خياطة التصليحات المطلوبة مد له يحيى يده بشنطته التي تحتوي على أشيائه المهمة، فتح منسي الشنطة فأخرج منها بدلة ساحر سوداء، مبقَّعة ولها رائحة محل فراريجي، بنطلونها ضيق ويضمه قفيز من أسفل، والبالطو بذيل طويل ودرفتي جاكت قصيرتين من الأمام، وفي قعر الشنطة تستقر قبعة من نفس اللون، قلَّب منسي البدلة بين يديه يتفحصها:

- ودي تطلع إيه دي يا يحيى؟! انت رايح حفلة تنكرية ولا إيه؟!

- لأ. بس انت إظبطها على مقاسي.

(1) الخياطة الظاهرة من الخارج لسوستة البنطلون، ودورانها من أسفل يحتاج لبطء في تشغيل المكنة ودقة في الصنعة.

- حتدفع.

- رقبتي.

بالنظر رمق منسي حجم يحيى وبدأ تمزيق البدلة من أماكن الخياطة. فنظر إليه الحاج قنديل وهو يهرش في قفاه ويسأل:

- ودي حتنفع بتعريفة بعد كده يا منسي؟

فرد منسي وهو يفرتكها عرضًا وطولاً:

- قول يا رب.

بعد أن عادت لسيرتها الأولى بحجم أقل، أخذ يحيى البدلة ودخل إلى الحمام لعمل بروفة عليها، في هذه الأثناء، وبمساعدة من عامل آخر لف الطارة، بدأ منسي في تقصير جلباب الحاج قنديل، وعمل طاقيتين من الذيل المقصوص. هذه طريقة ربما يراها الزبون عبقرية، ولكنها كانت تتم بمنتهى البساطة، فبعد أن يقص ذيل الجلباب الذي غالبا ما يكون أبيض، يُقسَّم إلى نصفين، يكون طول الواحد في حدود المتر، يلف منسي الجزء الأكبر منه على المكنة، ويغلقه من الجنب فيصبح إطارًا فارغًا، ثم يقص القطعة المتبقية مستديرة كرغيف العيش، ويكففها من الداخل يدويًّا بغرز كبيرة، ثم يدور عليها بالمكنة، يقلبها فتصبح طاقية محترمة.

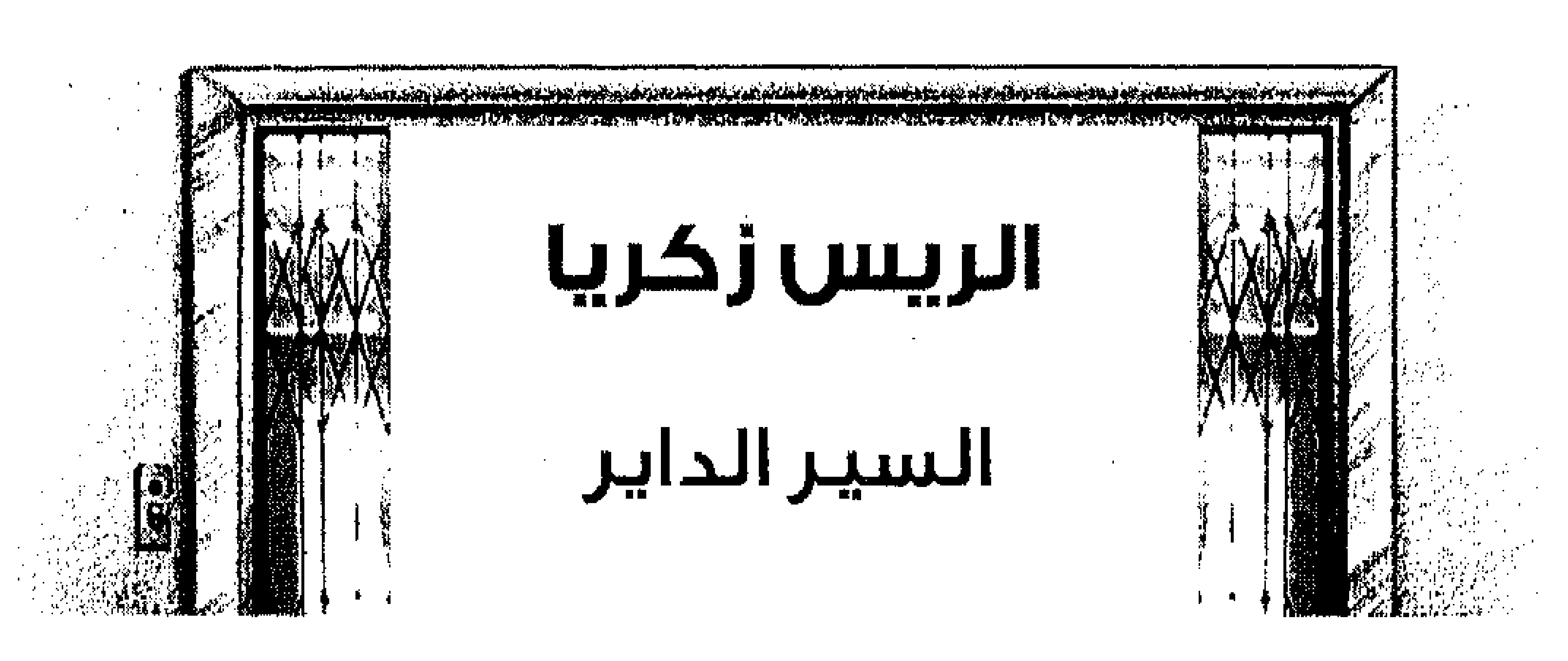
خرج يحيى وهو يرفع القبعة في حركة مسرحية، في نفس التوقيت كان الحاج قنديل يقيس جلبابه ويحبك طاقيته فوق رأسه. وقف منسي يتابع عمل يده، لم يكن ينقص يحيى سوى أرنب أبيض يقفز من القبعة السوداء التي غطس فيها رأسه الصغير، والحاج يهف بذيل جلبابه ويقف مشدود الصدر

يتابع بعين خبير ملامسة طرف الجلباب للأرض من عدمه، كان منظرهما يشبه ممثلين يجريان بروفة لعرض مسرحي مثير. رفع منسي مكنته من فوق الرف الخشبي استعدادًا لحملها إلى البيت. طوى الحاج قنديل شيئًا في يده ودسه برفق في كف منسي. خلع يحيى القبعة عن رأسه ونظر في قعرها، اقترب من منسي بشكل ملحوظ، رفعها بيد، وفيما يده الأخرى غاطسة في جيب الجاكيت قال:

- بس البرنيطة دي مش واسعة حبتين يا منسي.

* * *

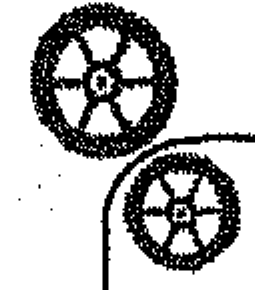
بقي شيء لم يُقل عن المنسي نجيب، حقيقة راسخة لها أدلة وشواهد، ولكن لأنه لا يملك تصورًا خارجيًّا عن نفسه فإنه لم يكن يكررها كثيرًا، كان جده المباشر لأبيه يمتلك عشرة أفدنة مزروعة بالتين والعنب عند امتداد منطقة المرج، عزبة صغيرة اسمها المرج والشجرة، ويقول منسي إن جده هو الذي زرع الشجرة التي سميت المنطقة باسمها بعد ذلك، هذه الأفدنة لا تزال موجودة حتى الآن، وبرغم خيرها الكثير وموقعها الممتاز فإن آخرين كانوا يزرعونها ويوزعون على الورثة الفتات، وقد فشلوا أيضًا في بيعها لأن سعرها يزيد كل طلعة شمس حوالي ألف جنيه، فألفت العائلة قليلة الحيلة الفقر، واستسلم أفرادها لإغراء يتعلق في الهواء، ويسمح لجميع المتضادات بأن تنمو في خيالاتهم، فهم يملكون ولا يملكون، أغنياء وفقراء، وكان بعضهم يذهبون للأرض بعيالهم يوم شم النسيم، يمرحون في ملكهم لكي يرضوا غرورهم التصوري، ولكن لا شيء غير ذلك، يتراكم السعر الافتراضي للأرض، ولكن الحقيقة أنهم جميعًا في فقرهم يعمهون.



المدخل واسع كحوش، مرشوق فيه غرفة كهرباء كالخازوق، يتلطَّع العمال حولها، ينتشرون جماعات وفرادى، كائنات كسلى ولزجة، وسحنهم ككل شيء لزج تصيب النفس بالاشمئزاز والقرف، لا يريدون أن يبذلوا مجهودًا بقدر ما يريدون أن يستحوذوا على الفلوس بالمحلسة والفهلوة. أصوات متضاربة، متصارعة، غاغة لا يظهر فيها صوت واحد منفردًا فيُسمع ما يقوله. كأنهم يخشون اعتماد كلٍّ منهم على نفسه، فينكشف ويظهر ضعفه، أصوات غير واثقة، تبدأ كزمارة وتنتهي كهسيس. تنطلق كأنها ستفدغ السماء، ولكنها بالكاد تتجاوز الحناجر. يرون أنهم أفضل بشر في العالم، برغم خبراتهم المحدودة، فهم لم ينضجوا. يغنُّون المواويل الحزينة البائسة التي تدمي المشاعر بغير ذنب، وتؤذي الأحاسيس بغير سبب. صوت ما جهوري ينزل عليهم كالرعد، لكنهم له يطربون، ويطلقون الزوابع ليقولوا الله. أو آخرون يؤلفون أغاني مرتجلة، كلمات يائسة عن الأحباب والهجران ونكران الجميل، أو رص كلام منظوم ومُقفى يعيد ويزيد في نصائح عن الرضا، أو يشجع على الكسل لأن طول الدنيا مساوٍ لعرضها. وآخر يجتهد في تزويق حكمة أو لعن الزمن. أو النفخ في موضوع تافه صغير، فيمتلئ بهواء فاسد، بلعابهم،

وقرفهم. موضوع لا قيمة له عند من يفهمون، وبرغم ذلك يجعلونه كل شيء، يعمون عن رؤية غيره. وعندما يفرغ البالون من الهواء يعود لسيرته الأولى، قطعة بلاستيك حقيرة تفعصها الأصابع الواهنة بسهولة. وبعد شد وجذب يظهر رأي يقول قولاً، ويعترض آخر على نفس القول. فيطرح غيره، لكنه يلف في نفس الدوامة، فالفلك نفس الفلك، والدماغ هي هي، ومن يقل بغير ما يتصورون ينهروه أو يسحلوه ومن يكشف جبنهم بالكلام القاسي يرجموه، وتظل المأساة كما هي، والورطة كما هي. فالملامح راضية بسكونها الذي يقولون عنه طيبة. ومواتها الذي يقولون عنه قدرًا، وهبالها الذي يقولون عنه «فرفشة» فنكتهم مكشوفة سافرة، ومزاحهم ثقيل الظل وقديم. حركتهم قليلة وكلامهم كثير، لغتهم مقيتة وماضيهم يملأ كل الفراغات. يسلي الواحد منهم نفسه بنتف الشعر من تحت إبطه، أو بالتمليس على شنبه، أو بالهرش في ذقنه، ولا تنتج كل هذه الحركات مجتمعة إلا الصمت، أو قول ما لا يجب قوله. فالأحاديث عن النساء لا تنضب، وعن الفضيلة أيضًا. والكلام عن أوضاع الجماع لا يجف. وعن الصلوات أيضًا. والواحد منهم يسكنه عدة أشخاص، فيصبح وحده شلة متكاملة. يحب صوت الطبلاوي وحس الست، ويسب بالدين ويصلي على النبي.

المهندس محمد زكريا يمشي بينهم كالسائر في حلم، يتوقف أمام أحدهم محملقًا فيه. فهو لا يعرفه، توقف لبرهة لم يتحملها المهندس، زناخة رائحته قبر، والعرق نازز ولزج ومعجون بالغبار والسناج. ركّز عينيه، ضيقها وزغر. وقبل أن ينطق المهندس حدث ما توقعه. انطلق العامل الأبدّ بصوت مرجرج وواثق، هادر ومفتول الطبقات:



- **ما تفتح يا خينا انت أعمى؟**

وهنا انطلق المهندس الكبير قبل أن تتبعثر كرامته وتنفرط، وشخط بثقة كادت أن تضيع بين طيات الصوت العريض المدرب:

- **احترم نفسك يا بني آدم.**

قالها المهندس ولم يزد، قرطت الجملة ما انتواه العامل الأهوج وأذابت ما أعده من شتائم مسجوعة ومنتقاة. وهنا رد العامل بصوت قليل الحيلة ونصف سِوى كأصوات الصبيان قائلاً:

- **مش تخلي بالك يا بيه.**

وقبل أن يزيد عليها تخطاه البيه، انتقل ليصبح في قلب دائرة من الوجوه التي تعود رؤيتها كل صباح، نفس السِحن التي لا يظهر بوضوح ما إذا كانت غاضبة أم مبسوطة. هل هي مستعدة للعمل والجهد أم للركون والتنبلة؟ لم تكن دائرة بالضبط. لكنها كعقد انفرط وانتشرت حباته في كل الجنبات. منهم من يفرشح ويضع بين رجليه سندوتشات الفول الأبدية. يلتهمها بشوق وينسفها بلا هوادة.

تسحّب المهندس من بينهم وهو لا يزال يتابعهم ويعجب لحالهم. يريدون المساواة بالشركات الأخرى، كيف وهم لا يعملون، وإذا عملوا لا يتقنون، وإذا أتقنوا كرروا أنفسهم ولا يبدعون، وإذا ما حدثت المعجزة وأبدعوا لا يستمرون. صراحتهم أقرب للعهر. وفجرهم أقرب للكفر، يتجلى نقصهم وعجزهم للأعمى ثم يتكلمون عن الاكتمال وكأنه من رءوسهم يدنو. وفيما يقولون لا يفكرون، تتكرر أقوالهم، ومثلها أفعالهم، أصبحوا شقلة واحدة

كالنكتة البائخة أو الطعام المضوغ سلفًا، لا يتفاجئون، لا يندهشون. كيف يطلبون ببجاحة الحوافز والزيادات؟ ألا يستحون؟ ألا يكفي أن المهندس الكبير يطعمهم ويسقيهم ويؤمّن لهم العيش الكريم؟ قليل ممكن، لكنه دائم. ثلاثون سنة وهم يظهرون كضحايا أو خُدّام، والحقيقة أنهم جرابيع، إذا ما تركوا الشركة سيموتون جوعًا. كلهم رءوس في قطيع، إذا هاج القطيع هاجوا، وإذا صمت خرسوا، وإذا ما توقف أمام قدر فتاك استسلموا للنهش في بلادة، وإذا تراجع قطيعهم انصاعوا لأحاسيسهم الأولية وغرائزهم الأساسية.

المهندس محمد زكريا تضاءل وكُتمت أنفاسه تحت ضغط العدد الهائل من عمال وموظفي الشركة. لن يستطيع تحمّل ذلك كثيرًا، فقد تعلم في بلاد بره، ورقت شفتاه من نطق الحروف الفرنسية، وبقايا شعيراته الصفراء تهيش بلون قشر البصل، يساويها بيد متوترة، يضبط رابطة عنقه ويهندم جاكت البدلة. هو مُصر على أن يخترقهم للنهاية. ولو حتى سيصل مكتبه على جثثهم. زاد إصراره على إكمال المسير في اتجاه المكتب. تمثال لاظوغلي ظهر من بعيد في حجم ذراع، العمال كالنمل يطوفون حوله بأعداد كثيرة في مشهد أقرب للحجيج. يدّعون الانتماء للتمثال وللشركة الكبيرة القابعة بجوار التمثال. ولكن في أول فرصة يهجّون، فقط بضعف الراتب. بزجاجة لبن مبستر. بوجبة بعد الظهر. كلهم سواسية، لا فرق.. لا فرق.

المهندس لا يهتم بهم كثيرًا، فمن يمر على شيء لمدة ثلاثين عامًا، يكاد لا يراه من كثرة العشرة والتكرار، فقد درس ودرّس في دورات عديدة. وبرغم ذلك لا يعرف طريقة يجعلهم يطبّقون بها ما يعرفه ويتقنه أكثر من اسمه. عِرْق لسانه نشف من محاولات تعليمهم. دورات.. وأرسلهم في بعثات للخارج.

فلـوس.. وصرف عليهـم. لو اسـتطاع لسـقاهم الانضبـاط والدقـة بملعقة. ولكـن أين الفتحة التي سيندلق منها سـائل المعرفة وينتـشر في عروقهم؟ من ذهبوا للدراسـة على أصولها في بلاد الخواجات رجعوا في بداية الأمر نشـطين، وعن الهمة والأحـلام الفضفاضة لا تخرج أحاديثهم. لكنهم سرعان ما عادوا لسيرتهم الأولى، أعادهـم رأي الجماعة لما عليه كانوا. لم يصبح أفراد البعثة صفوة في الشركة برغم سفرهـم لسويسرا. فبدلاً من أن يقيسوا الفولت بدقة التذبذب وتدفق الطاقة؛ لا يزالون يقيسـونه بمفك رديء اشـتروه مـن أتوبيس، أو من فوق رصيف. وبدلاً من أن يحسبوا الرصاص السائح المثبّت للأحبال الصلب بالمليجرام كما في بلاد الله يفعلون. يدلقونه بالكوز. فيفر ولا يقفش في الأحبال الصلب، وتقع الحوادث وتكثر المصائب وهـم لا يشعرون.

- **مش كفاية مستحمل قرفهم واستعباطهم.**

يقول المهندس محمد زكريا - الذي كان أغلب العمال ينادونه بالريس - لنفسه وهو يركن سـيارته، يمـشي في الحر قرابة مائة متر حتـى مدخل الشركة البراح، يتهادى أول العمال المتسكعين، يمرق أمامه في طريقه للدخول، صباح لا يختلف عـن آلاف الصباحـات التي مرت عليه، يرفع يده كالمسـاطيل ليـؤدي التعظيم للمهندس الكبير، تحية رخوة ومائعة، ذليلة وطائعة، يجذب بعدها العامل منهم الكاسـكتة على شـعره، أو على صلعته، ويذهب سـاحبًا معه زوبعة من الذباب تحفـل معه بشـكل دائـم، يتبعه باقي السرب في تسلسـل نمطـي، يتحلقون بعد ذلك بدقائق حول قهوة وسخة، لا شاي فيها يشرب ولا شيشة فيها إلا وتجلب الأمـراض، يقدم فيها الطلبـات شـخص بدين لا يدري لمـاذا هو هكذا، رائحة عرقـه لا تطيقها الهوام ورائحة قدمـه أهون منها رائحة مقابر الصدقة. يثرثرون

معه ليل نهار في مواضيع واحدة، تافهة، عن أي شيء يريح العقل، أو بالأحرى يعطيه إجازة، فعقولهم لا تعمل أبدًا بطاقتها القصوى، مطمئنون للخمول والخدر، اهتماماتهم بعيدة كل البعد عن مراكز الوعي والإدراك.

يتخيلهم «الريس» دائمًا كرصة من أرغفة الخبز، طويلة وشاهقة، تكاد تتداعى من فرط طولها، ولكنها عفنت واعتلاها الفطر، وزوقتها براقيش من الهيش كغزل بنات أخضر، ونمت فوقها شجيرات دقيقة من بكتيريا غير مفيدة، كثيرة جدًّا للدرجة المتاهة. وكلما أراد أحد أن يفك منها طلسمًا عاود المرور على الرصة كلها وحاول تفسيرها مجتمعة، فهم لا يعملون أبدًا فرادى، بعضهم يلبد في بعض، لا ينجز أحدهم عملاً بمفرده. حتى ولو كان تافهًا. لا بد يهيصون ويجعجعون، ويتوه الكل في الكل فيصبحون أنصاف مخابيل، أنصاف بهاليل، أشباح بشر لهم نفس المطالب ونفس السِحنّ.

انسلت المهندس محمد زكريا من بينهم كالشعرة. اليوم فقط يود لو يتفرج عليهم. يود لو يهبش أحدهم ويدمي جسده من كثرة الزغد والهرس وأن يدعكه في حبيبات الأسفلت الأسود، أو يبطحه في حجر رصيف بارز. ربما يفيق من غفوته. ويفيق غيره من العمال. يتمنى لو تأخذهم جميعًا شوطة أو يفنيهم وباء أو يهلكهم طوفان. فهم لا يستحقون الحياة؛ العالة لا يستحق أن يعيش، تحمّلهم ثلاثين سنة، هو المهندس الذي تعلم في بلاد بره، ويدرك معنى الوقت ويحس بقيمة الإرادة البشرية قد سئم منهم. منذ عشر سنوات كان في طريقه لذلك، لكنه وصل اليوم لمنتهى الصبر. لا يستطيع أن يتحمّل أكثر من ذلك. الطوق يزداد إحكامًا حول عنقه.

اكتفى المهندس محمد زكريا بالفرجة. ودائمًا يثبت لنفسه أن من يطلب

لهذه الشركة النجاة هو شخص واهم، ومن يريد الخير لها يتركها تنعم في سلام الرضا والطمأنينة ويبتعد هو عنها.

ذهب لمكتبه وخلع الجاكيت وتابع مشروعه الأهم من الكلام عن العمال والموظفين. مشروع «البغلة» فالحديث عن عمال وموظفي الشركة كالحديث عن حكايات للتسلية وقتل الوقت. ولن يفيده سوى نجاح فردي ينسب له ويعترف به العالم.

وقف «الريس» وهو يعطي للباب ظهره، منحنيًا على حصان خشبي ومندمجًا برفق؛ وربما بشاعرية في تحريكه فوق أسلاك دقيقة. اشرأب عنقه وهو يوصل له الأسلاك. يبدو الحصان كلعبة يبتهج وهو يسيّرها ولو لبضعة سنتيمترات.

ملّس على صلعته الزاحفة؛ التي تضيف لهيئته بعض الوقار والسنوات. لا يهمه الآن إلا تسيير البغلة، اختراعه الذي يعلق عليه آمالاً تتجدد كل يوم بأن ينضم لجمعية المخترعين العالميين. كان اختراعه عبارة عن حصان خشبي قَدّه بمقاييس تُمكّنه من أن يسير برفق على أحبال دقيقة مشدودة كأوتار كمان، تزيد قليلاً عن سُمك شعرة الرأس، يتهادى الحصان الخشبي؛ فور أن يضغط الريس على كبّاس يشبه السرنجة ومعلق في بطن الحصان، ينخسه برفق فيقطر زيتًا من بزبوز صغير، وفور بداية الحركة تسخن طبقة رقيقة من الزيت، تتذبذب قطراته وتصنع دوامات صغيرة، تتولد حرارة كامنة، تتحول بعض الرقائق النحاسية المبطنة للجسم الخشبي لطاقة مضغوطة بكبس الزيت، بدلاً من أن تصبح طاقة متبددة، فتكتمل عملية التسيير تلقائيًا. تتبختر القطعة الخشبية وتتمايل فوق الأوتار. يصفق المهندس بكفيه الكبيرتين ويهلل كطفل تذكر مكان لعبته. كانت فكرة اختراعه ببساطة تتلخص في استخدام أمثل

للطاقة الكامنة التي تتولد من احتكاك المصعد أثناء المسير، فأكثر من ثلثي الحرارة المتولدة يضيع هباء، لا يتوزع بشكل متساوٍ. وإذا ما نجح المهندس محمد في ابتكاره هذا سيحدث انقلابًا في عالم المصاعد، فهو يعتقد أن نصف مشاكل المصاعد تكمن في اعتمادها الأساسي على إمدادات الكهرباء، أما لو تحولت الطاقة للتوالد الذاتي من خلال الحركة فلن تحتاج المصاعد لأسلاك ولا لكابلات، ولن ينقطع التيار فيقف المصعد في منتصف الطريق بالركاب وتحدث الكوارث. ولكن مشكلته الكبرى وتحديه الحقيقي كان يكمن في الانتقال من مرحلة التخطيط والنماذج إلى مرحلة التطبيق العملي. ومن أجل أن يفعل ذلك لا بد من تمويل محترم لكي يتم تصنيع أجزاء الابتكار بدقة كافية. وكانت هناك مشكلة أخرى لكنها غير أساسية. إن هذه الطريقة لن تضمن سرعة كبيرة للمصعد، لكنها ستكون بطيئة جدًّا إذا ما قيست بالسرعات الكهربية الحالية. قال لنفسه وهو منشغل ويضع قلم حبر أزرق في فمه وسارحًا في دنيا غير الدنيا:

- **أول قطر بخار كانت سرعته تمنية ميل في الساعة بس.**

طفح القلم ونيِّل شفتيه فمسحهما بمنديل واستدار ينظر من الشباك وهو يملس على شعيراته الخفيفة. ثم التفت للطاولة الصغيرة التي تحمل اختراعه، خلع الحصان برفق، حمله كمن يحمل مولودًا عمره دقيقة، تأمله بتركيز، وربما بحنان، كلما تخيل صورته واسمه على عملة تذكارية تكتسي ملامحه بوهج رومانسي، وتنبت أحلام لها أجنحة تستطيع التحليق بعيدًا.. بعيدًا.

سيرسل للخواجة أنطونيو ويأخذ رأيه في اختراعه. لن يسلمه أبدًا لشركات مصرية، ولا حتى عربية، سيقترح على الخواجة أنطونيو أن يبيع



حق ابتكاره لشركة إيطالية، أو سويسرية، سيدع الشركات المحلية في الجهالة تنعم، وبعد أن تستهلك المؤسسات الأوروبية ابتكاره يرمون للتابعين فتات العقول، بعد مائة عام، وربما أكثر.

كان يريد أن يطوِّر بعض أشياء في اختراعه، سيثقب بطن الحصان ثقبًا مجوفًا ليساعد على تدفق الزيت بضغط الهواء، فيقلل ذلك من الاحتكاك ويزيد من السرعة بشكل ملحوظ. سحب المهندس بغلته من بين الأوتار وأخرج من جيبه قلمًا وصنع دائرة صغيرة في منتصف بطنه:

- **عاوز خرم ببنطة أربعة مللي هنا. أربعة مللي بالظبط.**

وقبل أن تتضح العلامة مكان الثقب سمع هيصة وجلبة اخترقت الزجاج والأبواب الكاتمة للصوت. وعم أحمد بوفيه يهرول ويقتحم مكتب المهندس محمد زكريا ويصيح بصوت من شدته جرح زوره:

- **إلحقني يا بشمهندس. ناس كتير من الشركة العربية هجموا علينا. محدش قادر عليهم، والعمال بتوعنا واقفين لهم بالشوم في كل حتة.**

ترك المهندس محمد زكريا ما كان منشغلاً به ووزن أحمد بوفيه بنظرة شاردة، سرعان ما أفاق من غفوته واتجه للشباك.

رآهم، بكل جبروتهم رآهم يُسيِّجون الساحة أمام الشركة. يرفعون أسلحة بيضاء وبعض بنادق خرطوش ومسدسات كثيرة، لا يهمهم مبنى مباحث أمن الدولة الذي يشكل خلفية لمنظرهم الجماعي، ولا وزارة العدل التي لا تبتعد أكثر من عشر خطوات. شمط المهندس محمد زكريا جاكيت البدلة، أدخل وجهه بين ذراعي النظارة، فظهر المشهد أكثر وضوحًا، العمال يقفون ببسالة

لا تتماشى مع غبائهم وسطحيتهم، ولا مع تبلدهم وخنوعهم. وهل تحتاج الشجاعة لذكاء؟ أغلب العمال يقفون حول مداخل الشركة، يطوقونها كما يطوق السوار المعصم، لا يبالون برُقع ملابسهم ولا بالشمس القاسية من فوق رءوسهم. وكعادتهم عندما يشعرون بالخطر يتحولون؛ تنقلب رائحة عرقهم لسلاح منفر ضد المعتدين، وتنقلب أوزانهم الثقيلة لحائط صد، أصبحوا في قلب المعمعة يتكرون. خلع أحدهم جاكيتة الشغل المزيتة المشحمة، مزع منها كُمًّا وكوَّره، ثم أشعل النيران فيه. وقبل أن يسرح اللهب ليده طوحه بطول ذراعه، فوقع على رأس أصلع من مهاجمي الشركة العربية المحدودة، ولما أحرقه الكم المشتعل سُمع دوي، بعض طلقات خرطوش انهمرت في اتجاه المدافعين.

استمرت المناوشات لأكثر من ساعة ونصف الساعة متواصلة ولم تتحرك أي قوة للدفاع عن الشركة العريقة، والمهندس الكبير يقف في شرفته يتفرج على المعركة التي كانت في طريقها للاستفحال. السيارات الزرقاء الكبيرة المحملة بالمساجين تمر كخلفية للمهاجمين. تسير «البوكسات» متهادية ككائن نسيجي بلا أبعاد، لا ينظر سائقها لما يحدث، ولم يتوقف، أو حتى يسأل المترجِّلين من حوله، وحتى عسكري المرور في ميدان لاظوغلي؛ يرفع يده وينزلها ويشير للسيارات بالتوقف أو بالعبور، ينفخ صفارته ويبتسم للسائقين، وكأنه ليس في الأمر شيء غير مألوف.

كانت ثمة صراعات بين الشركتين بدأت تتصاعد في الفترة الأخيرة، بدأت صغيرة وتافهة، لم تكن صراعات بقدر ما كانت أقرب لمناوشات خائبة. كانت الشركة العربية المحدودة تستجدي الأمان من خلال فرض العلاقات بين الشركتين حتى ولو من طرف واحد.

تطورت المعركة، بدأ عمال شركة شندلر في تغيير خططهم بشكل غريب، بدوا وكأن لهم استراتيجية مسبقة. في البداية استخدموا الحصى والطوب المنتشر في ساحة رَكن السيارات، ثم بعد ذلك أخرجوا عِددهم الخفيفة، ثم الثقيلة. رصاص الخرطوش المنهمر من ناحية الشركة العربية المحدودة لم يصب إلا الهواء، فالرصاصات فشنك والمسدسات صوت للترهيب والتخويف فقط. حوَّل عمال شندلر أحبال المصاعد الصلب لشرك، يربطون طرف الحبل على شكل «خيَّة» ويلقون به فوق الرءوس، فيحصد سيئ الحظ الذي اشرأب عنقه وقت تطويح الحبل. يجُرُّون الصيد بسرعة قبل أن يفهم شيئًا. يسحبونه لحدودهم، يشلب الدم من رُكبه، يسحلونه كعبد لم يحصل على الصك بعد. في لمح البصر يختفي في دائرتهم، يدخلونه لمبنى الشركة في ثوانٍ قليلة. ثم يبحثون عن بائس غيره يعلقون في رقبته الحبل الصلب. في دقائق ازدادت المشانق التي تسحب المعتدين للداخل.

لا أحد يعرف على وجه الدقة لماذا تفعل الشركة العربية المحدودة في شركة شندلر كل هذا؟ سحب رؤساؤها منهم المقايسات وسرقوا منافذ تخزين البضاعة وأغروا مهندسيها بمرتبات أكبر، كل ذلك ولم تتعرض لهم شركة شندلر بسوء. لماذا يهجمون إذًا على المقر الرئيسي؟ وللأسلحة الكثيرة يحوزون. هل يحسدون عمال الشركة على فقرهم وغبائهم؟ هل يستكثرون عليهم نعيم الرضا وبحور الطمأنينة التي هم فيها يسبحون؟

وصلت المعركة لمرحلة اللا عودة، عمال شركة شندلر يزدادون عددًا، غير هيّابين للخرطوش، ومهاجمو الشركة العربية المحدودة حذرون، واقفون على حافة الساحة، حريصون على ألا يدخلوا.

وقف المهندس محمد زكريا مذهولاً لا يصدق ما يراه. خلع نظارته ولبسها مرتين، وكأنه يؤكد لنفسه أن ما يراه حقيقة. توزعت نظرته بين البغلة الخشبية التي خلعها لتوه من أوتارها، والعمال الذين تلبَّستهم أرواح أخرى غير أرواحهم، وعلى الضفة الأخرى عمال الشركة العربية المحدودة، مهاجمون، معتدون، ولكنهم واقفون -في وجوم- وقفة المدحورين.

مر المهندس محمد زكريا بين رجاله غير مصدِّق ما حدث، لم يشم رائحتهم كما كانت في الصباح، لم ير قرفهم وبلادتهم، ولكنه رآهم بشرًا آخرين، يمكن الاعتماد عليهم، تأمل ملامحهم المجهدة والراضية في آن. بدأ الانسحاب التدريجي لعمال الشركة العربية المحدودة وهم مقطبون، انسحاب بلا صخب، وكأن ما حدث هو الطبيعي. على عكس ذلك هاص عمال شركة شندلر وهللوا، صنعوا في ثوانٍ قليلة دائرة، نزل فيها أحد العمال ورقص رقصة التحطيب على أنغام مزمار قب صاحبه في الموكب فجأة، تطوحت العصاية أم عوجاية يمينًا ويسارًا بقوة شقت الهواء، ومال المزمار الذي ينفخ صدغي الرجل الذي ينتشي طربًا، مظاهر الفرح أنست العمال أنفسهم، منهم من رقص ومنهم من ينتظر، ازدادت دائرة الاحتفال اتساعًا، ابتلعت الساحة الصغيرة أمام الشركة وتخطتها، مر موكبهم أمام مباحث أمن الدولة ووزارة الداخلية، تخطى ميدان باب اللوق حتى اقترب من مركز الصيانة بشارع جواد حسني، قابلهم موكب آخر مكوَّن من عمال الصيانة يتقدمهم الحاج قنديل. اجتمع الفريقان وجابا المنطقة وهما يعلنان عن قوة جديدة تتشكل لبناتها الأولى الآن.

هُنا مرة أخرى

المقر الرئيسي لم يعد يطل على ميدان لاظوغلي، تبخرت الشركة من أمام وزارة العدل ومباحث أمن الدولة، ابتعدت كثيرًا عن بوابات وزارة الداخلية التي يحيطها الرخام الأسود، وحُرِمَ عمالها من المرور على التمثال الواقف شامخًا في مهب الغبار، لاظوغلي باشا أصبح يقف وحيدًا في قلب القرص، ولكن بدون شندلر، ولا كائناتها.

بعد مرور تسع سنوات على هذه الأحداث انتهى كل شيء وكأنه لم يكن موجودًا من الأساس، ابتلعت الشركة العربية المحدودة شركة شندلر العتيقة، وأول ما محت كان النقش نصف الدائري المحفور فيه بحروف إنجليزية قديمة كلمة **SCHINDLER**، ومحت كذلك التاريخ الذي كان يُعلن عن بداية الانطلاق 1874م، وفوق مركز الصيانة عُلقت لافتة كبيرة مبهرجة صُممت بالكمبيوتر.

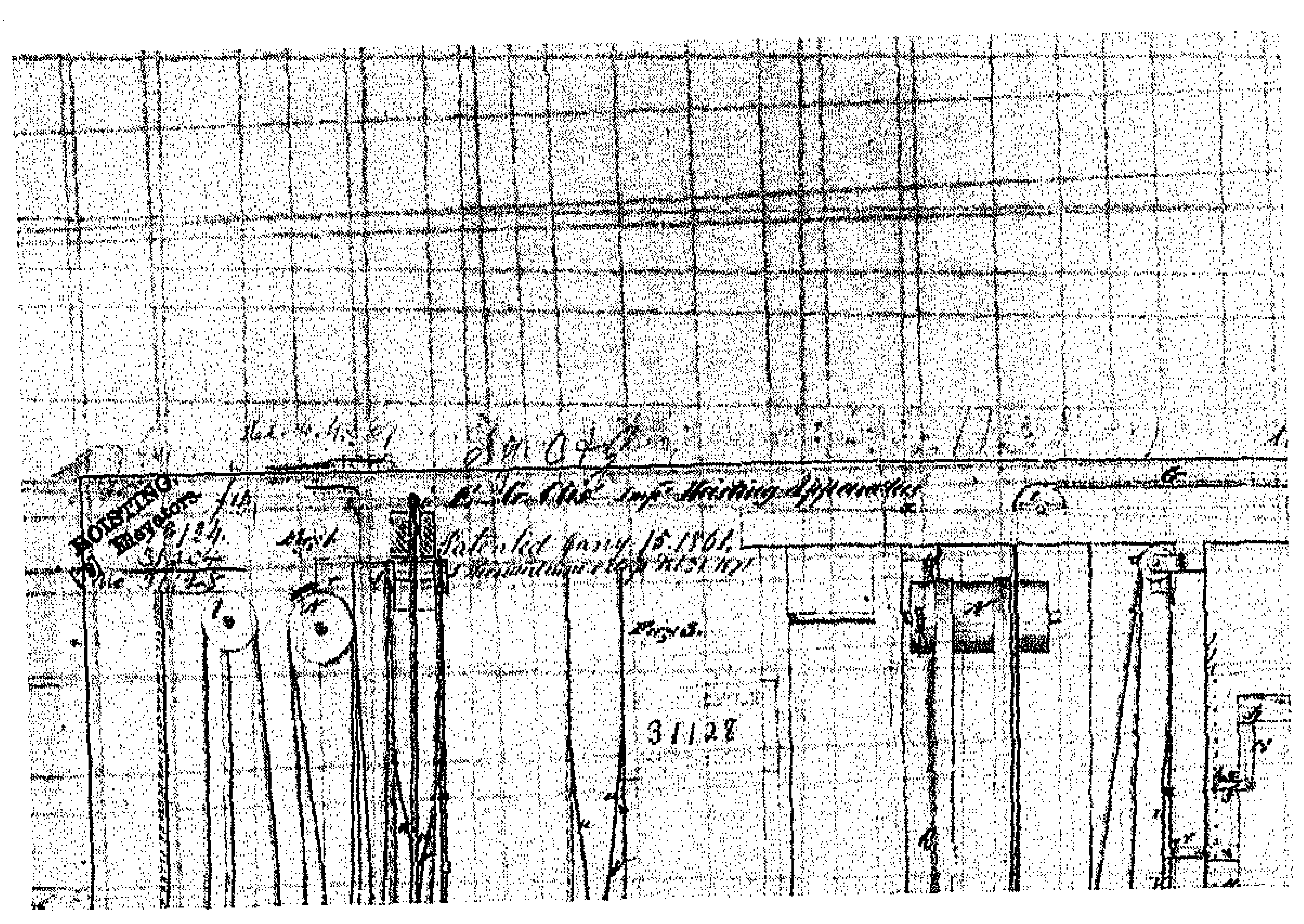
الشركة العربية المحدودة للمقاولات والاستشارات
(شندلر سابقًا)

ألقوا بعمال شندلر في منفى كبير، منطقة خربة خلف محطة غمرة، قالوا إنه مصنع جديد يستند إلى مقاييس عالمية، وقالوا أيضًا إنه سيعيد للشركة بهاءها ويتلو عليها مرة أخرى فصولاً من الماضي المجيد، وإن الأحوال ستعود

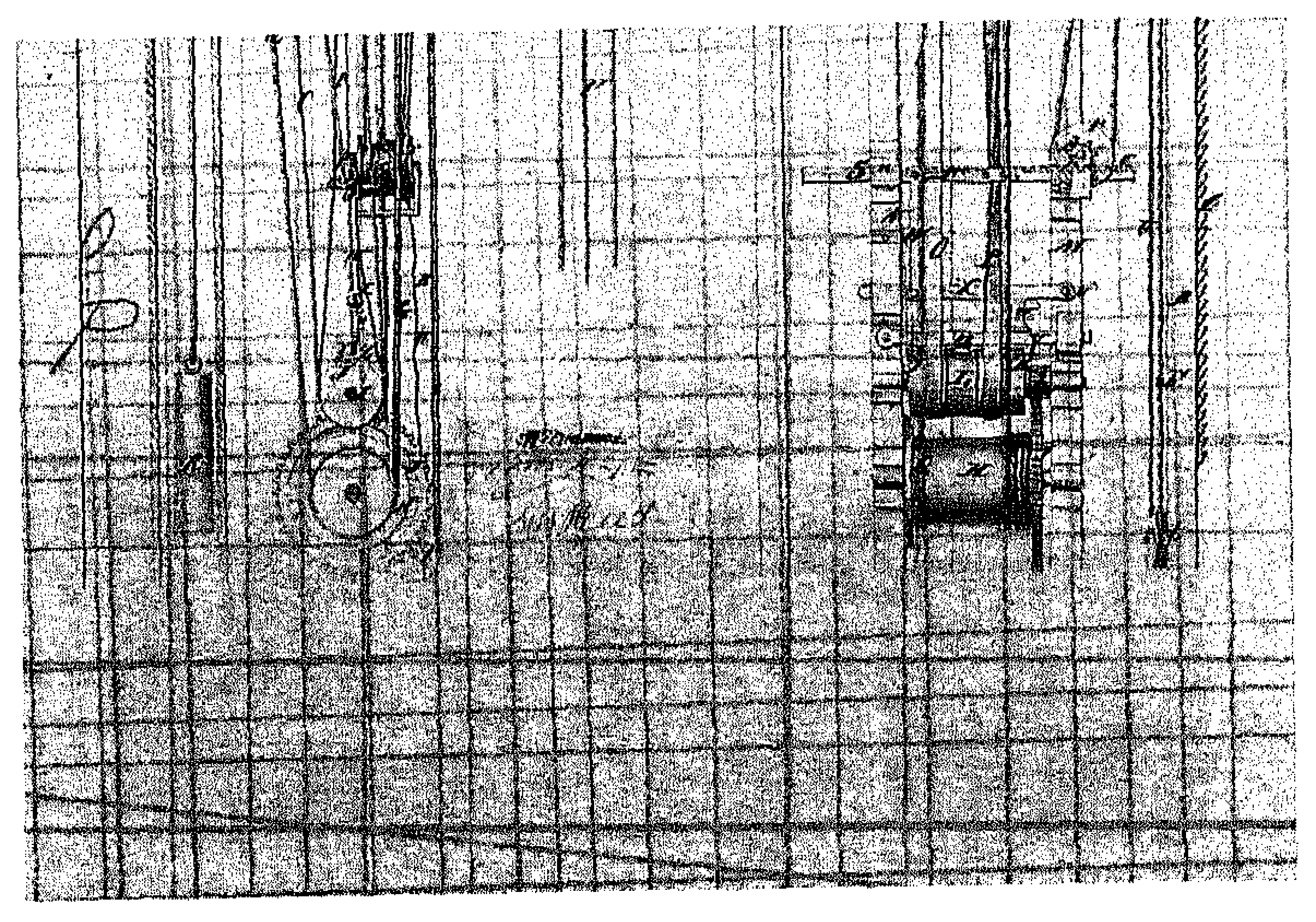
مشرقة كما كانت بمساعدة مهندسي الشركة العربية المحدودة، ولكن الأمر لم يكن مقنعًا بشكل كاف، فالمنطقة التي تم نقل شركة شندلر إليها كانت عبارة عن أحواش روبابيكيا شاسعة الامتداد، وقطع الغيار ملقاة بهرجلة، وناس غريبة مختلفة الهيئات والملامح تجوب الشركة طولاً وعرضًا، وعمال شندلر يصطفون كطابور جنود ينتظر التعليمات، بملامح مسحوقة، يستسلمون للبيع، وبعد البيع أصبحت مهمتهم نقل مواتير أو جر حديد زهر وجنازير، يلهثون بالأسمال الرثة ويتقوسون تحت الأثقال. وعندما يضربهم الجوع لا يجدون أثرًا لعربة الفول، ولا رغيف عم سويفي المعمَّر، ولا حتى أثرًا لقهوة بدير، ولكنهم رأوا شيئًا مختلفًا تمامًا. قفز شخص بدين يرتدي جلبابًا وطاقية، وله لحية مرسلة، وابتسامة باهتة، تلتها ضحكة صحراوية مفتعلة، تشققت على إثرها ملامحه، صعد الرجل على حجر، وجذب ذراع سلسلة، فسُمع صوت رنين مزعج، أخذ الرجل البدين يشد السلسلة بعصبية، ولم يهدأ إلا بعد أن انصرف العمال، فنزل من على الحجر وسار خلفهم كراعي قطيع، اهتز ردفاه بشدة عندما أراد اللحاق بهم، صنعت خطواتهم دوامة من الغبار، لفت الرجل كغلالة تكوَّنت من غاز خفيف، ثم اختفى على إثرها أثره.

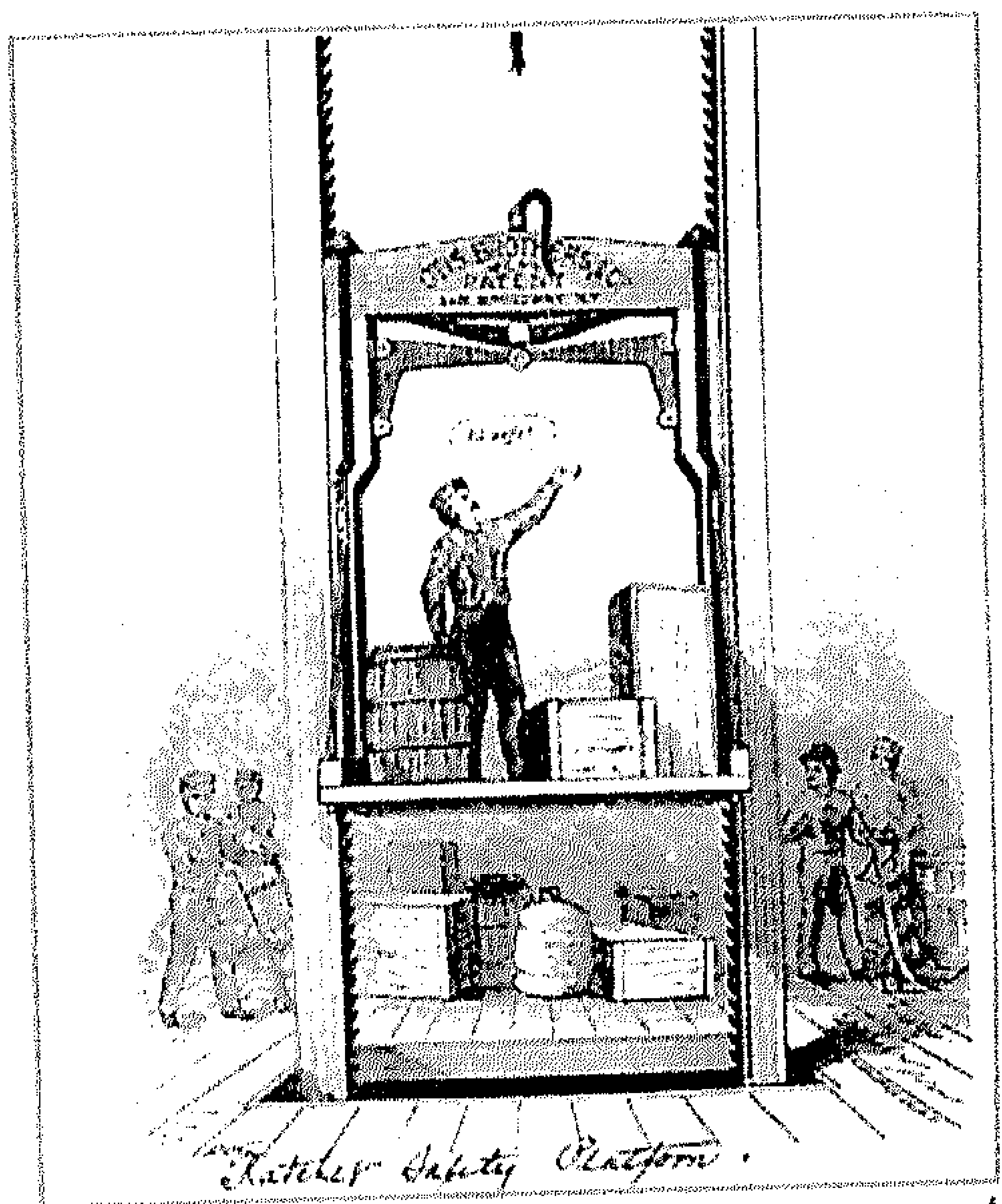
تمت

حي الزهور، القاهرة 2012 .

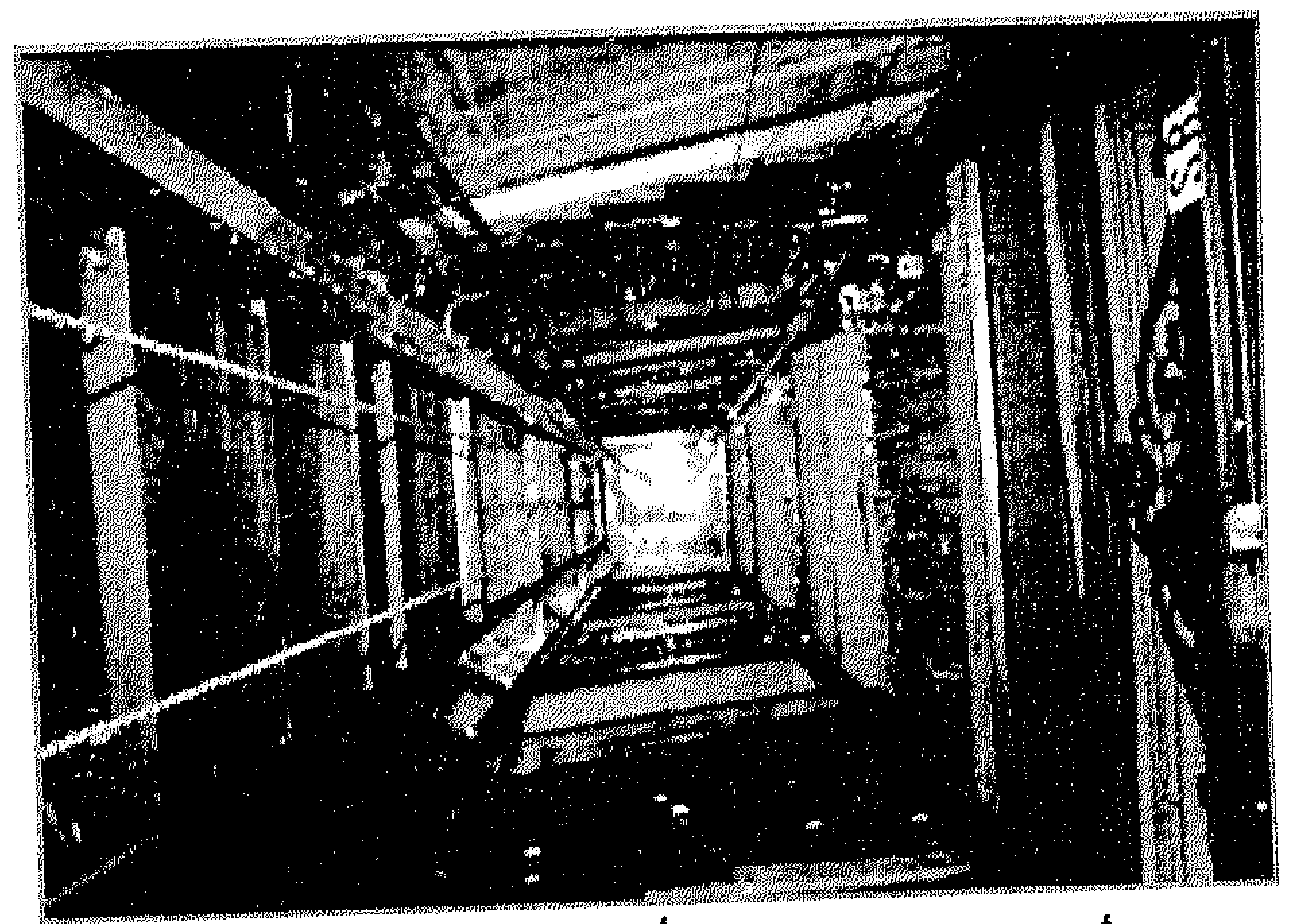


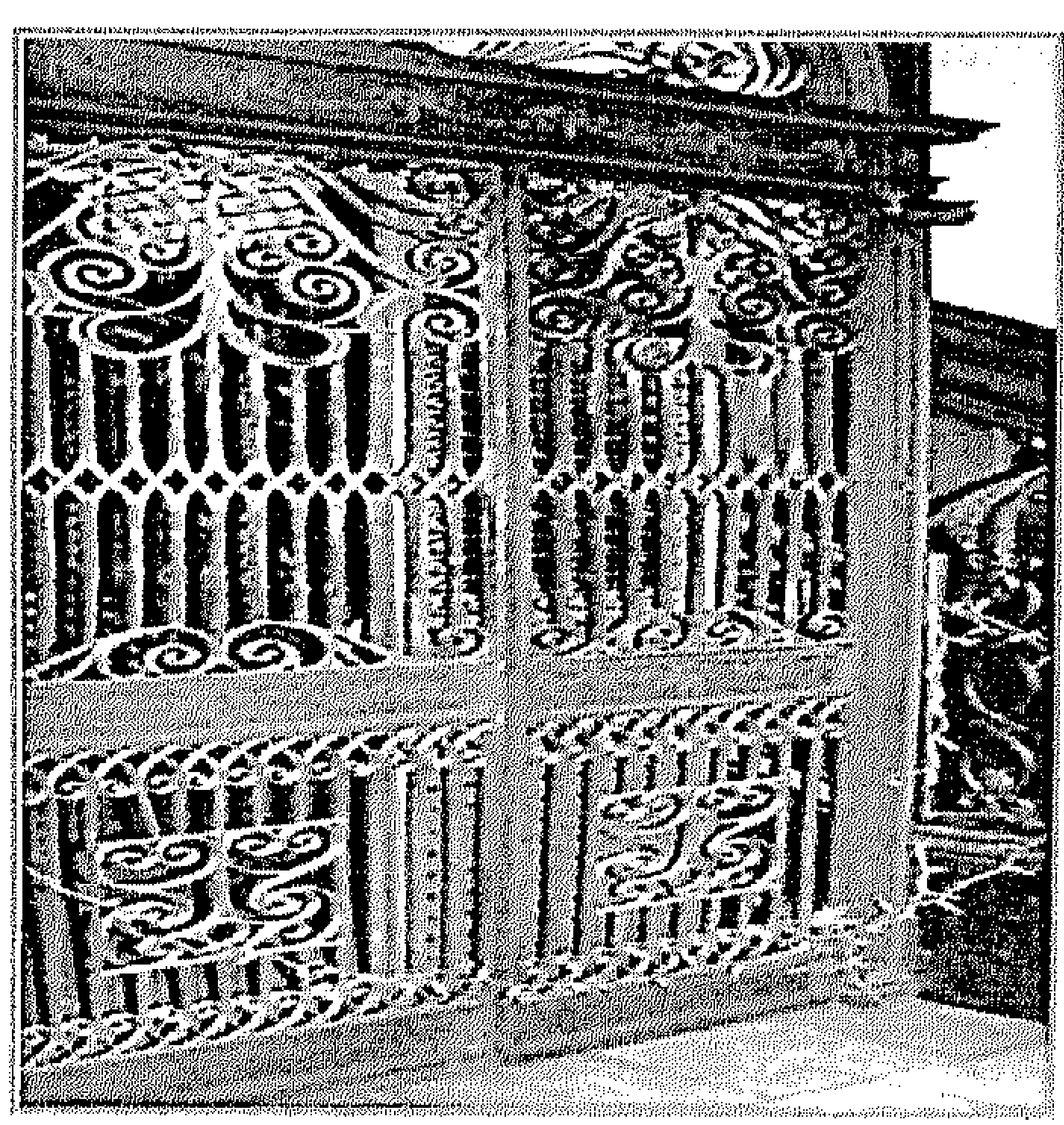
ملحق الصور



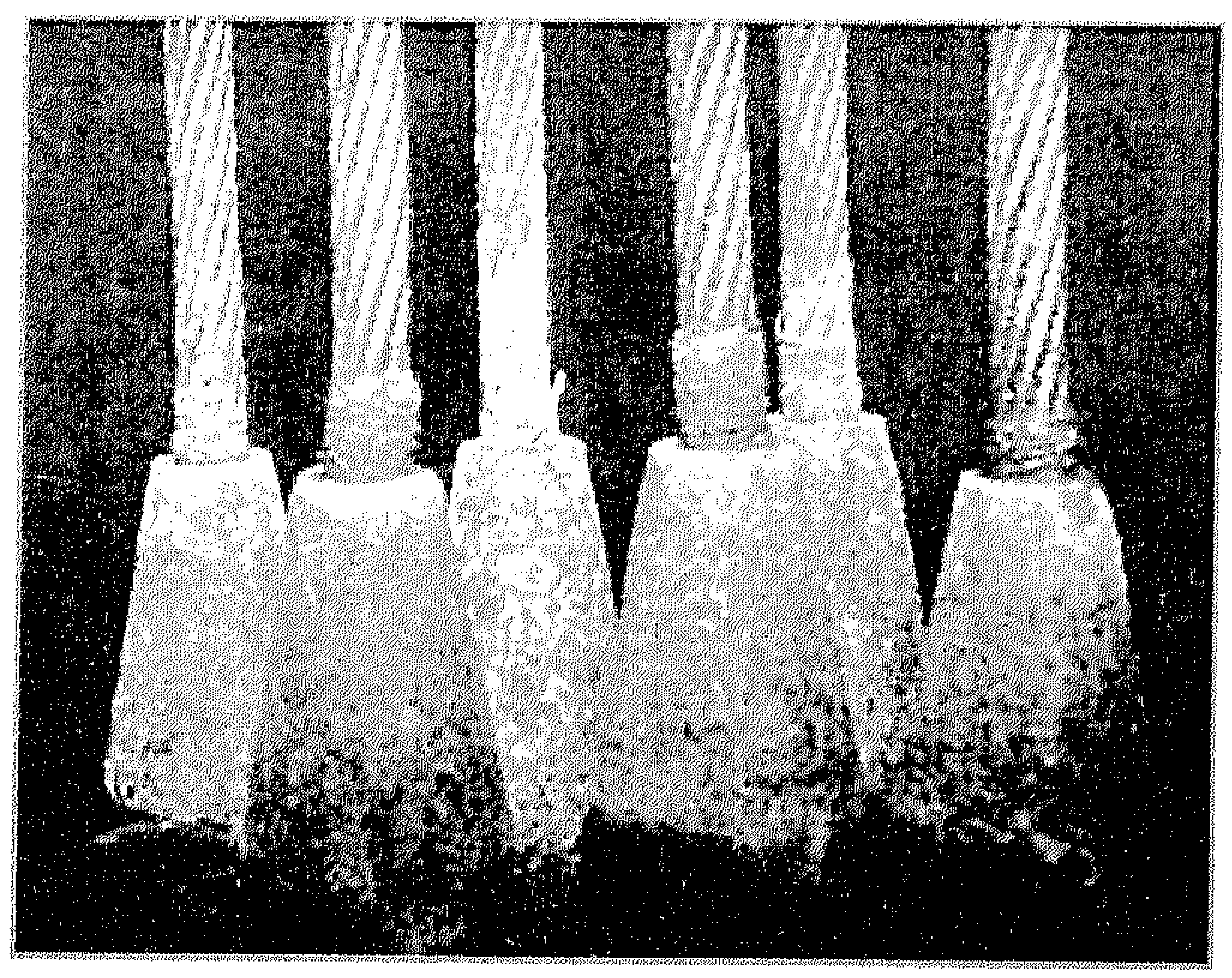


أول تجربة لمصعد منتصف القرن التاسع عشر


بئر مصعد من منظور أعلى في عمارة شاهقة



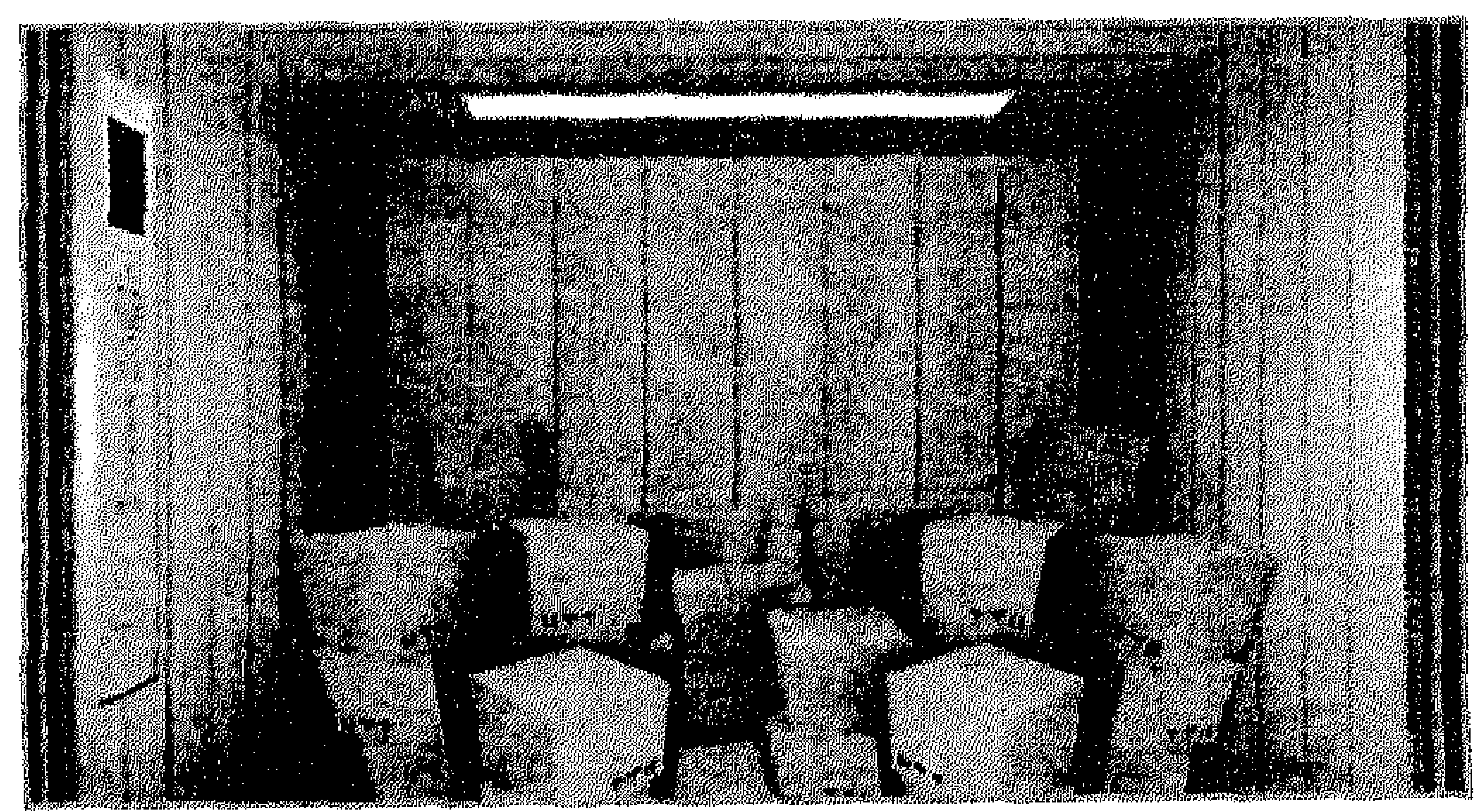
شكل كلاسيكي من الكريتال المشغول لواجهة مصعد



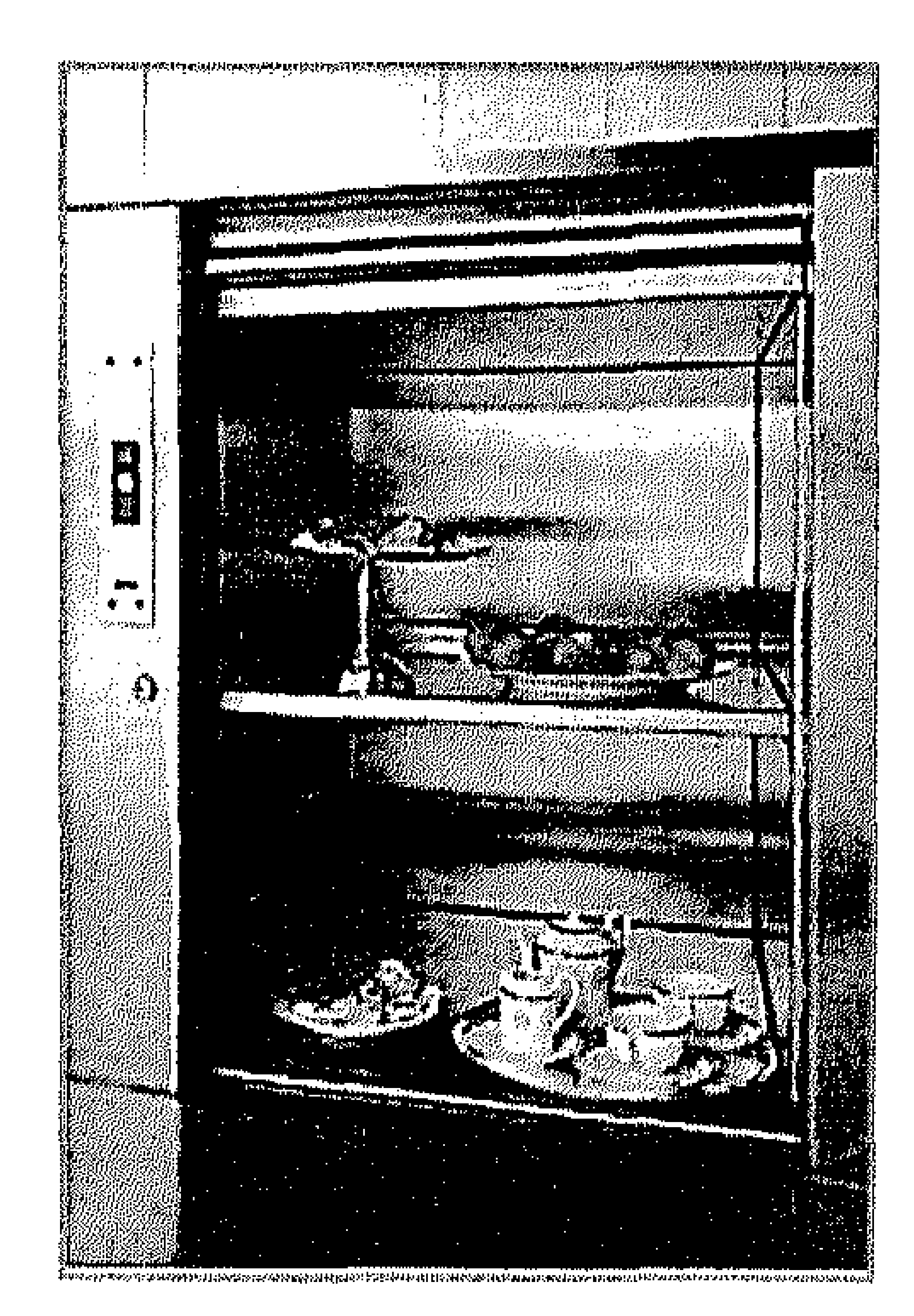
عوامل الرطوبة والملوحة مع الإهمال في صيانة المصاعد دائمًا هي الخطر الأكبر



مصعد بانورامي يعتمد على الإبهار وجذب الأنظار، وينتشر عادة في الفنادق والأسواق التجارية الكبيرة



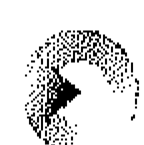
مصعد بضائع

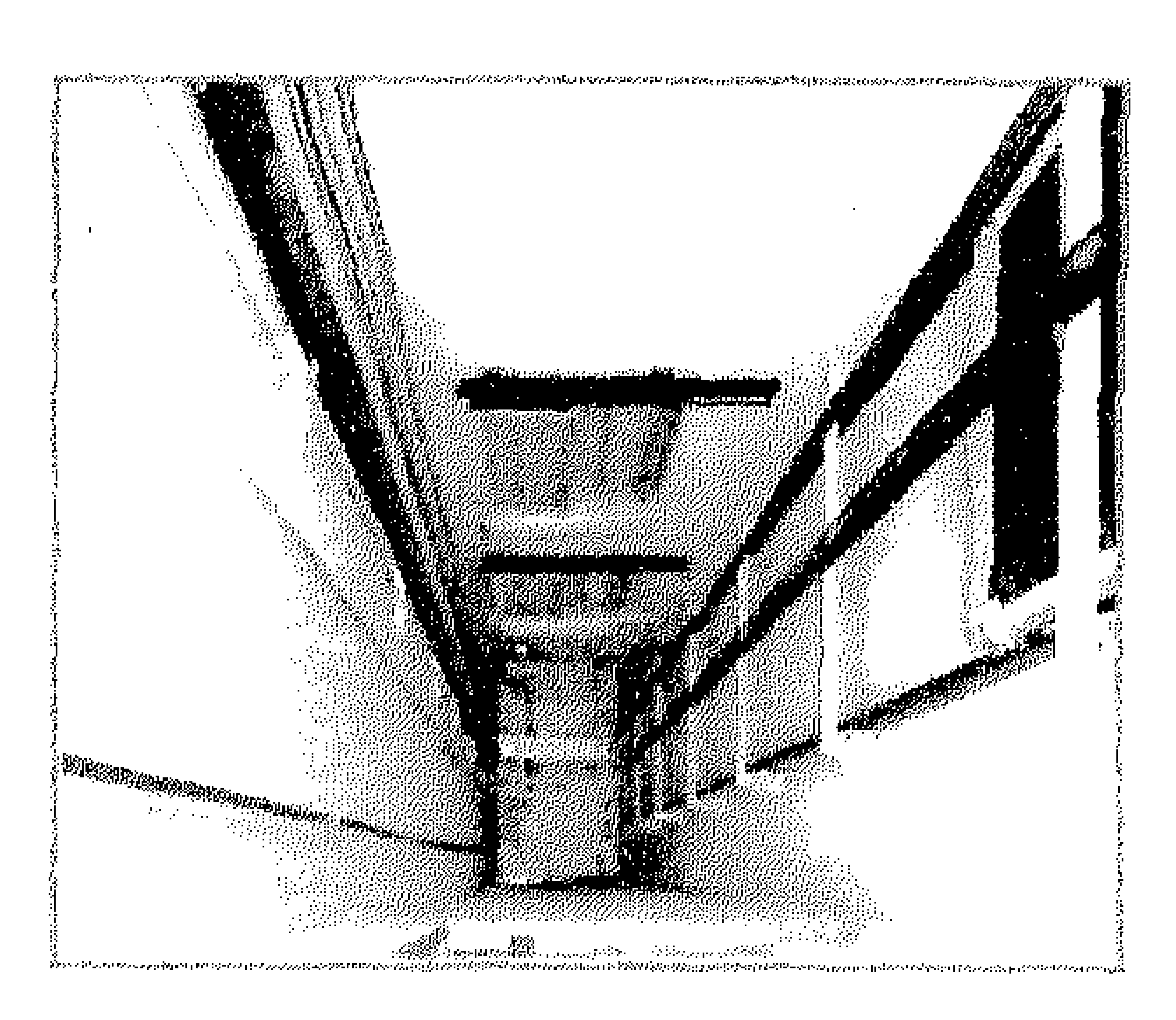


مصعد طعام



مصعد سيارات

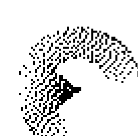


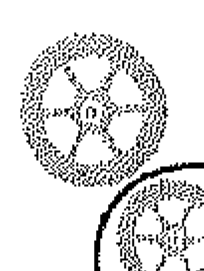


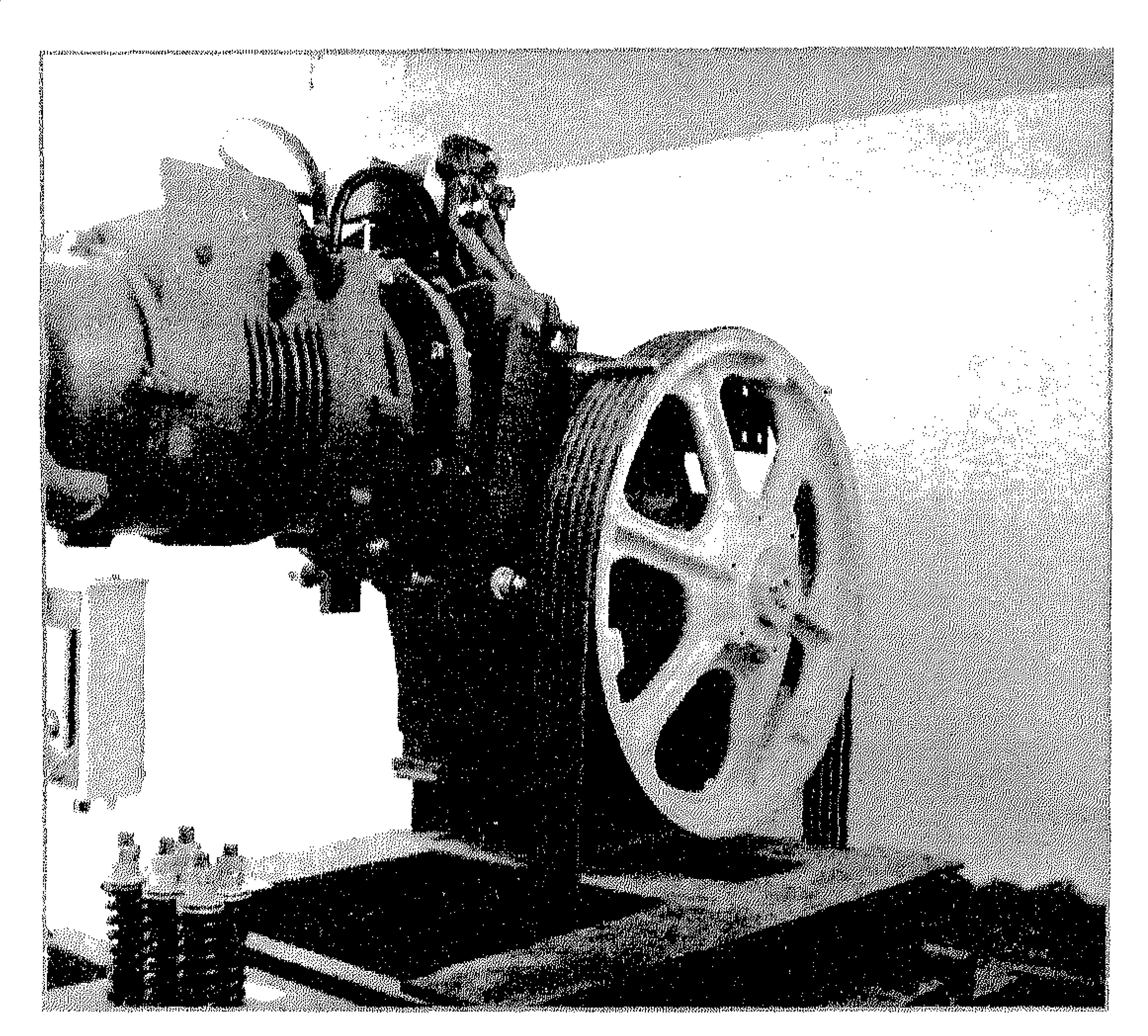
صورة من باب الدور الأخير، والمصعد في طريقه للدور الأرضي



مشهد من فيلم «بين السماء والأرض»



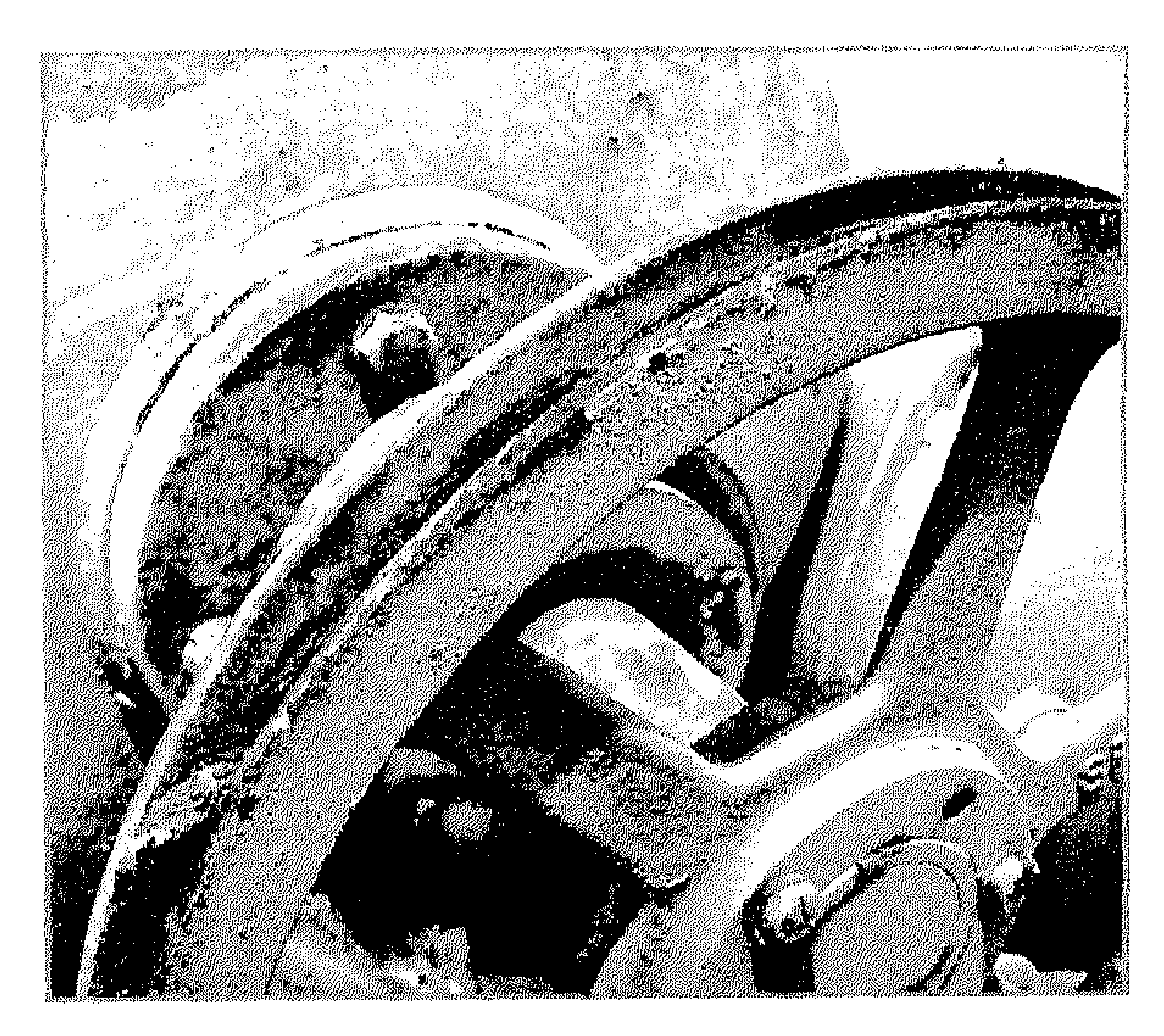


موتور مصعد جاهز للتشغيل.. الحبال الصلبة مشدودة على الطنبورة

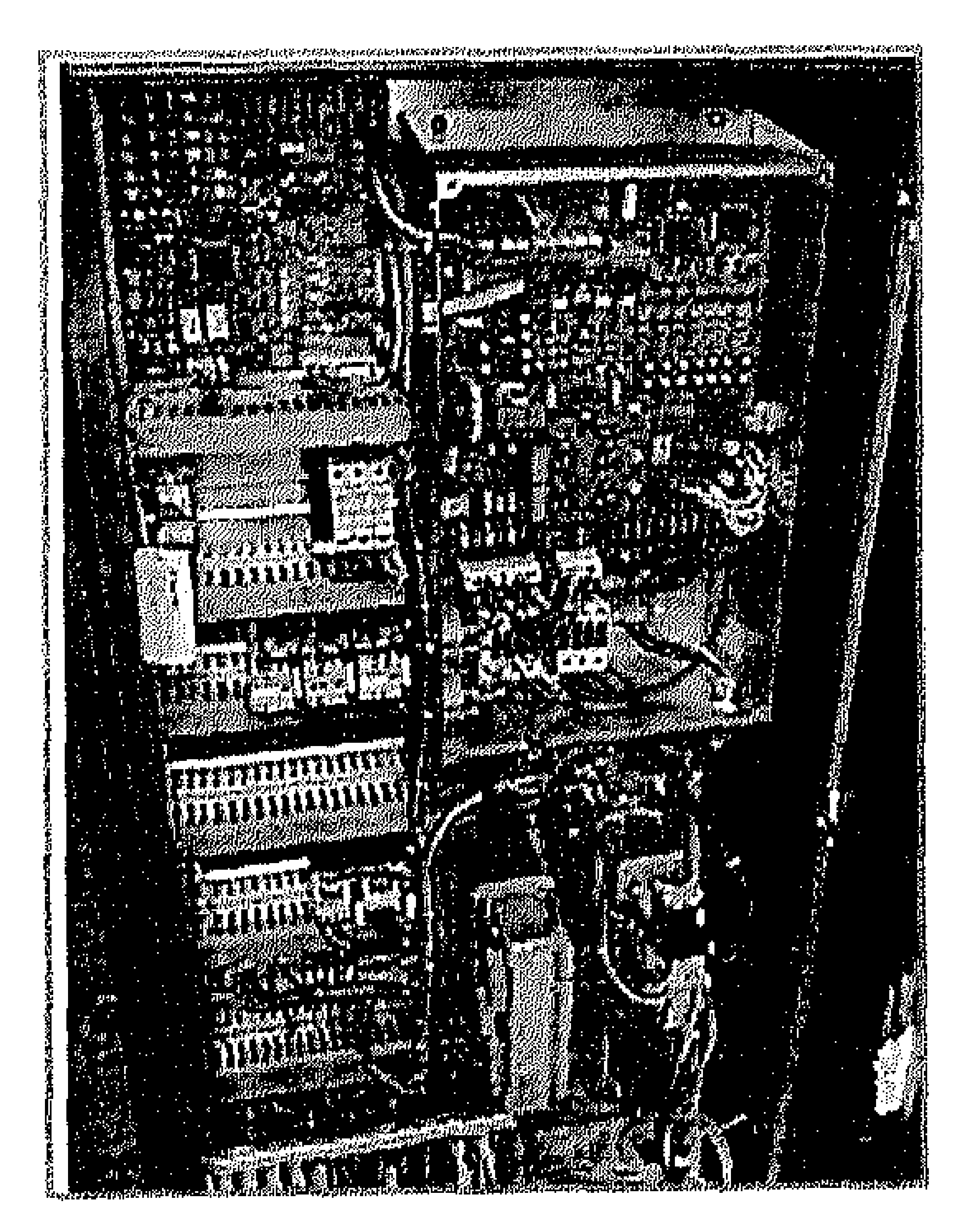


بئر مصعد، قنْوَر سابقًا

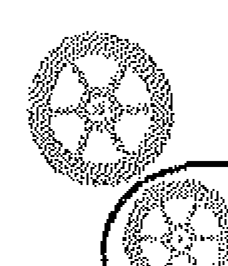




طنبورة مهملة في مصعد متهالك، دائمًا التقاعس يؤدي إلى كوارث

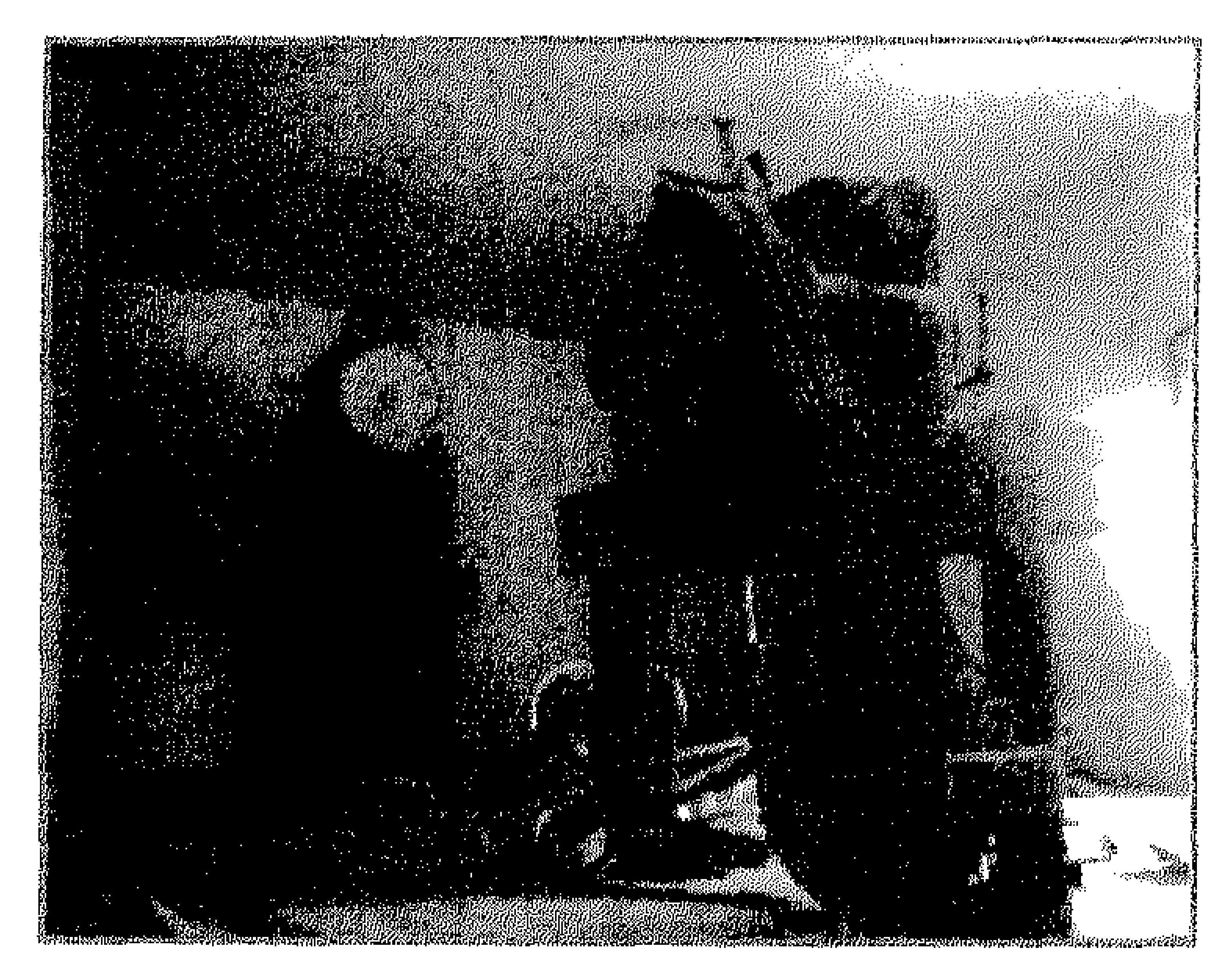


وحدة الكنترول بمثابة المخ لتشغيل المصعد





الوقوف على ظهر المصعد تحوطه دائمًا الرهبة والأخطار

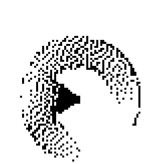


غرفة مكن لمصعدين





رسم مُبسط لكيفية عمل المصعد




المراجـع

(1) قاموس المصطلحات الفنية للحديد والصلب، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1979 م.

(2) أطلس السباكة وعيوبها وكيفية تلافيها، مجموعة من المؤلفين، المركز العربي الدولي للإعلام، الطبعة الأولى، 1980م.

(3) الصخور التي حولنا، آن تري هوايت، ترجمة أنور محمود عبد الواحد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1963م.

(4) خدعة التكنولوجيا، جاك أيلول، ترجمة فاطمة نصر، مكتبة الأسرة، 2008م.

(5) ألبوم ديانا السري، ممدوح لطفي، مطابع سجل العرب، 1994م.

(6) تأملات عن تطور ذكاء الإنسان، كارل ساجان، ترجمة سمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م.

(7) قصة الحضارة، عصر النهضة، المجلد العاشر، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، مكتبة الأسرة، 2001م.

(8) مذكرات عربجي، الأسطى حنفي أبو محمود،الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2011 م.

(9) خبايا القاهرة، أحمد محفوظ، دار الشروق، الطبعة الثانية، 2009 م.

شكر خاص لـ :

(1) وقت الفراغ الذي استغلني في كتابة هذا العمل.

(2) السَرَحَان الذي لولاه لكنت واقعيًّا بدرجة جماد.

(3) اسم شندلر الملهم.

عمرو علي العادلي

كاتب مصري

صـــدر له:

(1) خبز أسود (مجموعة قصصية) عن دار ملامح للنشر، 2008 م.

(2) جوابات للسما (مجموعة قصصية) عن دار ملامح للنشر، 2009 م.

(3) فيل يتدرب على الإنسانية (يوميات بالعامية) عن دار ملامح للنشر، 2010 م.

(4) إغواء يوسف (رواية) عن دار ميريت، 2011 م.

(5) حكاية يوسـف إدريس (مجموعة قصصية) عن سلسـلة كتابات جديدة بالهيئة العامة الكتاب، 2012 م.

للتواصل: amr-ali-aladly@yahoo.com

الفهرس

أحـــدث إصـــدارات

الأســـتـــاذ

عمرو علي العادلي

- كتالـوج شندلـر..



SCHINDLER CATALOGUE

كتالوج شندلر

للكاتب رؤية وموضوع وقدرة عالية على التعبير واستعداد قوي للإنجاز، عينه سينمائية جميلة ولقطاته شعرية محسوسة.

خيري شلبي

لغة سلسة ومتماسكة وقوية، وعالم جديد تمامًا على الكتابة العربية.

صنع الله إبراهيم

«... السيد المهندس رئيس قطاع المصاعد بشركة شندلر (فرع مصر)
أذكركم بأن الشركة التي نفذت عمليات تركيب مصاعد برج القاهرة منذ خمس سنوات فقط، الشركة التي بذلت جهودًا مضنية حتى يتم إنتاج الفيلم المصري "بين السما والأرض" في أحد مصاعدنا لكي تظهر علامتنا التجارية في ثلاثة مشاهد فقط، لا يمكن أن تتنازل أبدًا وبأي شكل عن هذه السمعة التي حازتها علامتنا التجارية. فالدقة السويسرية تعتبر سفيرًا في العالم أجمع، وقد علمنا بأسف أن قرارًا صدر من الرئيس جمال عبدالناصر طلب منكم فيه أن تصنعوا كل ما تستطيعون تصنيعه بطريقة محلية، وذلك يا حضرة المهندس العزيز ضد طبيعة الكون، فالعناصر لا يمكنها أن توجد جميعًا فى مكان واحد أبدًا [illegible] ظر حضرتكم لأن شركة شندلر السويسرية لا يمكنها أن تصبح ف[illegible] يد حلوان عندكم في مصر، والفرق معروف لا يحتاج لبرهان، ف[illegible] ة يا سيدي بين تصنيع الكمر الحديد الضخم وتصنيع ترس سا[illegible] رق ليس كبيرًا عندنا بين الساعات السويسرية والمصاعد السوي[illegible] إذا قلنا إن الأخيرة هي الأدق بالنسبة إلينا، فهي مرتبطة بأرواح ال[illegible]...»




6 221133 345842

www.nahdetmisr.com